

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَجْلَدُ الْمَلِكِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

الجزء السادس والعشرون

سورة البقرة (١٥٧ - ١٥٠)

المرجع الديني للمسلمين
الشيخ صالح آل صالح
أساتذة الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي أفاض على القلوب نسمات الإيمان وملاً النفوس بصدى القرآن، وقذف في القلوب حب عبادته وعشق المعارف الإلهية، ولم يجعل واسطة بينه وبين العباد ولا سلطاناً لغيره على قلوب الناس جميعاً لتكون رحمته قريبة منهم نازلة اليهم لا يحجبها حجاب، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

الحمد لله الذي جعل له بيتاً في الأرض، وأنزل آدم خليفة في الأرض وأمره بالطواف بالبيت ليكون عنوان الأمن وإستجارة بالله تعالى في الحياة الدنيا كمقدمة ونوع طريق للجوء إليه تعالى ورجاء عفوه ومغفرته في الآخرة، وتفضل الله سبحانه وجعل الحج واجباً عينياً على الناس بقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(١) ليكون هذا الوجوب رحمة بهم جميعاً ببعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما ترشح عنها من أداء العبادات وعدم تفويت فرصة الحياة الدنيا وكونها مزرعة للآخرة.

ومن رحمته تعالى في المقام أن آدم وحواء لم يهبطا إلى الأرض إلا والبيت موجود فيها يدعوها وذريتهما إلى حجه والإنقطاع إلى الذكر عند الطواف به وهذه الدعوة متعددة الصيغ والوجوه وهي متجددة (وعن إبي يزيد بن العجلان قال: جاءت الملائكة إلى آدم عليه السلام وهو يطوف

(١) سورة آل عمران ٩٧.

بالبيت، فقالوا له: يا آدم، إنا كنا نطوف بهذا البيت قبلك بألفي عام، فقال لهم آدم عليه السلام: فماذا كنتم تقولون؟ قالوا: كنا نقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فقال لهم آدم: زيدوا: ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام وهو يني البيت، فقالوا: يا إبراهيم، إنا لقينا أباك آدم عليه السلام فقلنا له: إنا كنا نطوف بهذا البيت قبلك بألفي سنة، فقال لنا آدم عليه السلام: ماذا كنتم تقولون؟ قلنا: كنا نقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فقال لنا آدم عليه السلام: زيدوا: ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال: فقال إبراهيم عليه السلام: قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(١).

وجاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالشرعية المتكاملة الجامعة للأحكام والسنن، قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾^(٢) ومن كمال الدين وتمام النعمة أنه مع حج المسلمين للبيت الحرام جاء الأمر الإلهي لهم باستقبال بيت الله في الصلاة اليومية وغيرها، لتكون صلة المسلم والمسلمة مع بيت الحرام أكثر من صلته مع أي موضع أو بقعة في الأرض، وهذا القانون ثابت إلى يوم القيامة، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٣) لما في هذا الإستقبال اليومي المتجدد والذي يكون على نحو العموم الإستغراقي للمسلمين من إكرام لهم، وتثبيت لدعائم التوحيد في الأرض وهو حرب على مفاهيم الشرك والضلالة.

(١) أخبار مكة للفاكهي ١٠٦/٢.

(٢) سورة المائدة ٣.

(٣) سورة آل عمران ١١٠.

ومثلما أختتم الجزء السابق من هذا التفسير المبارك بتفسير الأمر الإلهي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم باتخاذ البيت الحرام قبلة ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(١).

فقد ابتدأ هذا الجزء وهو السادس والعشرون بتفسير ذات الأمر وإن جاء بآية أخرى ليكون هذا التعدد والتشابه في الأمر منطوقاً ومفهوماً ودلالة دعوة للمسلمين والمسلمات للعناية باستقبال البيت وتعاهده لعظيم نفعه ودوام بركته في الدنيا والآخرة .

ويدل هذا الأمر بالدلالة التضمنية على اللطف الإلهي في إعانة المسلمين في موضوع إستقبال البيت وتفقههم في وجوبه على نحو التعيين والوجوب العيني، وإنتفاء الأضرار بهذا الإستقبال، ومن مصاديقه قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾^(٢). وفيه بلحاظ المقام مسائل:

الأولى : مجئ قول السفهاء هذا لاحقاً ومتأخراً عن توجه المسلمين إلى البيت الحرام مما يعني إنعدام أثره.

الثانية : نعت أهل الإنكار بالسفه وخفة العقل ، ومن دلالاته إنتفاء أو قلة الضرر الذي يأتي من جهتهم .

الثالثة : تسليم الناس باستقبال المسلمين للبيت الحرام، فاذا إحتج السفهاء فان أرباب العقول وعامة الناس لم يحتجوا على تحويل قبلة المسلمين.

الرابعة : لم يأت إحتجاج السفهاء على إستقبال المسلمين للبيت الحرام، إنما إنحصر بخصوص تركهم إستقبال بيت المقدس، ولو كان المسلمون يؤدون

(١) الآية ١٤٩.

(٢) الآية ١٤٢.

بعض صلاتهم إلى ناحيته لم يحتج هؤلاء، مما يدل على توجه المسلمين دفعة واحدة في قبلتهم إلى البيت الحرام.

الخامسة : توجه إنكار طائفة من الناس إلى المسلمين في تحولهم عن استقبال بيت المقدس من غير ذكر للبيت الحرام، ولم يرد الإنكار على توجه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين إلى البيت الحرام ، وفيه شاهد على سلامتهم من أسباب الذم واللوم، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(١).

ويتضمن هذا الجزء تفسيراً للآيات (١٥٠ - ١٥٧) وبياناً جزئياً قاصراً لما فيها من الفيض واسباب الدنو والقرب المعنوي الى مقام الربوبية، والتخلص من المتعلقات الدنيوية .

لقد تضمن هذا الجزء تفسير ثمان آيات ، كل واحدة منها خطاب للمسلمين ومدرسة في باب العبادة والتقوى، وشاهد على جهاد المسلمين في تثبيت دعائم التوحيد في الأرض، وأن الإسلام حق وفقاهة وإرتقاء في سلم المعارف، فدل قوله تعالى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٢) الذي يبدأ بتفسيره هذا الجزء أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عبد لله عز وجل ويتلقى الأوامر منه ويمتاز عن غيره من الناس بنزول الوحي عليه ، وفي التنزيل ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾^(٣).

وقد تجلّى مصداق الآية أعلاه بتوجه الخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليتخذ من البيت الحرام قبلة وأن يتلو قوله تعالى ﴿وَحَيْثُ مَا

(١) سورة المائدة ٦٤.

(٢) الآية ١٤٩.

(٣) سورة الكهف ١١٠.

كُنْتُمْ فَوَلَّوْا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ^(١) على المسلمين فيمثلون له قانوناً عاماً يشمل أهل المشرق والمغرب وفي كل زمان وإلى يوم القيامة .

وأختتم هذا الجزء بتفسير قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ والذي يتضمن البشارة المتعددة والجزاء الحال والآجل ، والوعد الكريم وما فيه تنمية ملكة الصبر ورشحات الأخلاق الحميدة عند المسلمين وإستجارتهم بالله ولجوئهم إلى العبادة كفريضة ثابتة ، وفي التنزيل ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِ^(٢)﴾.

(١) الآية ١٤٤.

(٢) سورة الزمر ١٤.

قوله تعالى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الآية ١٥٠.

الإعراب واللغة

ومن حيث فول وجهك شطر المسجد الحرام: تقدم إعرابها في تفسير الآية السابقة وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره: تقدم إعرابها^(١).

لثلاث: تتكون هذه الكلمة من ثلاثة حروف: الأول: لام التعليل، الثاني: أن المدغمة بلا النافية، الثالث: لا النافية وهي حرف مصدري ونصب، يكون: فعل مضارع ناقص منصوب بأن، للناس: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر يكون، عليكم: جار ومجرور.

حجة: اسم كان مؤخر، إلا: أداة إستثناء.

الذين: اسم موصول وهو مستثنى متصل من الناس، ظلموا: فعل ماض مبني على الضم، والواو: فاعل، منهم: جار ومجرور وهي جملة لا محل لها لأنها صلة الموصول.

فلا: الفاء هي الفصيحة، أي إذا لم يكن للناس عليكم حجة بإستثناء أقوال الذين ظلموا فلا تخشوهم، وقيل أنها رابطة لجواب شرط مقدر، لا: ناهية جازمة.

تخشوهم: فعل مضارع مجزوم بلا، وعلامة جزمه حذف النون، الواو:

(١) أنظر إعراب الآية ١٤٤ .

فاعل، والهاء: مفعول به، واخشوني: الواو عاطفة، إخشوا: فعل أمر مبني على حذف النون، الواو: فاعل، والنون: نون الوقاية، الياء: مفعول به. ولأتم: عطف على لئلا يكون، وكأنه علة ثانية، نعمتي مفعول به، والياء: مضاف إليه، عليكم: جار ومجرور متعلقان بأتم.

ولعلكم تهتدون: الواو: حرف عطف، لعل: حرف مشبه بالفعل، والضمير الكاف: اسم لعل، جملة تهتدون: خبرها.

والحجة في اللغة: البرهان وكذا في الإصطلاح، وتسمى أيضاً الدلالة، وهي شاهد معتبر على صحة الدعوى، وتعتبر عند أهل الميزان تصديقات معلومة موصلة إلى تصديق مجهول فيشمل الكبرى والصغرى معاً في مثل قولك محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي وكل نبي معصوم.

وعرفها أهل المعقول بأنها الوسط المحمول في الصغرى، الموضوع في الكبرى، وهو ينطبق على خصوص النبي في المثال أعلاه.

أما الأصوليون فعرفوها بأنها توصل بصحيح النظر إلى مطلوب خبري ومصادقها الكبريات التي تتفرع عنها المسائل الفقهية، وما يوجب العلم بها والإطمئنان إليها في الأحكام الظاهرية أو ما يوصل إلى الواقع والشيء الذي يثبت متعلقه ويكون كشفاً منجزاً له ولا يبلغ درجة القطع واليقين، فمعه يكون القطع هو الحجة خصوصاً وأنه يلتقي مع الحجة في معناها اللغوي، فيصلح أن يحتج به على الغير، قال تعالى ﴿قُلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(١)،

وفي الحديث: "لم يخل الله خلقه من نبي مرسل أو كتاب منزل أو حجة لازمة أو محجة قائمة"، والمحجة المسلك والمقصد وجادة الطريق وبفضل الله تعالى كان اسم رسالتنا العملية (الحجة) وهي خمسة أجزاء في العبادات والمعاملات.

في سياق الآيات

تتعلق الآيات بموضوع القبلة وهذه الآية جمعت الخطاب الشخصي والنوعي لعموم المسلمين مع بيان الحكمة في لزوم التعجيل العام في تحويل القبلة، وفيها أوامر ووصايا عامة للإعانة على التصدي لأهل الخصومة والضلالة والتعدي.

صلة هذه الآية بالآيات المجاورة على شعبتين:

الأولى: صلة هذه الآية بالآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: صلة آية (سيقول السفهاء) ^(١)، وهذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: تعلق الآيتين بموضوع القبلة.

الثانية: قول السفهاء وإنكارهم تحول المسلمين إلى إستقبال البيت الحرام من الظلم.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين بشارة الأمن والسلامة من إستهزاء وإنكار السفهاء وأهل الشك والجدال.

الرابعة: تأديب وتعليم المسلمين سبل مواجهة أهل العناء والريب والصبر على أذاهم، من غير خوف أو خشية منهم.

الخامسة: جاءت الآية أعلاه بذكر تولي المسلمين عن القبلة السابقة وإنصرفهم عنها وهي بيت المقدس، وجاءت هذه الآية للإخبار عن الجهة التي إنصرف إليها المسلمون وهو البيت الحرام.

السادسة: التوجه لإستقبال البيت الحرام من الصراط المستقيم.

السابعة: هل السفهاء الذين ذكرتهم الآية أعلاه من الظالمين الذين ذكرتهم هذه الآية بقوله تعالى ﴿ثَلَاثُ كُوفٍ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، الجواب نعم، فهم ظالمون لأنفسهم وللمسلمين بهذا الإنكار خصوصاً وأن لفظ السفهاء في آية السياق لا ينحصر بقوم أو ملة معينة فيشمل المنافقين

والمشركين.

الثامنة: ذكرت الآية أعلاه السفهاء بلغة التبعية والجزئية من الناس (سيقول السفهاء من الناس)، وذكرت هذه الآية الناس بلغة العموم مع إستثناء الذين ظلموا منهم.

الثاني: الصلة بين آية (أمة وسطاً) وبين هذه الآية، وفيها مسائل:
الأولى: تتوجه الأمة الوسط والعدل إلى البيت الحرام، ويكون هذا التوجه شاهداً على تعاهدكم لفريضة الصلاة، ووراثتهم للأنياء.
الثانية: من شهادة المسلمين على الناس توجههم إلى البيت الحرام، لأنه دعوة للناس جميعاً للإقتداء بهم، لعمومات التكاليف بالفروع كما هو الحال بالنسبة للأصول.

الثالثة: جاءت الآية أعلاه بالترتيب في الشهادة، فالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم شهيد على المسلمين، وهم شهود على الناس، وجاءت هذه الآية بالأمر المتعدد في إستقبال البيت الحرام بالإبتداء بالأمر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ثم الأمر إلى المسلمين مع التداخل بين الأمرين في الأثر ولغة الخطاب.

ترى هل من تداخل في الشهادة أعلاه أيضاً الجواب نعم، فشهادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم تزكية للمسلمين، وإمضاء لشهادتهم على الناس.

الرابعة: من فضل الله على الأمة التي جعلها الله عز وجل وسطاً وعدلاً وهم المسلمون أنه ليس للناس عليها حجة وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

الخامسة: من تمام النعمة على المسلمين بلحاظ الجمع بين الآيتين أمور:
الأول: المسلمون هم الأمة الوسط.

(١) سورة آل عمران ١١٠.

الثاني: شهادة المسلمين على الناس يوم القيامة.

الثالث: شهادة الرسول على المسلمين.

الرابع: تحويل قبلة المسلمين إلى البيت الحرام.

الخامس: تلقي المسلمين تحويل القبلة بالقبول والرضا والإمتثال الحسن،

وهو من خصائص ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾.

السادس: ما جاءت به الآية أعلاه من البشارة بأن الله لا يضيع أعمال

المسلمين.

الخامسة: يؤكد إمتثال المسلمين في التوجه للقبلة الجديدة أنهم منزهون

عن الإرتداد.

السادسة: الأمة الوسط تحشى الله عز وجل، ولا تحشى الذين يصدون

عن سبيله.

السابعة: أختتمت هذه الآية بقوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، وجاءت الآية

أعلاه بقوله تعالى في القبلة ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾.

الثالث: الصلة بين آية (قد نرى)^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: تؤكد الآيتان تفضل الله عز وجل بالإستجابة للنبي محمد صلى

الله عليه وآله وسلم في قلب وجهه في السماء، وقد نظر إبراهيم عليه السلام

في السماء في الإحتجاج على المشركين بصيغ التقية، قال تعالى ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً

فِي النُّجُومِ﴾ فقال إني سقيم^(٢)، أما النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

فأنه ينظر إلى السماء رجاء نزول تحويل القبلة مع ما فيه من التولي عن قبلة

أهل الكتاب، وهو من وجوه تفضيل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

على الأنبياء السابقين، وإخبار الناس بعظيم منزلته بين الأنبياء، ولزوم إتباعه

(١) الآية ١٤٤.

(٢) سورة الصافات ٨٨-٨٩.

ونصرته.

الثانية: مجيء الآيتين بقوله تعالى ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، وفيه تأكيد الأمر باستقبال البيت الحرام، وحث للمسلمين على التقيد به.

الثالثة: الأمر الإلهي والإرتقاء في المعارف الإلهية.

الرابعة: أختتمت الآية أعلاه بقوله تعالى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، وأختتمت هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، ويتجلى فيه التباين بين صيغة الإنذار للذين ينكرون على المسلمين إستقبالهم البيت الحرام، والترغيب والثناء على المسلمين.

الرابع: الصلة بين آية (ولئن أتيت) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:
الأولى: جاء الأمر الإلهي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين باستقبال البيت الحرام من غير إعتبار لما يقوله السفهاء، أو عدم إتباع أهل الكتاب للقبلة الجديدة ﴿اللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٢).

الثانية: يفيد الجمع بين الآيتين على أن تحول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين إلى البيت الحرام في قبلتهم هداية وتوفيق.

الثالثة: تعدد قبلة أهل الكتاب، وعدم إتفاقهم على قبلة واحدة، وإتحاد المسلمين في تعيين القبلة لأنه أمر من الله لا يقبل الترديد أو النسخ والتبديل.

الرابعة: من العلم الذي جاء للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إستقبال البيت الحرام.

الخامسة: ليس من حجة عند أهل الكتاب على المسلمين في تحولهم إلى إستقبال البيت الحرام.

(١) الآية ١٤٥.

(٢) سورة آل عمران ٩٧.

الخامس: الصلة بين آية (يعرفونه) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:
الأولى: يعرف أهل الكتاب صفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتوجهه إلى البيت الحرام.

الثانية: لقد تفضل الله عز وجل على أهل الكتاب، وجعلهم يعرفون النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بإستقباله البيت الحرام.
الثالثة: دعوة المسلمين إلى عدم الخشية أو الخوف من الذين يخفون الحق، والبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

السادس: الصلة بين آية (الحق من ربك) ^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: إستقبال البيت الحرام من الحق.
الثانية: عصمة المسلمين من الشك والريب في موضوع القبلة والذي يثيره الذين يخفون الحقائق.

الثالثة: من تمام النعمة على المسلمين عدم طرو الشك على نفوسهم بسبب إنكار غيرهم التحول إلى البيت الحرام.

السابع: الصلة بين آية (ولكل وجهة) ^(٣)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:
الأولى: لما جاءت الآية أعلاه بقوله تعالى (لكل وجهة) جاءت هذه الآية لتعين قبلة المسلمين.

الثانية: من مصاديق إستباق الخيرات المبادرة إلى إستقبال البيت الحرام في الصلاة.

الثالثة: لقد جعل الله عز وجل الدنيا دار إمتحان وبلاء، ومن وجوه الإمتحان تحويل القبلة إلى البيت الحرام.

(١) الآية ١٤٦.

(٢) الآية ١٤٧.

(٣) الآية ١٤٨.

الرابعة: نسخ القبلة من مصاديق قدرة الله عز وجل على كل شيء.
الثامن: الصلة بين آية (ومن حيث خرجت) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: تكرار أول الآيتين من ذات الكلمات، ومضامين الأمر الإلهي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأستقبال البيت الحرام.

الثانية: الثناء على المسلمين لخشيته من الله.

الثالثة: تكرار الأمر الإلهي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإلى المسلمين بأستقبال البيت الحرام من الحق والتنزيل الذي تفضل الله عز وجل.

الرابعة: بيان الثواب العظيم الذي ينتظر المسلمين لإمثالهم في إستقبال البيت الحرام.

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين هذه الآية والآية التالية (كما أرسلنا) ^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى: توجه الأمر الإلهي في أول هذه الآية ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾، إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بصفته رسولاً للمسلمين.

الثانية: جاء الأمر من الله عز وجل إلى المسلمين بالتوجه إلى البيت الحرام في هذه الآية ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾، بواسطة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي بعثه الله عز وجل للناس، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ^(٣).

الثالثة: من الآيات التي يتلوها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على

(١) الآية ١٤٩.

(٢) الآية ١٥١.

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧.

المسلمين هذه الآية، وما فيها من نسخ القبلة وتحويلها إلى البيت الحرام.
الرابعة: لقد كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يقلب وجهه في السماء، أما المسلمون فلم يعلموا أن بنسخ القبلة إلى أن نزلت هذه الآيات فهو من قوله تعالى الوارد في هذه الآية ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

الخامسة: لقد تفضل الله عز وجل وأرسل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لهداية الناس، وقد فاز المسلمون بالهداية والإمثال لأوامر الله عز وجل في نسخ وتحويل القبلة.

السادسة: لم يعلم المسلمون علم تحويل القبلة، وسد الذرائع على الناس، وجعلهم عاجزين عن إقامة الحجة على المسلمين.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية (فأذكروني) ^(١)، وفيها مسائل:

الأولى: إستقبال البيت الحرام من ذكر المسلمين لله عز وجل.

الثانية: إمثال المسلمين في الإنصراف إلى القبلة تقرب إلى الله، ورجاء ذكره لهم برحمته وإحسانه.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين التوجه إلى الله عز وجل بالشكر والثناء على نعم عديدة منها:

الأولى: الأمر الإلهي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالتوجه إلى البيت الحرام.

الثانية: تأكيد تحويل القبلة بتوجيه أمر إلهي عام إلى المسلمين بإستقبال البيت الحرام.

الثالثة: إقامة المسلمين الحجة على الناس كمفهوم وشاهد على عجزهم عن الإحتجاج على المسلمين بقوله تعالى ﴿لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

الرابعة: أمر الله عز وجل بعدم الخشية من الظالمين، ويدل في مفهومه على إعانتهم على الأمن والسلامة من كيد الظالمين.

الخامسة: أمر الله عز وجل إلى المسلمين بالخشية والخوف منه، وفيه حث لهم على المبادرة إلى فعل الطاعات ومنها إستقبال البيت الحرام.

السادسة: إستقبال البيت الحرام من تمام النعمة المسلمين.

السابعة: مجيء النعم الإلهية للمسلمين والمسلمات كافة، بلحاظ صيغة الجمع في الآية (ولأتم نعمتي عليكم).

الثامنة: رجاء هداية المسلمين بنزول الأحكام على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث: الصلة بين هذه الآية وآية (استعينوا بالصبر)^(١)، وفيها مسائل:

الأولى: دعوة المسلمين للصبر على الأذى الذي يأتي من الظالمين بخصوص تحويل القبلة وغيره، واللجوء إلى الصلاة ومصاديق التقوى.

الثانية: يستلزم تلقي الحكم الناسخ بالإمثال نوعاً من الصبر، ومبادرة المسلمين لإستقبال البيت الحرام شاهد على تحكيم بأرقى مراتب الصبر.

الثالثة: إستقبال البيت الحرام جزء من الصلاة التي أمر الله المسلمين في الآية أعلاه بالإستعانة بها.

الرابعة: يفيد الجمع بين الآيتين أن المسلمين صابرون وأن الله عز وجل معهم لأنهم يبادرون إلى الإمثال لأوامر الله عز وجل.

الخامسة: تنمية ملكة الصبر على التكليف عند المسلمين، والإقبال عليها بشوق.

السادسة: تهيئة أذهان المسلمين لتحمل الأذى في جنب الله.

السابعة: الثواب العظيم على التقيد بأحكام الشريعة والصبر في مرضاة الله.

إعجاز الآية

تجمع الآية بين الأمر العبادي والبشارة بتمام النعمة وتعليقها على حسن الإمتثال والجهاد في سبيل الله تعالى بالالتزام بالأحكام الشرعية من غير إلتفات إلى صيغ الإعتداء ومحاولات إضعاف همم المؤمنين الصادرة من أعداء الإسلام وأهل البغي.

وتظهر الآية الملازمة بين خشية الله وإتمام النعمة وفيه ترغيب ومدح وثناء، وبشارة إتساع رقعة الإسلام وشمولها لعموم الأرض لقوله تعالى ﴿حَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾.

لقد قال بعضهم (لم ينصرف عن قبلتنا عن علم وإنما فعله برأيه)^(١)، فجاءت الآية بتوكيد وتكرار الأمر الإلهي بالتحول البيت الحرام في جهة الإستقبال، وهو سبيل لمنع الإحتجاج من أهل الكتاب، ليقى قول السفهاء (مَا وَلَانَهُمْ عَنْ قُبُلَتِهِمْ)^(٢)، من غير برهان أو حجة، وجاءت هذه الآية لوأده ومنع تأثيره.

ومن إعجاز الآية أن يأتي الأمر الإلهي للمسلمين بالخشية من الله في آيات القبلية لتوكيد أن إستقبال البيت الحرام من مصاديق التقوى والخوف من الله عز وجل وهو إقرار بنزول القرآن من عند الله عز وجل، ومن الآيات إستثناء الذين ظلموا ويجادلون وليس عندهم حجة وبرهان لتكون الآية بشارة الأمن من الجدال وسبباً لكشف المغالطات.

ومن إعجاز الآية أنها تجمع التكليف والبشارة العامة التي تتغشى جميع الذين يتوجهون لإستقبال البيت الحرام من المسلمين والمسلمات، إذ أختتمت الآية بتمام النعمة على المسلمين، وتبين الآية قانوناً ثابتاً وهو أن الأحكام

(١) مجمع البيان ١/٢٣٢.

(٢) الآية ١٤٢ .

التكليفية ومنها إستقبال البيت الحرام لهداية وصلاح المسلمين، وكل آية في القرآن سبب مبارك للهداية، وفيض سماوي لتقريب المسلمين لسبل الطاعة، وجذبهم لمسالك الإيمان.

وتبين الآية حقيقة وهي أن التكليف ومع ما فيه من مشقة فهو رحمة وتخفيف عن المسلمين، فالأمر العام للمسلمين بمحصر قبلتهم بالبيت الحرام وإن كانوا في أقصى الأرض واقية ومنعة لهم من إحتجاج وجدال الغير وسلامة لهم من اللوم والأذى ولا إعتبار للظالمين في جدالهم وشكهم، ليكون هذا الجدال من ظلمهم لأنفسهم، قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِيهِ اللَّهُ بغيرِ عِلْمٍ﴾^(١).

ويمكن أن نسمي هذه الآية بآية (وحيث ما كنتم) بلحاظ تعلق الآية بالقبلة وجهتها وأحكامها، ولم يرد لفظ (ولأتم) في القرآن إلا في هذه الآية الكريمة.

الآية سلاح

تفضل الله تعالى بالإخبار عن الثواب وإتمام النعمة على عامة المسلمين حث سماوي كريم على المبادرة النوعية والشخصية للتقيد التام بأحكام الشريعة، وإشعار بإبطال محاولات الأذى والكيد وهو من عمومات قوله تعالى ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمُ إِلَّا أَذًى﴾^(٢).

تحويل القبلة إلى البيت الحرام نسخ في حكم ملازم للمسلمين والمسلمات من السنة الثانية للهجرة النبوية المباركة وإلى يوم القيامة، ولا بد أن يكون فيه تنزيل وقرآن يصاحب المسلمين في أيام حياتهم، ويكون لهم سلاحاً في مبادرتهم ومعاملتهم، وبرزخاً دون أسباب الإفتتان والتعدي على حرمت

(١) سورة الحج ٣.

(٢) سورة آل عمران ١١١.

المسلمين، فجاءت هذه الآيات بتوكيد الأمر الإلهي باستقبال البيت الحرام، وبما يمنع من التردد أو الإبطاء والتأخير.

ومع ما في تحويل القبلة من المشاق والعناء فإن هذه الآية جاءت بأسباب تحببها إلى نفوس المسلمين بأنه يجعل غير المسلمين عاجزين عن إقامة الحجة على المسلمين، فمن علامات نبي آخر الزمان أنه يصلي إلى القبلتين فجاء تحويل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين المصدق الخارجي لهذه العلامة.

ومن مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، أن المسلمين لا يفعلون ولا يبدلون فعلاً عبادياً بآخر إلا بأمر من عند الله عز وجل، ومجيء آيات القبلة شاهد عليه، وعلى تقيدهم التام بالأوامر الإلهية وقبولهم لها من غير ثروة أو جدال.

مفهوم الآية

الآية بشارة لإنتشار المسلمين في ربوع الأرض وبقيد أدائهم للصلاة ومحافظةهم على الشعائر وتعظيمها بمعنى أن وجودهم في بلاد الكفر لن يؤثر سلباً على إلزامهم بأحكام الشريعة، ومن الإعجاز الذي يدل على هذا المعنى أن الآية تخاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ وتخاطب المسلمين ﴿حَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾.

لقد كان السفهاء يظهرون إستغرابهم من تغيير المسلمين لقبلتهم، بينما جاءت هذه الآية لتخبر عن إنقطاع حجة أهل الكتاب وغيرهم بتوجه المسلمين إلى البيت الحرام، فلا بد من دلالات منها أن توجه المسلمين العام

الى البيت الحرام يثبت الإجماع والإتفاق على الحكم والرضا والقبول بإتخاذ البيت الحرام قبلة.

وتنهي الآية في مفهومها عن التفريط في الأحكام الشرعية، وتبين أن الخلاف باب لشماتة الأعداء وإحتجاجهم ومن الآيات الواقعية لإعجاز القرآن وصحة إخباره بالغيب وقطعت وحدة المسلمين في قبلتهم الريب والشك وبعثت الخوف والفرع في قلوب الكافرين ولا عبرة بالشاذ النادر والظالم لنفسه ولغيره لأنه لم يستند على برهان أو دليل، فالحسد يعمي بصيرته، وذكر إتمام النعمة في مسألة القبلة آية وبشارة وجزاء دنيوي عاجل، وفي الآية إخبار بأن حسن الإمتثال في القبلة باب للهداية.

وفي الآية مسائل:

الأولى: تأكيد أمر القبلة، ولزوم توجه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى البيت الحرام في صلاته.

الثانية: إكرام البيت الحرام بإستقبال المسلمين والمسلمات له في الصلاة.

الثالثة: بشارة الأمن وإستدامة بقاء المسجد الحرام إلى يوم القيامة، قال

تعالى ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَبَاةً لِلنَّاسِ وَأَمْنَاً﴾^(١).

الرابعة: بيان العلة المتعددة للتحويل إلى البيت الحرام، ومن فضل الله عز وجل أن يبين للمسلمين علة الحكم والنسخ.

الخامسة: إن الله عز وجل يدافع عن المسلمين، ويمنع الناس من الإحتجاج عليهم.

السادسة: إعانة المسلمين في معرفة الناس وتقسيمهم إلى ظالمين وغير ظالمين.

السابعة: الآية مصداق لقوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، لإخبارها عن فوز المسلمين بتمام النعمة، والذي يتجلى بتكامل أحكام الشريعة وإهداء المسلمين للإمتثال لها.

الثامنة: دعوة المسلمين لإستباق الخيرات وقصد الهداية، والإمتناع عن الاختلاف والفرقة في موضوع القبلة.

التاسعة: ترشح تمام النعمة عن خشية الله والخوف منه تعالى.

الآية لطف

مع ما في الأحكام التكليفية من المشقة فإن كل فرد منها لطف متجدد بالمسلمين، وترشح عنه المنافع للحي والميت، وفي الدنيا والآخرة، وتحويل القبلة تكليف بالذات والعرض، لما فيه من تغيير وصرف للمسلمين عن القبلة التي كانوا عليها، والتي يلتقون بها مع شطر من أهل الكتاب وهم اليهود، ولذا جاء الأمر الإلهي، للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة، وللمسلمين عامة في ذات الآية وتحويل قبلة المسلمين لطف من وجوه:

الأول: إنه لطف خاص بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لما فيه من توكيد نبوته وموافقة التحويل لصفاته التي عند أهل الكتاب.

الثاني: بيان قانون ثابت وهو أن التشريع الإسلامي تنزيل من عند الله عز وجل.

الثالث: توجه الأمر الإلهي بتحويل القبلة إلى المسلمين والمسلمات بصيغة خطاب المجموع الإستغراقي لإعانتهم على الإمتثال، وعصمتهم من الشك والريب، والإنصات لأقوال السفهاء.

الرابع: الآية لطف بأهل الكتاب لأنها من المصاديق الخارجية على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لموافقتها لعلامات نبوته التي يتوارثونها.

الخامس: في الآية دعوة لإتباع ونصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله

وسلم والإنقياد للأوامر الإلهية نزلت بواسطته، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(١).

إفادات الآية

من خصائص القرآن أنه يلبس المدركات العقلية لباس المحسوسات، فجاء تحويل القبلية آية في هداية المسلمين إلى الصراط المستقيم، وتدل العناية بتحويل القبلية بكثرة الآيات الخاصة به ومضامينها القدسية على لزوم تقييد المسلمين بالصلاة ويمكن أن نؤسس قاعدة كلية في المقام وهي أن التوكيد على الشرط توكيد للمشروط للملازمة بينهما.

وجاء تحويل القبلية رحمة بالمسلمين والناس جميعاً، والله عز وجل منزله عن الظلم ولكن السفهاء ينكرون على المسلمين ما هو رحمة لهم ولغيرهم قال تعالى ﴿لِكُلِّ وُجْهٍ مَّوْجِبٌ﴾^(٢)، لقد أراد الله عز وجل للمسلمين باستقبال البيت الحرام منع الحجب عن عيونهم، وإزاحة الغمة عن صدورهم، وبعث الأمل في نفوسهم لبلوغ الغايات الحميدة البعيدة والقريبة، وفيه عز لهم وإستقلال عن الملل والطوائف الأخرى من الملبين إنها بداية سيادة أحكام الإسلام في الأرض، جاء إستقبال البيت الحرام أمانة وشاهداً عليها.

وفي الآية دعوة للمسلمين للإرتقاء إلى منزلة العلماء بسلاح الخشية من الله، قال سبحانه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٣)، لدلالة الخشية منه تعالى على معرفته ووجوب عبادته وتعظيم مقام الربوبية ورجاء رحمة الله والإلتفات إليه بالتوكل والإستجارة.

ومن الآيات تأديب وتأدب المسلم في مراتب الخشية من الله على نحو

(١) سورة الإسراء ١٠٥.

(٢) سورة البقرة ١٤٨.

(٣) سورة فاطر ٢٨.

متجدد ومتكرر كل يوم إذ يقرأ على نحو الوجوب العيني في الصلاة ﴿يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١)، لبيان أن الخشية منه سبحانه لا بد وأن تتجلى بالتقوى والصلاح، ومنها إستقبال البيت الحرام وعدم الخوف من الظالمين وأهل الجدل والشك.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بالأمر الخاص للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالتوجه إلى البيت الحرام، وبصيغة الإطلاق المكاني والزماني، ثم جاء الأمر إلى المسلمين بذات الموضوع والحكم، وتلك آية في إعجاز القرآن، فالأصل في الخطاب الموجه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إرادة عموم المسلمين منه إلا مع الدليل على التقييد والخصوص، ففضل الله عز وجل بالخطاب الخاص والعام في الآية وفيه:

الأول: نزول الأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أولاً ثم نزل الأمر إلى المسلمين.

الثاني: توكيد تحويل القبلة لما في التكرار والإعادة من الإفادة.

الثالث: بيان أهمية موضوع وأحكام القبلة.

الرابع: جاءت الآية لمنع إحتجاج أهل الكتاب وغيرهم على المسلمين في تحويل القبلة، وتعدد الأمر في الآية وقاية من إحتجاجهم ومنع من المغالطة وإثارة أسباب الشك والريب.

الخامس: جاء الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى (ومن حيث خرجت)، أما الخطاب والأمر للمسلمين فجاء بقوله تعالى ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا﴾ وبينهما عموم وخصوص مطلق، فالثاني أعم من الأول في المحل والجهة.

السادس : لما جاءت الآيات السابقة بالإحتجاج على السفهاء الذين أنكروا على المسلمين تحويل القبلة إلى البيت الحرام بأنا السماوات والأرض ملك لله عز وجل ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾^(١) ، تضمنت هذه الآية تأكيد توجه أهل المشرق والمغرب إلى البيت الحرام في الصلاة، وتفيد اللام في ﴿لَنَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ دلالات ووجوها :

الأول : لبيان المنافع العقائدية العظيمة التي تصاحب تحويل القبلة، وترشح عنه، وجاء لفظ الناس عاماً يشمل أهل الكتاب وغيرهم فلم تقل الآية (لئلا يكون للسفهاء عليكم حجة) بلحاظ ورود الإخبار عن إنكارهم تحويل القبلة، ولا بلفظ أهل الكتاب الذين أخبرت هذه الآيات بأنهم يعلمون أن تحويل القبلة حق لقوله تعالى بخصوص القبلة ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾^(٢).

الثاني : ترغيب المسلمين بالإمثال للأمر الإلهي.

الثالث : بيان فضل الله عز وجل على المسلمين بآيات القرآن، وجعلها واقية لهم من الكيد والأذى.

الرابع : ذكر مصداق خارجي لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٣).

الخامس : الإخبار عن حقيقة وأمر مترشح عن تحويل القبلة، ليكون المعنى أعم من العلة، بل هو رشحة من رشحات الفضل الإلهي على المسلمين، وصيغ إصلاحهم.

(١) الآية ١٤٢.

(٢) الآية ١٤٤.

(٣) سورة الحج ٣٨.

السادس: جاءت اللام بمعنى (من أجل) قال العجاج:
تسمع للجرع إذا استحيira

للماء في أجوافها خريرا^(١)

السابع: تأتي اللام بمعنى الغرض المحض في الفعل، نحو قوله تعالى ﴿فَالْقَظَةُ أَلْفَرْعُونَ لِيَكُونَ لَهُمُ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾^(٢).

الثامن: حث المسلمين على الإمتثال للأمر الإلهي بالتوجه إلى البيت الحرام، كيلا لا يقول فريق من أهل الكتاب لو تخلف المسلمون عن الإمتثال، أنه لو كان من عند الله لما تخلفوا عنه فتكون مناسبة للتشكيك بالتنزيل، لذا أصاب السفهاء الفزع من مبادرة المسلمين للإمتثال لأمر الله بإستقبال البيت، وجاء الإستثناء بخصوص الذين ظلموا مع إفتقادهم للحجة للتباين بين الظلم والحجة، ولكن الآية تدل على إستمرار جدالهم وشكهم، ومن الشواهد عليه ما ورد في قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الْبَيْتِ كَانُوا عَلَيْهَا﴾^(٣).

ويحتمل الظلم في الآية وجهين:

الأول: إرادة الإطلاق الموضوعي، وما ورد في الظلم في باب العقائد والمعاملات والأحكام.

الثاني: المقصود الظلم بخصوص القبلة وإنكار ترك المسلمين لإستقبال بيت المقدس.

والقدر المتيقن من الحجة في المقام ما هو خاص بتحول المسلمين إلى البيت الحرام مما يدل على إرادة الظلم بخصوص الإنكار والجدال في تحول المسلمين في قبلتهم، وما يلاقونه من الأذى، نعم ما ورد من الوعيد للذين

(١) جمهرة اللغة ٢/٢٥٣.

(٢) سورة القصص ٨.

(٣) سورة البقرة ١٤٢.

ظلموا مطلقاً يشمل هؤلاء كما في قوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾^(١)، ويحتمل الإمتثال في قوله تعالى (إلا الذين ظلموا) وجهين:
الأول: إنه إستثناء متصل.

الثاني: إنه إستثناء منقطع كقوله تعالى ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾^(٢).

والصحيح هو الأول، والمراد الذين يخفون البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما يتصف به من التحول في القبلة إلى البيت الحرام. ومن الآيات تعقب الزجر عن الخوف من الكفار والظالمين بعد ذكرهم، ومحجى الأمر الإلهي إلى المسلمين بالخشية منه، وفيه نكتة عقائدية وهي أن الخشية ملازمة لعالم الإمكان، وأن المخلوق والناقص لا بد وأن يخشى الخالق القادر على كل شيء وجاءت هذه الآية لإفادة حصول الخشية الخاصة والعامة من الله عز وجل، أما الخاصة فهي المتعلقة بالشخص الواحد من المسلمين وإمتلاء نفسه بالخوف والرهبة من الله، والحرص على أداء الوظائف العبادية، وأما العامة فهو خشية المسلمين والمسلمات كأمة واحدة من الله عز وجل وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٣)، ومن خشية المسلمين لله إتخاذهم البيت الحرام قبلة.

وجاء قوله تعالى ﴿وَلَا تُنْفَعِي عَنْكُمْ﴾ لتوكيد حقيقة وهي أن تحويل القبلة نعمة وخير محض، ونفع متصل، فمن الإعجاز في التكاليف والخشية من الله وجود المنافع الكثيرة المتصلة ويكون إستقبال البيت الحرام مقدمة لنعم متعددة كثيرة على المسلمين.

(١) سورة الزخرف ٦٥.

(٢) سورة النجم ٢٨.

(٣) سورة آل عمران ١١٠.

فمن نعم الله عز وجل على المؤمنين ترشح النعم عن الإمتثال لما هو
نعمة، ليكون من معاني اللام في ﴿وَلَا تُنْفِصِي عَنْكُمْ﴾ لام كي كما في قوله
تعالى ﴿لَتُنِينَ لَكُمْ﴾^(١)، وكذا اللام في لعلكم تهتدون، وفيه شاهد على تعدد
النعم الإلهية على المسلمين، والنعم التي تتفرع وترشح عن هذه النعم
والأوامر، ويكون إمتثال المسلمين في تحويل القبلة من عمومات قوله
تعالى ﴿لَنُشْكِرَنَّكُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٢).

التفسير الذاتي

لم يرد لفظ (خرجت) في القرآن إلا في هذه الآية والآية السابقة،
وكلاهما خطاب من الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم
وبصيغة الأمر وخصوص موضوع القبلة، وفيه تأسيس لحكم شرعي وتثبيته
ليوم القيامة، وبيان نكتة عقائدية وهي أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله
وسلم يتلقى التكاليف من عند الله، وأنه يمثل للأمر الإلهي ليكون أسوة
للمسلمين ولم يرد لفظ ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، إلا في آيتين من
القرآن، ويتصفان بأمور:

الأول: كلاهما في سورة البقرة^(٣).

الثاني: صيغة الأمر الذي يحمل على الوجوب.

الثالث: إرادة المسلمين إلى يوم القيامة.

الرابع: تعلق موضوع الآيتين بقبلة المسلمين وتحويلها إلى البيت الحرام.
وجاءت الآية بصيغة التذكير، وواو الجماعة في (فولوا) لغلبة التذكير، مع
إرادة عموم المسلمين والمسلمات، وهو المتبادر من اللفظ والتبادر علامة

(١) سورة الحج ٥.

(٢) سورة إبراهيم ٧.

(٣) أنظر الآية ١٤٤.

الحقيقة، ولعمومات الخطاب القرآني، وأحكام التكليف التي تشمل الرجال والنساء، وورد لفظ (شطر) في القرآن خمس مرات، وفيه مسائل:

الأولى: كل هذه الألفاظ بخصوص البيت الحرام.

الثانية: إرادة توجه المسلمين له في الصلاة.

الثالثة: مجيء هذه الآيات متجاورات في سورة البقرة^(١).

الرابعة: جاءت هذه الألفاظ الخمسة في ثلاث آيات، وجاءت كلمة

(الحجة) أربع مرات في القرآن، قال تعالى ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾^(٢).

والمراد من الحجة أعلاه الخصومة والاحتجاج لتجلي الحق والبرهان وصدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنه لا يفعل إلا ما يأمره الله عز وجل به، ولأن الكفار صاروا محجوجين، فيصبح الاحتجاج والجدال منهم سائلة بانتفاء الموضوع، وكذا بالنسبة لقوله تعالى ﴿لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أي أن احتجاجهم من مصاديق ظلمهم لأنفسهم، وسعيهم للإضرار بالمسلمين، وجاء الأمر الإلهي للمسلمين بالخشية منه لنيل المراتب العالية في الجنة، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ الَّذِي يَتَقَاهُ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾^(٣).

وورد لفظ (فلا تخشوهم وأخشوني) مرتين في القرآن^(٤)، إذ جاء مرة أخرى بما يدل في مفهومه على البشارة للمسلمين بالسلامة والأمن من الكفار

(١) أنظر سورة البقرة الآيات ١٥٠، ١٤٩، ١٤٤.

(٢) سورة الشورى ١٥.

(٣) سورة النور ٥٢.

(٤) أنظر سورة المائدة ٣.

وأذا هم قال تعالى ﴿الْيَوْمَ يَنْسُ الْذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾^(١)، وسورة المائدة آخر سور القرآن نزولاً، وفيه دلالة على عجز الكفار عن الإضرار بالمسلمين بخصوص تحويل القبلة إلى البيت الحرام، وقد جاء ذكر تمام النعمة في القرآن على يوسف عليه السلام وآل يعقوب^(٢)، وعلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى ﴿وَيْتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^(٣).

وأختتمت الآية أعلاه بالإخبار عن هداية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته إلى سبل النجاح والفلاح والتوفيق، بينما أختتمت الآية محل البحث بقوله تعالى (لعلكم تهتدون) وتتجلى في المقارنة بينهما معاني إكرام الله عز وجل لرسوله، ودعوة المسلمين للإجتهد في العبادة والإقتداء بسنته الشريفة.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: تحويل قبلة المسلمين إلى البيت الحرام.

الثانية: توكيد الخطاب والأمر بنسخ القبلة بإجماع الأمر الخاص إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والعام إلى المسلمين.

الثالثة: اتحاد مضامين الخطاب الخاص والعام بخصوص التوجه إلى البيت الحرام.

الرابعة: تحويل القبلة إلى البيت الحرام نعمة على المسلمين، وخير محض.

الخامسة: في تحويل القبلة سلامة من إحتجاج أهل الكتاب والناس

(١) سورة المائدة ٣.

(٢) أنظر سورة يوسف.

(٣) سورة الفتح ٢.

جميعاً.

السادسة: تفقه المسلمين في الدين، وزيادة معرفتهم بأحوال الناس ومراتبهم وأن الظالمين لا عبرة لإحتجاجهم وجدالهم.

السابعة: الآية من مصاديق قوله تعالى ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا ذَنْبُكُمْ﴾^(١)، بلحاظ غلق باب الإحتجاج والحجة من الناس في المقام لأن تحويل القبلة موافق لعلامات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المذكورة في الكتب السماوية.

الثامنة: زجر المسلمين عن الخشية والخوف من الظالمين.

التاسعة: توجه الأمر الإلهي إلى المسلمين للخوف منه، والإمتثال لأوامره وإجتناّب معاصيه، وفيه خير الدنيا والآخرة، ففي خشية الله السلامة في النشاطين، وفي الخشية من الظالمين الخسارة والخزي فيها.

العاشر: إختتام الآية بما يجعل المسلمين يبذلون الوسع في طاعة الله، والإخلاص في عبادته.

التفسير

الأولى: وجاءت سبع كلمات في أول هذه الآية تكراراً للآية التي سبقتها في موضوعها، والصدر الأول من ألفاظها ومضامين التشريع والأحكام مما يعني وجود أسرار عقائدية في موضوع القبلة، وذخائر مكنونة تنفع عموم المسلمين ليس فقط في عباداتهم بل مطلق شؤونهم الدنيوية، وعالم الجزاء في الآخرة.

وفي هذا التكرار وجوه:

الأول: بيان أهمية حكم القبلة تثبيت لحكم النسخ فيها.

الثاني: موضوعية إستقبال البيت الحرام.

الثالث: إتحاد اللفظ والمعنى في الآيتين وجاء التكرار للتأكيد.

(١) سورة آل عمران ١١١.

الرابع: إتحاد اللفظ مع تعدد المعنى والمضمون بلحاظ مناسبة النزول.
الخامس: جاءت الآية السابقة بخصوص الإنصراف عن بيت المقدس، وجاءت هذه الآية في الإنصراف إلى البيت الحرام من أي مكان من الأرض.
الثانية: في الآية إلى جانب النسخ التغيير الإستقلال في هذا المنسك، والرجوع إلى الأصل الذي عليه الأنبياء وتدل على أن المسلمين هم الذين يحيون سنن الأنبياء ويحافظون عليها، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١)، لما في الإتحاد في القبلة من معاني الوحدة والإتحاد.
الثالثة: الآية سلاح ومناسبة لتحقيق النصر والحسم وأداء المناسك مع إعراض عن أهل العناد والجحود وتجاوز لتعديهم، قال تعالى ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(٢).

الرابعة: الآية سبب لخية الكفار وتعطيهم درساً وموعظة في منعة الإسلام وقوته.

الخامسة: فيها دعوة لهم للإسلام وإخبار عن التزام المسلمين بأحكام القبلة على نحو قطعي وتام.

السادسة: لأن القبلة جرى فيها النسخ جاء التوكيد لبيان لغة القطع والحسم فيه ولتثيته في النفوس ولمنع الوسواس والريبة من التسرب إلى موضوعها.

السابعة: الآية تأديب وإمتحان للمسلمين في كيفية الإستجابة للتغيير في المناسك وفق الأوامر القرآنية.

وإبتدأت الآية بالأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خروجه في الآية وجوهاً:

(١) سورة آل عمران ١٠١.

(٢) سورة الفرقان ٦٣.

الأول: في الآية حذف والتقدير ومن حيث خرجت للصلاة.

الثاني: جاء ذكر الخروج عنواناً للإطلاق المكاني، أي في موضع وبلد يجب التوجه إلى البيت الحرام.

الثالث: في الآية إشارة إلى خروج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للدفاع ولزوم تعاهد التوجه للبيت الحرام في كل الأحوال، قال تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ (١).

ولا تعارض بين هذه الوجوه، وكلها من مصاديق الآية، كما يشمل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الخطاب العام في الآية، ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (٢).

قوله تعالى ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾

الأولى: هل هذه الآية من عطف العام على الخاص، أم أن الواو إستئنافية، أم أنها تأكيد وبيان للعام بلحاظ أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم هو أيضاً للأمة، الأقوى هو الأخير لإنحلال الخطاب بعدد المكلفين إلى يوم القيامة ولتنوع التفكير في تغيير القبلة وعدم الرضا بالأقرب والأدنى في حالات الضرورة مثلاً.

الثانية: ليكون إستقبال الكعبة المشرفة شعاراً ومنسكاً يستقل به الإسلام وجزء لا ينفك منه.

الثالثة: إستقبال الكعبة مقدمة عقلية وتمهيد لأداء الأمة فريضة الحج.

الرابعة: فيه دعوة لإكرام البيت الحرام، الذي هو طبعي كلي، ولكل مسلم قسط من الشرف والعز والشأن في موضوعه، فلا غرابة أن ترد نصوص بان الحجر الأسود فيه موثيق الأنبياء، وأخرى تؤكد على إكرام

(١) سورة آل عمران ١٢١.

(٢) سورة البقرة ١٤٤.

جهة القبلة مطلقاً، قال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾^(١)، فمن مصاديق وضعه للناس إستقباله في الصلاة، ومن بركاته الفيض الذي يترشح عن الإتحاد العام في إستقباله. ويحتمل الخطاب أمرين:

الأول : إختصاص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بصيغة المفرد (ومن حيث خرجت) ولا يشمل الخطاب العام الذي تعقبه (وحيث ما كنتم).

الثاني : شمول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالخطاب العام أيضاً وتقديره: وحيث ما كنت يا محمد فول وجهك شطره). والصحيح هو الثاني، وليس هو من تحصيل ما هو حاصل ومن الإعجاز في المقام أن الأمر الخاص جاء لحال الخروج أما الأمر العام فلهيئة الإقامة والكون في الموضع والبلد، فجاء الإلتفات في جهة الخطاب بالخصوص والعموم، مع إتحاد موضوعه وهو جهة القبلة.

بحث علمي

تؤكد الآية على لزوم التوجه إلى البيت الحرام وظاهرها الدقة العقلية في التوجه له من عموم الأرض ولكن الأحكام تؤخذ وفق الدقة العرفية إلا ما خرج بالدليل بالإضافة الى قاعدة نفي الحرج.

وقد بذل علماء الهيئة والرياضيات جهوداً متصلة لتحديد جهة القبلة ومسار الخط الموصل بين كل بلد البيت الحرام ولحاظ خط نصف النهار واستعملوا الدائرة الهندية ودرجات الانحراف وصنعت الآلة المغناطيسية لتعيين جهة الجنوب ووضعت الجداول الهندسية لتحديد لها، ولكن تلك الدراسات والحسابات ظلت قاصرة عن الدقة في تعيين القبلة لطول المسافة بين الأمصار المتباعدة والبيت الحرام بل أن المتأخرين خطأوا المتقدمين في

(١) سورة آل عمران ٩٦.

تحديد القبلة.

واليوم ومع الإرتقاء السريع في علوم الفلك والأرصاد تبرز وظيفة العلماء والمختصين في تحديد جهة القبلة على نحو الدقة العقلية ولو باتجاه الحرم.

ليظهر إعجاز الآية في الأمر بالتوجه إلى الكعبة والبيت الحرام على نحو الضبط والتمام وإن كان يتعذر ضبطه في السابق وتشمله قاعدة نفي الحرج، وقاعدة كل ما غلب الله عليه فالله أولى بالعدر، ولحمل الشرط في الآية على الجزء وإمكان تحقق الحكم والجهة وقاعدة الميسور.

لذا أقترح صنع جهاز رادار وإتصال مع الأقمار الصناعية يمكن من خلاله تحديد جهة القبلة لكل بلدة على نحو الدقة التامة في الإستقبال وصناعة جهاز آخر شخصي صغير أقل حجماً من الهاتف النقال والأولى أن يكون جزءاً منه لتحديد القبلة بحيث يمكن مد خط مستقيم وهمي بين المصلي والبيت الحرام وإن بعدت المسافة، ولو مال المصلي عن جهة البيت الحرام فإن الجهاز يعطي إشارة تنبيه سواء في ابتداء الصلاة أو أثناءها.

والأولى إختراع مثل هذا الجهاز لتوظيف العلم للأداء الأفضل للعبادات وللسلامة في الدين والسعي في صناعة مثل هذا الجهاز في هذا الزمان وظيفة شرعية لا تنحصر بفرد أو مسؤول دون آخر وسيحقق لنا توجهاً قلبياً باتجاه الكمالات الإنسانية وهو تجارة وكسب، وفيه سكينة وإستبشار بنيل المراد بالتوجه الأتم نحو القبلة وأداء العبادات على وجهها الأكمل.

قوله تعالى ﴿لَلَّذِينَ كُفِرُوا عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾

فيه وجوه:

الأولى : الإبطاء والتلكأ في التوجه إلى القبلة يربك المؤمنين ويكون باب شماتة من الآخرين.

الثانية : إطلاق صفة الناس وعدم حصر الحجية بأهل الكتاب يدل على عموم الأثر وإن التوجه الجماعي إلى القبلة ضرورة مستديمة حتى يوم القيامة ومنسبطة على كل البلدان والأمصار وأنت ترى أن الاختلاف في حكم هلال عيد الفطر في حال حدوثه يجعل ويظهر الأمر وكأنه خلاف وفرقة وتناقض في الأحكام.

الثالثة : المبادرة والمسارعة نحو القبلة يقطع الطريق على أعداء الدين.

الرابعة : التخلف عن إستقبال البيت يهيء لأهل الكتاب وغيرهم مادة وموضوعاً للإحتجاج مما يسبب إثارة الشكوك والريب في النفوس.

الخامسة : هناك ملازمة بين صدق النبوة وبين إستقبال البيت الحرام خصوصاً وأن النبي الذي ينتسب إليه أهل الكتاب ويفتخرون به وهو إبراهيم عليه السلام هو الذي وضع قواعد البيت الحرام توطئة للإسلام قال تعالى ﴿وَأَذِیْرُفْعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ﴾ ^(١).

السادسة : التوجه إلى القبلة أمر الهي والتردد من قبل بعض المسلمين فرصة سانحة لأعداء الإسلام للنيل منه ومن أحكامه عامة، فالعدو يستغل الخطأ الشخصي في التطبيق للتعدي على النوع بغير حق.

السابعة : إستقبال البيت الحرام حاجة عقائدية، وفيه رد على التساؤل عن سبب إستقبال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لبيت المقدس ومتابعتهم بذلك.

الثامنة : إنه دعوة للإهتمام الجاد والسعي لفتح مكة الذي يبقى أهم

وأقدس موضع عند المسلمين.

التاسعة : حث المجاهدين على بذل المال والنفوس من أجل فتح مكة وما حولها.

العاشرة : تثبيت فريضة الحج إلى يوم القيامة، لأنه بناء في صرح الدين، وترسيخ لمبادئ الإسلام، وتثبيت للفرائض الأخرى، والطريق إلى النجاة يوم القيامة، وهو حجة على الناس، قال تعالى ﴿وَلَئِكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾^(١).

وقد جاءت حجة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الناس جميعاً.

وجاءت الآية بلفظ (الناس) لإرادة المعنى الأعم وشمول المشركين ، وقد يقول بعض أهل الكتاب أن المذكور في التوراة يتخذ الكعبة قبلة له، وهذا النبي يتوجه إلى بيت المقدس أو يقولون كيف يخالف شريعتنا وهو يتوجه إلى قبلتنا، أما المشركون فانهم يتوجهون باللوم وكيف أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم على ملة إبراهيم ويترك قبلة والبيت الذي تعاهده، فجاء إستقبال البيت منعاً للجدال والإحتجاج وتوجيه اللوم للمسلمين، وربما قال بعض أهل الكتاب إنا نتبع النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إذا عاد إلى إستقبال بيت المقدس فجاءت الآية بالقطع في إستقبال البيت الحرام.

ولم تكف قريش عن إيذاء المسلمين والإضرار بهم، فالى جانب الغزو والهجوم على المدينة المنورة إستمروا ببث أسباب الشك والريب، فحينما تحول النبي محمد والمسلمون في قبلتهم إلى البيت الحرام قالت قريش: قد راجعت قبلتنا، وهو من معاني قول تعالى ﴿لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

وقال مشركوا العرب حين صرفت القبلة إلى الكعبة : قد رجع إلى قبلتكم

فيوشك أن يرجع إلى دينكم^(١)، أي تناجوا بينهم وقال بعضهم لبعض ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(٢).

وتدل الآية الكريمة على عدم إعتبار هذا القول أو ترتب الأثر عليه، ومن دلالات قوله تعالى ﴿لَّا يَكُونُ لِّلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، أن في تحويل القبلة إلى البيت الحرام نجاة للمسلمين من إحتجاج وحجج الغير عليهم، ودخول مشركي العرب من ضمن عموم الناس في الآية أعلاه لإفادته الإستغراق والعموم، ليكون قولهم هذا أدنى رتبة وأوهن أثراً من قول السفهاء ﴿مَا وَلَاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾^(٣)، بوجوه:

الأول : لغة البيان والتبصرة ، قال تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(٤).

الثاني : الإستدلال بالتنزيل وأنه حق بذاته وبأوامره ونواهيه.

الثالث : إستحضار البشارات بالنبي محمد صلى الله وآله وسلم وما ذكرته الكتب السماوية السابقة من خصاله الكريمة ، ومنها إستقباله البيت الحرام.

الرابع : البيت الحرام أول بيت لله في الأرض، وهو قبلة الأنبياء السابقين ومقصد حجهم وموضع تلييتهم مجتمعين ومتفرقين، وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: حج موسى بن عمران ومعه سبعون نبيا من بني إسرائيل،

(١) الدر المنثور ١/٢٩٤.

(٢) سورة الإسراء ٨٢.

(٣) الآية ١٤٢.

(٤) سورة النحل ٤٤.

خطم^(١) إبلهم من ليف يلبنون وتجيهم الجبال، وعلى موسى عبايتان قطوانيتان قطوانيتان يقول: لبيك عبدك ابن عبدك^(٢).

الخامس : ملاقة الإنكار والإحتجاج والإستهزاء بخصوص تحويل القبلة بأمور مجتمعة:

الأول : المواظبة في الفرائض اليومية على إستقبال البيت الحرام.

الثاني : تلاوة آية البحث والآيات التي فيها ذكر القبلة.

الثالث : الصبر على الإنكار ونحوه.

الرابع : تلقي ما يأتي به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالقبول والتصديق والإمثال.

بحث عقائدي تاريخي

ترى لماذا لم تكن قبلة المسلمين من الأصل وبداية الإسلام البيت الحرام فيه وجوه:

الأولى : إنه مناسبة وموضوع لإختبار المسلمين.

الثانية : جعلهم يعتادون على الطاعة وتلقي النسخ بالرضا والقبول.

الثالثة : إمتحان المسلمين في الإستجابة للتغيير.

الرابعة : الإنتقال والإرتقاء في الأحكام سنة ثابتة في جميع الشرائع.

الخامسة : مخالفة كفار قريش والوثنيين في مكة بعد أن أدخلوا الأصنام

للبيت الحرام ولكي لا يقولوا بأن المسلمين عبدوا الأصنام وخضعوا وسجدوا لها، ومع هذا الإحتياط والحذر الشرعي فإن أهل الريب والذين في قلوبهم مرض يحاولون إثارة مسألة جعلية وشبهة واهية.

(١) الخطم: جمع خطام- بكسر الخاء- وهو زمام البعير، يقال خطمت البعير أخطمه

خطماً ، والخطام جبل يجعل في طرفه حلقة ثم يقلد البعير ثم يثنى على مخمطه، ويفتل من الليف كما في الحديث أعلاه أو الشعر والكتان وغيره.

(٢) البحار ١١/١٣.

السادسة : الأمن من المكر والكيد مطلقاً في موضوع القبلة لحين ظهور قوة المسلمين وعز الإسلام.

السابعة : الإستئناس بإستقبال بيت المقدس لأنه قبلة معهودة عند أهل الكتاب فالتوجه إلى البيت الحرام منذ الأيام الأولى قد يسبب نفرة أو تردد بعضهم عن دخول الإسلام.

الثامنة : سبحانه ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(١) ، وقد لا نستطيع إدراك إدراك الحكمة في جعل القبلة الأولى للمسلمين بيت المقدس ، ومن وجوه هذا الحكم تعاهد الإسلام في بداياته وإجتناّب المواجهة المبكرة مع أهل الكتاب ، وإثارة العداوة ومنع إيجاد أسباب الفتنة والخصومة.

التاسعة : إعطاء درس لأهل الأرض بأن المسلمين يستجيون لتبديل شرائط العبادة بالأمر الإلهي الموجه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو دليل على عدم إمكان النيل من دينهم وبث الفرقة بين صفوفهم ، لذا فانك ترى من أهم ما إجتمع عليه المسلمون هو القبلة وجهتها.

العاشرة : بعث الفرع والياس في قلوب المشركين بإظهار وجوه الإلتقاء بين المسلمين وأهل الكتاب ، وفي التنزيل ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ﴾^(٢).

الحادية عشرة : من علامات نبي آخر الزمان انه يصلي الى القبليتين ، فالتحول الى المسجد الحرام يثبت الحجة وتصدق معه البشارة.

(١) سورة الأنبياء ٢٣.

(٢) سورة الأحقاف ٩.

قوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾

يستمر إحتجاج أهل الريب والعناد، ويشيرون الشبهات حتى في حال إلتزام المسلمين التام بالأحكام الشرعية وتوجههم صوب الكعبة قبله لا لخلل عند المسلمين قبل تحويل القبلة أو بعده بل لما جبلت عليه نفوس الظالمين من الإعتداء والظلم والبغضاء والشحناء ورفضهم الإنصياع لصوت الحق لأن التوجه إلى البيت الحرام وإستقباله رحمة وباب للثواب والأجر لمن إستجاب له لقوله تعالى ﴿أَنَ اللَّهُ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

والذي سكت من غير المسلمين لم ينله فيه ثواب ولا عقاب بخصوص موضوع الإعتراض وإن كان مأثوما بعدم الإستجابة لدعوة الإسلام أما الذي أظهر الشكوك فإن العذاب ينتظره فهو يثير الفتن والتساؤلات بصيغة الإنكار.

فعندما كان المسلمون متوجهين في صلاتهم صوب الصخرة يقول أهل التشكيك كيف يتبعون اليهود في قبلتهم وماذا يميزهم عنهم وعندما تحولت القبلة إستغربوا وأثاروا الشبهات.

وهذا الشطر من الآية بشارة للمسلمين من وجوه:

الأول : نعت الذين يحتجون على المسلمين بأنهم ظالمون.

الثاني : في اللغة قاعدة وهي أن المستثنى أقل من المستثنى منه، مما يدل على أن الذين ينكرون على المسلمين بعض أفعالهم العبادية هم الشطر الأقل من عموم الناس، وفيه نوع تخفيف عن المسلمين.

الثالث : وهن وضعف حجة وجدال الذين ظلموا لذا قال الله تعالى (فلا تخشوهم).

وتعلن الآية عن بداية حال من العز جديدة للمسلمين بعدم الخشية من الناس وإحتجاجهم بإستثناء الظالمين من أهل الجدال والخصومة والريب كما

(١) سورة آل عمران ١٧١.

في قريش فانها تحارب النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين سواء إستقبلوا بيت المقدس أو البيت الحرام ، لأن الإستقبال مطلقاً مرآة الإيمان ، وهو من الطبيعي الكلي الجامع بين المسلمين وأهل الكتاب وفيه فزع وخوف للكفار .

وقد جاءت هذه الآية بصيغة الإطلاق بالنسبة للناس ، وورد ذات الإستثناء ولكنه خاص بأهل الكتاب بقوله تعالى ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾^(١) ، والنسبة بين الإستثناء الوارد الوارد في الآيتين عموم وخصوص مطلق من جهتين:
الأولى : الجدال والاحتجاج ، والآية أعلاه من سورة العنكبوت هي الأعم .

الثانية : إيذاء الذين ظلموا للمسلمين بخصوص القبلة ، وآية البحث هي الأعم لأن الأستثناء ورد من عموم الناس وليس خصوص أهل ملة أو مشركي العرب .

بحث لغوي

الألف واللام تأتي على وجوه:

الأول: الإستغراق والذي تأتي محله (كل) لافراد الجنس كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: "العلماء ورثة الأنبياء"^(٢) .

الثاني: الحقيقي الذي يتعلق بحقيقة الشيء وماهيته نحو ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾^(٣) .

(١) سورة العنكبوت ٤٦ .

(٢) تفسير الثعالبي ٤٦٢/٢ .

(٣) سورة الأنبياء ٣٠ .

الثالث: تأتي للعهد الذهني كقوله تعالى ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾^(١).

الرابع: العهد الذكري كقوله تعالى ﴿فِيهَا مَصْبَاحُ الْمَصْبَاحِ فِي زُجَاجَةٍ﴾^(٢).

وهل هي في المقام جنسية أم عهدية؟ الجواب: إنها لهما معاً فالمقصود الناس جميعاً ومنهم الذي حول المسلمين في المدينة والضمير يعود للإثنين معاً لإتحاد السنخية في الذين ظلموا، نعم موضوع القبلة تم النسخ فيه وخرج المسلمون من الإبتلاء بتحويله بسلامة في العقيدة والعمل منذ الساعة الأولى للأمر به ولكن ذلك لا يعني إنقطاع شكوك أهل الزيغ والريب والفتنة.

وظاهر الآية وما فيها من الإستثناء أن الذين ظلموا تكون لهم حجة على المسلمين في توجيههم إلى البيت الحرام فتحمل الحجة هنا على الإحتجاج والجدال ومنه أيضاً إخفاء الظالمين لما عندهم من الأخبار بأن نبي آخر الزمان سيصرفه الله في قبلته إلى البيت الحرام، الذين ظلموا سيدعون أن التحويل إجتهد أو يقولون إن المسلمين سيرجعون إلى قبلتهم.

وذكر في معنى الآية ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ان (الا) في موضع ولا، أي

ليست هي إستثناء، وورد عن أبي عبيدة أنه بمنزلة الواو أي بمعنى والذين ظلموا، وأنكر عليه الفراء والمبرد^(٣) لعدم تقدم إستثناء عليه، والصحيح أنه إستثناء لأصالة الظاهر، وأن عدم حجة الذين ظلموا من باب الأولوية لولا أن تجعل له الآية موضوعية.

(١) سورة المزمل ١٦.

(٢) سورة النور ٣٥.

(٣) مجمع البيان ١/٢٣٢.

قوله تعالى ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾

الأولى : نهى وأمر يتعلقان بموضوع واحد، فبعد أن أخبر الله سبحانه أن الظالمين سيواصلون إيذاء المسلمين والإفتراء عليهم في موضوع القبلة فقد ساءهم تحويلها وإلتزام المسلمين وإمثالهم الفوري في التوجه صوب البيت الحرام أي إنهم تلقوا أسباب الغيظ من وجوه:

الأول: نزول الأمر الإلهي بتحويل القبلة.

الثاني: حسن امثال المسلمين وتقيدهم بأحكامها.

الثالث: سرعة إستجابة المسلمين وإقتران الإستجابة بنزول الأمر بتحويلها مع أهمية موضوع القبلة في حياة المسلمين العقائدية والعامّة، بينما التجأ قوم موسى إلى كثرة السؤال والرجوع إليه ﷺ في موضوع البقرة وذبحها وهو قضية شخصية^(١).

الثانية : لقد فوجئ غير المسلمين بالأمر بالتحويل وإنبهروا من إقتران الأمر بالإستجابة المطلقة من جميع المسلمين مما قد حفزهم على التجاهر بالتعدي.

الثالثة : كأن معركة إعلامية ونفسية تولدت عن تحويل القبلة، وصحيح أن أثرها العملي معدوم إلا أن الآية جاءت للقضاء على آثارها النفسية والمنع من أضرارها.

الرابعة : تخلق الآية حالة من الثقة بالنفس والعز عند المسلمين وتدعوهم لعدم الإلتفات إلى الشبهات والشكوك التي يثيرها هؤلاء.

الخامسة : النهي عن الخوف منهم لم ينحصر بموضوع القبلة بل هو قاعدة كلية سيالة تتعلق بجميع أحكام الشريعة وميادينها.

السادسة : تنفي الآية الجبن والفرع والخوف في تنفيذ وإتيان الأحكام الشرعية، أما التقية والصبر فيخرجان بالمخصص.

(١) أنظر سورة البقرة الآيات ٦٥، ٧٣ .

السابعة : أنها نوع من خشية الله فلا تكون إلا حيث أمره ومرضاته، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾^(١).

الثامنة : مضامين الآية ركن من أركان الحفاظ على أحكام الإسلام كما أنها محدودة ومشروطة.

التاسعة : خشية الله الإتيان بما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

العاشرة : من مصاديق الخشية التي عليها الآية إستقبال جهة البيت الحرام والإعتقاد والتصديق به والتحذير من تركه.

الحادية عشرة : تدل الآية بالدلالة التضمنية على الوعد بحفظ القبلة وتجنيب المسلمين أذى القوم الظالمين.

الثانية عشرة : بالتزام وتقييد المسلمين التام بأحكام الآية لم تثبت القبلة وحدها بل يزداد الإيمان ويرسخ في قلوبهم فتتجلى لهم مضامين الإعجاز العملي.

الثالثة عشرة : موضوع الظلم يضعف ويتضاءل في نوايا وأفعال الظالمين أو أن أثره ينحسر ويعتبر أفراد منهم ويختارون الإسلام ويتجه آخرون إلى ترك التعدي على المسلمين بعد رؤية الآيات والإقتناع بعدم تحقيق الصدع في صفوفهم.

الرابعة عشرة : يمكن إعتبار الآية توطئة لخوض الحروب مع الذين ظلموا لإطلاق الخشية في الآية وتشمل الأفراد الزمانية الطولية.

الخامسة عشرة : الآية مدرسة في الحرب النفسية ووقاية النفس والمجتمعات الإسلامية من سموم الأعداء وما ييثنونه من الشكوك والشبهات.

وليس من حصر لمصاديق ومواضيع خشية الله فتكون في البيت والعمل والسوق وعند الوقوف بين يدي الله، والعزم على التوجه إلى سوح القتال

والصبر عند البلاء والإسترجاع عند المعصية، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لَا يَلْجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ وَلَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ^(١).
ويحتمل موضوع قوله تعالى ﴿وَآخِشُونِي﴾ وجوهاً:

الأول : المقصود خشية الله بخصوص القبلة، ولزوم إستقبال البيت الحرام.

الثاني : المراد أداء الصلاة الواجبة بلحاظ أن الإستقبال شرط فيها، فجاءت الآية بذكر الشرط وإرادة المشروط.

الثالث : إرادة المعنى الأعم والإطلاق في خشية الله في حال السراء والضراء وفي الليل والنهار ، وخشية الله طريق ومقدمة لطاعته ومرآة لها وأثر لها، وتلك آية في بديع صنع الله، وتحتمل الآية وجوهاً:

الأول : التضاد والتنافي بين الخشية من الله والخشية من الظالمين.

الثاني : الجمع بين الخشية من الله والخشية من الظالمين.

الثالث : غلبة الخشية من الله في القلب على الخشية من الظالمين.

والصحيح هو الأول ، فجاءت الآية لتنزيه المسلمين من الخوف من أعداء الدين، وهناك فرق وتباين في ماهية الخشية، إذ أن الخشية من الله عز وجل سكونية وطاعة وصلاح وإبتعاد عن المنكرات، أما الخشية من الذين ظلموا فهي الذعر والفرع وتعطيل لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وصحيح آية البحث جاءت بخصوص القبلة وتحويلها إلا أنها مصداق وفرد واحد من أفراد الخشية من الله عز وجل، ليكون من بركات إستقبال البيت الحرام تنمية الخشية من الله في نفوس المسلمين ، وظهورها على جوارحهم وأعمالهم ساعة الإستقبال وعند إستحضاره بالوجود الذهني ومطلقاً.

بحث بلاغي

وردت مادة خشى نحو أربعين مرة في القرآن تبين كلها لزوم الخشية من الله عز وجل دون سواء مع مدح أهل الخشية منه تعالى، ونهي عن خشية ومخافة غيره، وذم الذين يخشون غير الله عز وجل، ومرادف الخشية الخوف وقد ورد الغالب منه في الخوف من الله والتحذير من خوف غيره سبحانه إلا أن الخوف ورد بالمعنى الأعم كما في قوله تعالى ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا﴾^(١)، وقوله تعالى ﴿وَإِنَّ امْرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾^(٢).

ومن إعجاز القرآن أن المرادف للفظ لا يقوم مقامه ومن أسرار العربية ومناسبتها لإعجاز القرآن وجود بعض الفوارق بين الكثير من المترادفات حال الإستعمال أو عند الإستعارة والمجاز.

فبين الخشية والخوف عموم وخصوص مطلق، فكل خوف هو خشية وليس العكس، وجاء التشبيه بأعلى مراتب الخوف وأشدّها.

ويقال الخشي للنبات اليابس، والخشا للزرع الأسود من البرد أي أن الخشية تكون من الله عز وجل تامة وهي من صفات الكمال عند الإنسان وإذا كانت الخشية من غير الله فهي من علامات ضعف الإيمان والنقص وهذه الدراسة المقارنة تدل على أن القوة لله جميعاً وأن الأذى المتوقع من غيره تعالى سهل ويسير وقد يتبدد سبباً وموضوعاً.

فمع القول بإمكان مجئ الخوف مكان الخشية في المفردات، فإنه في التراكيب ولغة القرآن يبقى الترادف متأخراً رتبة، وممتعاً لعدم إفادة الرديف للمعنى.

(١) سورة البقرة ١٨٢.

(٢) سورة النساء ١٢٨.

قوله تعالى ﴿وَلَا تَنْفَعِي عَنْكُمْ﴾

الأولى : الآية بشارة وعون وتحريض على المسارعة في الخيرات.

الثانية : بالإمثال في القبلة والتوجه إلى الباري عز وجل بحسن الطاعة واجتناب المعصية، وعدم الخوف من الظالمين المعتدين على شعائر الإسلام تتم النعم وتنزل البركات.

الثالثة : الآية وعد كريم بدوام الفضل الإلهي وتوالي الآيات، لذا جاءت الآية من سورة المائدة وهي آخر سور القرآن نزولاً ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١).

الرابعة : أصبح المسلمون مؤهلين لوراثة الأرض واستحقاق صفة الإسلام تلك التي كان الأنبياء يقولونها ابتداء وإقراراً وإعترافاً.

الخامسة : في الآية إخبار بأن الله عز وجل ارتضى لنا الإسلام وأكمّله لنا، وعن علي عليه السلام: "تمام النعمة الموت على الإسلام"^(٢).

تفسير قوله تعالى ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فيه أقوال:

الأول : إن (لعل) من الله واجب، قاله جماعة منهم الحسن البصري.

الثاني : لكي تهتدوا.

الثالث : لتهتدوا إلى ثواب القبلة.

(١) سورة المائدة ٣.

(٢) الكشف والبيان ١/٢٦٩.

الرابع : إلى التمسك بها.

ولا تعارض أو إختلاف بين هذه الأقوال، لكن الدلالة العقائدية في الآية متعددة وأعم منها:

الأولى : قد تكون خاتمة الآية قاعدة كلية، إذ ليس من إطلاق وحصر للملازمة بين ذيل الآية والموضوع الذي في صدرها أو في جملتها، نعم يكون موضوعها من أهم مصاديق خاتمة الآية.

الثانية : الآية الكريمة إخبار سماوي عن تعدد أفراد الإختبار والإبتلاء والإمتحان.

الثالثة : لكي لا يظن المسلمون بأن الإبتلاء انتهى بالتوجه إلى البيت الحرام قبله بل إنه مستمر ومتصل، ولكن الإستجابة فيه طريق للتوفيق في غيره سواء كان بعرض واحد معه في الإبتلاء أم أدنى أم أكبر.

الرابعة : الجهاد وخوض المعارك مع الأعداء منهج ثابت في الإسلام.

الخامسة : الدنيا كلها دار إبتلاء وإمتحان وهي مزرعة الآخرة ومناسبة لفعل الصالحات، والمسابقة في الخيرات وتثبيت دعائم الدين.

السادسة : الأوامر الإلهية وأحكام الحلال والحرام متصلة ومستمرة.

السابعة : الإمتثال في أحد أفراد ومصاديق أحكام الشريعة كاستقبال الكعبة وأداء بعض الفرائض فيه أجر وثواب، ولكن لا يصدق عليه بلوغ مرتبة الهداية والفوز بالنجاة يوم القيامة، نعم إنه طريق سالك إلى التغلب على الصعاب وإجتياز الصراط.

الثامنة : النصر على الأعداء والمنافقين يبدأ بحسن الإمثال للأوامر الإلهية.

التاسعة : في إستقبال البيت الحرام الأجر والثواب ونيل المراتب العالية، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(١)،

ومن الآيات إجماع طاعة الله ورسوله والخشية من الله في الآية أعلاه، وإجماع الخشية من الله مع إستقبال البيت الحرام إمثالاً لأمر الله عز وجل.

العاشرة : الواف في ﴿وَلَا تُنْفِكُوا عَنْكُمْ﴾ وكذا الواف في ﴿وَعَلَّكُمُ تَهْدُونَ﴾ تنفي تعليل إتمام النعمة والهداية بموضوع الخشية القلبية المجردة وحدها، فلم يقل الله سبحانه واخشوني لأتم نعمتي عليكم مما يعني أن الهداية في الآية موضوع مستقل وإن إتصل وإرتبط في بعض وجوهه بتحويل القبلة ومضمونها.

الحادية عشرة : يلاحظ في الآية أن إتمام النعمة جاء على نحو الموجبة الكلية والإطلاق أما الهداية فجاءت بحرف الترجي والتمني وما يعنيه من التعليق وظهور المبرز الخارجي بالعمل والصلاح، وفيه حث على المواظبة على الفرائض وإتيان المستحبات.

قوله تعالى ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ الآية ١٥١.

الإعراب واللغة

كما: الكاف حرف جر، ما مصدرية، أرسلنا: فعل وفاعل، والكاف ومجرورها المصدر المؤول في موضع نصب على المفعول المطلق، وقال سيبويه إنه حال.

فيكم: الجار والمجرور متعلقان بأرسلنا، رسولا: مفعول به، منكم: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة.

يتلو: فعل مضارع، والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو) يعود إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والجملة الفعلية صفة ثانية للرسول، عليكم: جار ومجرور متعلقان بيتلو، آياتنا: مفعول به، والضمير (نا) مضاف إليه، ويزكيكم: الواو: حرف عطف، والجملة فعل وفاعل ومفعول به.

ويعلمكم: عطف على يتلو أيضاً، الكتاب: مفعول به منصوب بالفتحة، الحكمة عطف على الكتاب، ويعلمكم: الواو حرف عطف، يعلمكم: معطوف على ما تقدم، الكاف: مفعول به أول، الرجوع إلى الكتاب

(ما لم تكونوا) : ما : اسم موصول مبني في محل نصب مفعول به ثان .
لم : حرف نفي و قلب و جزم أي يجزم الفعل المضارع ويقلب زمنه إلى الماضي .. تكونوا: فعل مضارع ناقص مجزوم بلم، وعلامة جزمه حذف النون ، الواو: إسمها، والجملة الفعلية صلة ما .

تعلمون : فعل مضارع، مرفوع بثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو: فاعل، والجملة الفعلية خبر تكونوا.

في سياق الآيات

بعد الآيات التي تناولت موضوع القبلة تشريعاً وعملاً وحكماً مع صيغ الحصانة والتحذير والتنبيه والإرشاد جاءت هذه الآية لتؤكد نبوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه يقوم بالإضافة إلى التبليغ بوظائف سماوية متعددة يدخل تحويل القبلة فيها إنطباقاً وبلحاظ سياق الآيات ونظمها.

وتدل الكاف في ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾ على الترابط في موضوع الآيات.

صلة هذه الآية بالآيات المجاورة على شعبتين:

الأولى: صلة هذه الآية بالآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: صلة هذه الآية بالآية السابقة، وفيها مسائل:

المسألة الأولى: تتعلق كل من الآيتين في موضوع وما هية نبوة محمد صلى

الله عليه وآله وسلم وتتضمن كل واحدة منهما الشهادة برسالته وشطر من أحكامها.

المسألة الثانية: مما جاء به رسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم

للمسلمين إتخاذ البيت الحرام قبلة، وهو بلحاظ آية البحث على وجوه:

الأول: إستقبال البيت الحرام من الآيات التي يتلوها النبي محمد صلى

الله عليه وآله وسلم .

الثاني: في إستقبال البيت الحرام تطهير للمسلمين لما فيه من أدب

العبودية، ومعاني الخضوع لله عز وجل، وإستحضار ذكره في جهة مخصوصة

وموضع ممدد هو الذي إختاره للأنبياء والمسلمين كورثة لهم، مع الإقرار بأنه

عز وجل في كل الجهات، قال تعالى ﴿فَإِنَّمَا تُولَوْنَ وَجْهَ﴾^(١).

الثالث: وفي استقبال المسلم للبيت الحرام تطهير للروح من دنس هموم

الدنيا، ودعوة للإتابة ولإستغفار .

الرابع : كل آية من آيات القبلة هي من الكتاب ومن مصاديق قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ .

لتكون آية البحث شاهداً سماوياً على مسائل:

الأولى : لم يكتف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتلاوة آيات القرآن على المسلمين بل يقوم بتعليمهم مضامين ومعاني الآيات.

الثانية : من تعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للآيات بيانها وتفسيرها وتأويلها بما يمنع من الجهالة والترديد فيها.

الثالثة : بيان الأحكام التي تتضمنها آيات الكتاب، وما فيها من الأوامر والنواهي، والفورية والتراخي والمرة والتكرار، وعن ابن عباس قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج . فقام الأقرع بن حابس فقال : أ في كل عام يا رسول الله؟ قال : لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ولم تستطيعوا أن تعملوا بها . الحج مرة فمن زاد فتطوع^(١).

الرابعة : من تعليم الكتاب قصص الأنبياء والوقائع ومناسبة الحكم ومنطوق الآية لسبب النزول بما يخفف عن المسلمين في أجيالهم في تعلم الصلة بين الحكم وموضوعه .

الخامسة : السنة النبوية مصداق لتعليم الكتاب.

السادسة : تدعو آية البحث المسلمين إلى الإصغاء إلى تعليم النبي لهم الأحكام والسنن، وتجعلهم يتطلعون بعد نزول الآية إلى بيانها وتأويلها على لسان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومنها آيات القبلة ، فحالما نزل قوله تعالى ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٢) غير النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

(١) الدر المنثور ٢/٣٩٠.

(٢) الآية ١٤٤.

وآله وسلم إتجاه القبلة وتوجه في صلاته للبيت الحرام إستدار معه المسلمون ليكون هذا الفعل من التعليم العملي.

الخامس : إستقبال المسلمين البيت الحرام من الحكمة التي علمها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين من وجوه:

الأول : باستقبال البيت الحرام طاعة لله عز وجل ، وهي من أبهى معاني الحكمة.

الثاني : تنزه المسلمين عن الشرك ومفاهيم الضلالة.

الثالث : الإعتاظ من قصة آدم وإبليس والإحتراز من إتباع الهوى.

الرابع : تفقه المسلمين في علة وماهية الخلق، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

الخامس : تنمية ملكة الأخلاق الحميدة، وتهذيب اللسان، وصيرورته رطباً بذكر الله، ونبذ ذمائم الأفعال، وفي حديث جبرئيل لما سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الإحسان قال: "أخبرني عن الإحسان"، قال: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"^(٢).

السادس : بيان التعدد والتباين في قبلة الملمين بتعيين قبلة خاصة لكل أهل ملة، وتشريف المسلمين باستقبال البيت الحرام .

المسألة الثالثة : كان بعضهم يقول أن الشرائع لا تنسخ فجاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالنسخ في القبلة واتبعه المسلمون ليكون من تعليمهم ما لم يكونوا يعلمونه من قبل من وجوه:

الأول : تعلم مدرسة النسخ في الأحكام القرآنية، قال تعالى ﴿مَا نَسَخْ

(١) سورة الذاريات ٥٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٢٩٦/٦.

مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسِيَهَا نَاتٍ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴿١﴾.

الثاني : لزوم إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيما يأتيه من الأحكام بالوحي.

الثالث : موضوعية القبلة وتعيينها في العبادات.

الرابع : إستقبال البيت الحرام وصيرورته قبلة دائمة للمسلمين لا يقبل النسخ ولا التغيير.

المسألة الرابعة : دلالة كل من آية البحث والسياق والعمل بمضامينها على سلامة آيات القرآن من التحريف، وأحكام الشريعة الإسلامية من التغيير والتبديل.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى : إتحاد الخطاب في الآيتين، وتوجهه إلى المسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة.

الثانية : النسبة بين موضوع الآيتين هي العموم والخصوص المطلق، فأية السياق أعم إذ أنها تذكر المسلمين جميعاً بأن لكل أهل ملة من الموحدين قبلة، ويدل هذا التعدد على الملكية المطلقة لله عز وجل، قال سبحانه ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾^(٣).

الثالثة : تضمنت آية السياق الأمر الإلهي للمسلمين بالتسابق والمصارعة في الخيرات، وجاءت آية البحث بمصاديق من هذه الخيرات من وجوه:

الأول : تلقي ما يأتي به الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقبول

(١) سورة البقرة ١٠٦.

(٢) الآية ١٤٨.

(٣) سورة البقرة ١١٥.

والرضا.

الثاني : الشكر والثناء على الله عز وجل لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن بين ظهرائي العرب والمسلمين.

الثالث : آيات القرآن وتلاوتها من الخيرات، ليكون في الجمع بين الآيتين دعوة المسلمين لتلاوة القرآن والتدبر في معانيه وعن انس عن النبي قال: من قرأ حرفاً من القرآن كتب الله له عشر حسنات: بالباء، والتاء، والشاء^(١).

الرابع : تسليم المسلمين بأن القرآن وحي من عند الله لقوله تعالى ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾^(٢).

وفي هذا التسليم مسائل:

الأولى : إنه خير محض، لذا يتسالم الناس على إنتفاء الشك عند المسلمين بخصوص نزول القرآن من عند الله.

الثانية : مبادرة المسلمين للعمل بمضامين آيات القرآن للإقرار بأنها من رب العالمين.

الثالثة : بلوغ المسلمين مراتب في العز لخصوص تلاوتهم آيات الله، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)، ففي كل إمتثال لأوامر الله مرتبة إرتقاء ومناسبة للفخر ومنها تلاوة آيات القرآن.

الرابعة : بعث السكينة في نفوس المسلمين لإدراك معاني الصلة بينهم وبين الله عز وجل بتلاوة القرآن.

الخامسة : خلق الله عز وجل آدم ولم يجعله خليفة في الأرض إلا بعد أن نفخ فيه من روحه، قال تعالى ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعْوَاهُ

(١) الدر المنثور ١/١٥٠.

(٢) الآية ١٥١.

(٣) سورة المنافقون ٨.

ساجدين ﴿١﴾.

لتكون تلاوة المسلمين لآيات القرآن من مصاديق ورشحات وعلل سجود الملائكة لآدم عليه السلام لأنهم يتلونها بقصد القربة إلى الله، والتسليم بأنها نازلة منه تعالى.

السادسة : جاء قوله تعالى في آية البحث ﴿وَيُزَكِّكُمْ﴾ من غير تعيين لأوان وكيفية التزكية، ويحمل على الإطلاق والفورية خصوصاً وأن قوله تعالى ﴿وَيُزَكِّكُمْ﴾ جاء بين تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للآيات وتعليمه المسلمين الكتاب، فحينما أمر الله عز وجل المسلمين بالمسارعة في الخيرات فانه تعالى عجل لهم التزكية وتطهير النفوس لتكون مقدمة لمسارعتهم في الخيرات، وتسابقهم في الصالحات.

السادسة : لقد أمر الله عز وجل المسلمين في آية السياق بقوله ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ ﴿٢﴾.

وجاءت آية البحث رحمة بالمسلمين، ومدداً وعوناً لهم في معرفة مصاديق الخير وكيفية التسابق، وإنعدام التزاحم فيها بقوله تعالى ﴿وَيُزَكِّهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ ﴿٣﴾.

يتكون من رشحات الكتاب سيرة المسلمين بالحكمة والتدبر والتبصر في موضوعية فعل الخير في إصلاح التراث والغير ومحاربة مفاهيم الكفر والضلالة .

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

(١) سورة الحجر ٢٩.

(٢) الآية ١٤٨.

(٣) سورة البقرة ١٢٩.

الْمُتَرِينَ ﴿١﴾، وفيها مسائل:

الأولى: جاءت آية السياق بقانون كلي وهو أن آيات القرآن حق من عند الله عز وجل، ومن الحق بلحاظ آية البحث أمور:

الأول: إن الله عز وجل يبعث الأنبياء والمرسلين قال تعالى ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (٢).

الثاني: الشهادة من الله عز وجل ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث: بيان فضل الله عز وجل بأن النبي محمدا صلى الله عليه وآله وسلم من العرب والمسلمين.

الرابع: آيات القرآن حق من عند الله.

الخامس: تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لآيات القرآن حق وصدق، قال تعالى ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ (٣).

السادس: تزكية وتطهير النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين بامامته لهم في سبل فلاح.

السابع: من الحق والبراهين الدالة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم تعليم المسلمين الكتاب والحكمة لبيان حقيقة أن رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا تنحصر بالتبليغ والجهاد في سبيل الله بل تشمل تعليم المسلمين والأخذ بأيديهم في سلم المعارف الإلهية، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٤).

(١) الآية ١٤٧.

(٢) سورة الكهف ٥٦.

(٣) سورة العنكبوت ٤٥.

(٤) سورة آل عمران ١١٠.

الثانية : آية البحث خطاب للمسلمين والمسلمات وآية السياق خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وليس من تباين بينهما، فأية السياق أيضاً خطاب للمسلمين وتقديرها: الحق من ربكم فلا تكونوا من الممتريين) وآية البحث خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتقديرها: كما أرسلناك فيهم رسولاً منهم تتلو عليهم آياتنا وتزكيهم وتعلمهم الكتاب والحكمة وتعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

الثالثة : بيان عظيم الفضل الإلهي على المسلمين في بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابعة : لقد أنزل الله عز وجل القرآن وهو الذي يشهد له بصدق نزوله من عنده وأنه الحق.

الرابعة : يفيد الجمع بين الآيتين نفي الشك والريب عن نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمنافع العظيمة منها على المسلمين.

الشعبة الثانية : صلة هذه الآية بالآيات المجاورة التالية، ومنها وجوه:

الأول : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا

تَكْفُرُون﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول : كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم فاذكروني.

الثاني : يتلو عليكم آياتنا فاذكروني.

الثالث : ويزكيكم فاذكروني .

الرابع : ويعلمكم الكتاب والحكمة فاذكروني.

الخامس : ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني.

السادس : كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم واشكروا لي.

السابع : يتلوا عليكم آياتنا فاشكروا لي.

الثامن : ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون واشكروا لي.
التاسع : كما أرسلنا فيكم رسولاً يتلو عليكم آياتنا ولا تكفرون.
العاشر : ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ولا تكفرون.
الثانية : الجمع بين الآيتين من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

لقد بعث الله عز وجل النبي صلى الله عليه وسلم ليذكره المسلمون باقامة الصلاة وأداء الفرائض وعند الإحرام للحج تلهج السنة وفد الحاج بالتلبية وعلى نحو الوجوب العيني (لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك).
الثالثة : بيان قانون ثابت في فلسفة بعث الأنبياء وهو ذكر اتباعه وانصاره وأتمته لله عز وجل فان قلت إنما وردت الآيات بالإخبار عن قيام الأنبياء بالبشارة والإنذار كما في قوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٢).
 والجواب من وجوه:

الأول : إثبات شيء لشيء لا يدل على نفيه عن غيره، وأن وظائف النبوة متعددة.

الثاني : جاءت آيات قرآنية بالتوسعة والتعدد في مسؤوليات ووظائف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٣).
 فاخبرت الآية أعلاه بأنه شاهد وظاهر الآية تعلق الشهادة في الدنيا والخرة قال تعالى ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٤).

الثالث : قوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ من البشارة والإنذار للذين

(١) سورة الذاريات ٥٦.

(٢) سورة الأحزاب ٤٥.

(٣) سورة الأحزاب ٤٥.

(٤) الآية ١٤٣.

جاء بهما النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين و الناس جميعاً البشارة بلحاظ أن خير الدنيا والآخرة بذكر الله وأنه تعالى يذكر المؤمنين بتوالي النعم في الدنيا ورفيع الدرجات في الآخرة وهو من مصاديق (اذكركم).

الرابعة : أخبرت آية البحث عن النعم التي جعلها الله تنزل على المسلمين بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وجاءت آية السياق بشطر آخر منها وهو على أقسام:
الأول : جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأمر من الله عز وجل للمسلمين بأن يذكره سراً وجهراً بقوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي﴾.

الثاني : ذكر الله طريق وسبب لتوالي النعم من عند الله ليكون من خصائص نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتوالي النعم على المسلمين والناس، قال تعالى ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

الثالث : جاءت آية البحث بصيغة الجمع بلغة الخطاب في أولها وأوسطها وخاتمتها وكذا آية السياق وفيه دعوة للمسلمين لذكر الله مجتمعين ومتفرقين ويتجلى المصداق الجامع للوجهين بالصلاة فرادى وجماعة، وإذا قرأ إمام الجماعة الفاتحة وسورة فهل يصدق عليه أنه ذكر من المأمومين لله عز وجل أم أنه ذكر خاص من الإمام، الجواب هو الأول، لذا أمر الله عز وجل بالإنصاف له، قال تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾^(٢).

الرابع : من النعم التي تضمنتها آية البحث الأمر الإلهي بشكر المسلمين له سبحانه ووجوب تنزههم من الجحود والكفر بالنعم، ومنها نعمة الذكر والشكر.

(١) سورة الجمعة ١٠.

(٢) سورة الأعراف ٢٠٤.

الخامسة : جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم برسالة من عند الله بأن يبادر المسلمون إلى الشكر لله عز وجل ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١) أن المسلمين هم الأمة الشاكرة لله عز وجل.

السادسة : من مصاديق الإمتثال لأمر الله تعالى بذكره أن يذكره المسلمون بصفاته ونعمه والثناء عليه.

السابعة : من رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حث المسلمين على الدعاء وهو من أبهى مصاديق ذكر الله ، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: أتحبون أيها الناس أن تجتهدوا في الدعاء؟ قالوا : نعم . قال: قولوا: اللهم اعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك^(٢).

الثامنة : من مصاديق قوله تعالى ﴿يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ تعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين صيغ الذكر وما يمكن أن نسميه في الإصلاح (الذكر المتوارث) وهو في موضوعه غير الذكر المتواتر ، وإن إتحد معه في المصاديق ، وفيه ترغيب للمسلمين بالإقبال على الدعاء بشوق.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(٣) ، وفيها مسائل:

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول : يا أيها الذين آمنوا أرسلنا فيكم رسولا منكم.

الثاني : يا أيها الذين آمنوا أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا.

الثالث : يتلو عليكم آياتنا إن الله مع الصابرين.

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) الدر المنثور ١/٣٠٣.

(٣) الآية ١٥٣.

الرابع : ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون إن الله مع الصابرين.

الخامس : ويعلمكم استعينوا بالصبر والصلاة.

الثانية : كل من الآيتين خطاب للمسلمين والمسلمات وأجيالهم المتعاقبة، وجاءت آية البحث بصيغة الجملة الخبرية، وآية السياق بصيغة الجملة الإنشائية.

الثالثة : الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم إمام المؤمنين الذين آمنوا بالله عز وجل، ومن رشحات ومصاديق إيمانهم الإستعانة بالصبر والصلاة لحاجات وأمور الدين والدنيا.

الرابعة : لما أخبرت آية البحث بأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يتلو آيات الله عز وجل، جاءت آية السياق بمضامين من هذه الآيات وإن اجتمعت في آية واحدة وهي:

الأول : إكرام المسلمين بالنعى التشريفي يا أيها الذين آمنوا.

الثاني : هداية المسلمين وبصيغة الأمر للجوء إلى الصبر على الطاعات واجتناب الشهوات.

الثالث : بيان موضوعية الصلاة في النجاة من صنوف البلاء، وإتخاذها حرزاً في الآخرة.

الرابع : البشارة بالمدد والعون من عند الله للذين يتحلون بالصبر ويواظبون على الطاعات.

الخامسة : تضمن كل كلمة من آية البحث معاني التشريف والعز والفخر للمسلمين، وتقدير الآية ووظائف النبوة الخاتمة فيها على وجوه:

الأول : كما أرسلنا فيكم يا أيها الذين آمنوا.

الثاني : رسولاً منكم يا أيها الذين آمنوا.

الثالث : يتلو على الذين آمنوا آياتنا.

الرابع : يزكي الذين آمنوا.

الخامس : يعلم الذين آمنوا والكتاب والحكمة.

السادس : يعلمكم يا أيها الذين آمنوا ما لم تكونوا تعلمون.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ

اللَّهِ﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول : كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات.

الثاني : يتلوا عليكم آياتنا ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات.

الثالث : يعلمكم الكتاب والحكمة ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء.

الثانية : أخبرت آية البحث عن رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنه من بين ظهرائي المؤمنين، وتضمنت آية السياق الإخبار عن حصول القتل في صفوف المسلمين، مما يدل على حصول المعارك والقتال بينهم وبين الكفار.

الثالثة : من آيات الله في بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم نيل الذي يقتل من المسلمين مرتبة الحياة الأبدية عند الله، وليس بينه وبينها إلا أن تفارق روحه الجسد.

الرابعة : مما يعلمه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين من مضامين الكتاب إطلاق صبغة الحياة على الذين يقتلون من أصحابهم،

الخامسة : أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا

تَعْلَمُونَ﴾، ومن العلم بلحاظ آية السياق وجوه:

الأول : تهذيب اللسان بما يجعل كلام المسلمين مستقراً من الكتاب والسنة.

الثاني : معرفة عظيم منزلة الشهداء.

الثالث : الثواب العاجل الذي ينتظر الذين قتلوا في سبيل الله.

الرابعة : حياة الذين قتلوا في سبيل الله.

الخامسة : إرتقاء المسلمين في المعارف الإلهية، والتدبر في الدلالات والأمور الحسية، والسياسة في المدركات العقلية بما يأتي به القرآن والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من العلوم الدنيوية والأخروية.

وتعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين خبر محض عام وخاص لهم، ولا يختص هذا النفع بهم بل يتغش الناس جميعاً بالإقتباس من المسلمين، فمن رحمة الله عز وجل بالناس أن تعليم الأمور الحسنة لا ينحصر بالمتعلم ومن وجوه تسمية الإنسان أنه يأنس بغيره من جنسه، وهذا التعليم من مصاديق قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(١).

ليكون تعليم الفرائض وأحكام الحلال والحرام والأخلاق الحميدة والسنن، الرشيدة مناسبة لإقتباس الناس منهم، وإدراك وجوب التوحيد، وعبادة الله على نحو يومي متكرر.

إعجاز الآية

البيان التفصيلي لشطر من الوظائف الرسالية التي قام بأعبائها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبيان عظيم منزلته وخلق الإستعداد للقبول المطلق لما يأتي به من عند الله خصوصاً وأن سنته الشريفة المصدر الثاني للتشريع. وفي الآية تحد وإعجاز بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يأتي بما هو جديد من أبواب العلم.

وجاءت الآية بالتعدد في حرف الجر، مع إتحاد الاسم المجرور، وفيه شاهد على الفضل الإلهي العظيم على المسلمين، والآية من عمومات قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١)، كما تعددت صفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من وجوه:

الأول: هو الرسول من عند الله عز وجل.

الثاني: يتلو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الآيات.

الثالث: الآيات التي يتلوها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هي آيات الله، وفيه شاهد بأن الملك جبرئيل والنبي ليس لهما الإضافة أو التغيير أو التبديل أو الإنتقاص أو التقديم أو التأخير في الآيات ألفاظاً وكلمات وحروفاً.

الرابع: الذين يتلو عليهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هم المسلمون والمسلمات، وتحتل لغة الخطاب في الآية جهات:

الأولى: إرادة الصحابة وأهل البيت.

الثانية: خصوص الذين يسمعون تلاوة النبي ساعة نزول الوحي.

الثالثة: تلاوة النبي مطلقاً سواء عند نزول الوحي أو فيما بعد.

الرابعة: المسلمون والمسلمات إلى يوم القيامة.

الخامسة: عموم الناس أيام التنزيل.

السادسة: الناس جميعاً إلى يوم القيامة.

ولا تعارض بين هذه الجهات، وكلها من مصاديق الآية الكريمة، ومنها ما يكون مباشرة، ومنها ما يكون بالواسطة، وتلك آية إعجازية في مقاصد الآية القرآنية، وصيغ الخطاب فيها، وما يتجلى من لغة العموم فيها من المضامين القدسية.

الخامس: تعدد وظائف النبوة التي يقوم بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

السادس: ذكر أفراد هذه الوظائف.

السابع: تعدد وظائف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم شاهد على تفضيله على الأنبياء السابقين.

الثامن: تدل الآية على أن المسلمين أفضل الأمم، وهو مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

التاسع: بيان تشريف المسلمين بنيل مرتبة التزكية المطلقة بواسطة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

العاشر: نيل المسلمين مرتبة التزكية بواسطة سيد الأنبياء والمرسلين، فمن وظائف النبوة المباركة تولي تطهير المسلمين، والشهادة عليهم بالإيمان، قال تعالى ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٢)، كما أن إمامة وشهادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين تؤهلهم للشهادة على الناس.

الحادي عشر: تعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين الكتاب، وإعانتهم للإرتقاء في مراتب المعرفة، والتفقه في الدين.

الثاني عشر: التعدد في مضامين ومواضيع التعلم التي يقوم بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة البقرة ١٤٣.

الثالث عشر: يعلم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين مفاهيم الحكمة والأحكام والسنن.

الرابع عشر: تؤكد الإعجاز وصدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالكثرة والتعدد فيما يعلمه المسلمون، ومنه أحكام وسنن لم يعلم بها المسلمون من قبل،

ومن إعجاز الآية أنها لم تقل (كما أرسلنا لكم) بل قالت (أرسلنا فيكم) لبيان عموم رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنه لم يبعث لأمة دون أخرى بل أرسله الله عز وجل للناس جميعاً، وإخبار الآية عن تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لآيات الله تحد لأساطين البلاغة، ودعوة للناس جميعاً للتدبر في آيات القرآن وما فيها من معاني الحكمة.

ولم يرد لفظ (أرسلنا فيكم) إلا في هذه الآية، وكذا لفظ (رسولاً منكم)، وفيه شاهد على عظيم منزلة النبي ورسالته، وإكرام للمسلمين، وحث لهم على تلقي ما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقبول والإمثال، وجاء تعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لتلك الأسماء والكتاب والحكمة وأسرار الغيب.

والخطاب في الآية عام شامل لأجيال المسلمين والمسلمات وفيه دلالة على تلاوة آيات القرآن على المسلمين وأنهم يسمعونها في كل زمان ومكان، وهو شاهد على بقاء الإسلام قوياً تتجدد إقامة شعائره، ومنها الصلاة وتلاوة آيات القرآن على نحو الوجوب العيني سواء في صلاة الجماعة أو المفرد أو الجمعة .

ويمكن أن نسمي هذه الآية (كما أرسلنا) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا

مرتين^(١).

الآية سلاح

إضافة ونسبة الرسول الى العرب والمسلمين نوع إكرام لهم، وتلاوة الآيات تشريف لهم وتنبية الى عظيم المسؤولية ومنازل الريادة في الدعوة الى الله عز وجل، وفيها بشارة التطهير وقبول الأعمال واكتساب العلوم والتهيء والإستعداد للإنتفاع منها.

ومن فضل الله عز وجل على المسلمين أن أنعم عليهم بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وليس من حصر وحد للعلوم التي جاء بها من عند الله عز وجل، وكل آية من الآيات التي يتلوها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على المسلمين، وكل علم يقوم يتعلمه المسلمون سلاح ومدد سماوي، وعون للمسلمين في أمور الدين والدنيا،

وقد تفضل الله عز وجل وعلم آدم عليه السلام ليرتقي رتبة تليق بمقام الخلافة والنفخ من روح الله فيه ، قال تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(١)، ثم بعث الله النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ليعلم المسلمين الكتاب والحكمة والسنن والآيات لتكون هذه العلوم على وجوه:

الأول : إنها سلاح للمسلمين.

الثاني : فيها مدد للمسلمين في أمور الدين والدنيا.

الثالث : هذا التعليم موضوع ومصادق للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودعوة للناس لدخول الإسلام.

الرابع : ترغيب المسلمين بالتكاليف وتحلية للمبادرة لإتيانها.

الخامس : إرتقاء المسلمين في المعارف الإلهية.

السادس : إعانة المسلمين في ميادين الجدال والاحتجاج، فالنبي محمد

صلى الله عليه وآله وسلم يعلم المسلمين الحكمة، قال تعالى ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ

مَنْ يُشَاءُ^(١).

السابع : قال تعالى في خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾^(٢).

ومن الإعجاز أن الآية أعلاه جاءت بصيغة الماضي بين آية البحث بصيغة المضارع لبيان أن تعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين ومتصل بلحاظ إقتباس أجيال المسلمين من سنته الشريفة

ولم تذكر الآية اسم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بل ذكرته بالصفة وبصيغة الماضي (أرسلنا فيكم رسولاً) ومع هذا يتلقى المسلمون الآية بالتسليم على أن المراد هو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ثم إنتقلت الآية إلى فعل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبصيغة المضارع (يتلو عليكم آياتنا) وفيه تأكيد بارادته في الآية دون غيره من الأنبياء والرسل مما يبعث العز والفخر في نفوس المسلمين، قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(٣).

ويفيد الجمع بين الآيتين عظيم قدرة الله بأن نقل الله عز وجل المسلمين من حال الأمية إلى مراتب العلم السامية، ومن الإعجاز في الآية الكريمة أن وظائف الرسالة ابتدأت بتلاوة الآيات بلحاظ أنها على وجوه:

الأول : تلاوة الآيات أم العلوم، وطريق مبارك لإكتسابها.

الثاني : تلاوة التنزيل مقدمة للعلوم.

الثالث : ترشح العلوم من التلاوة.

الرابع : لزوم التدبر في معاني كلمات القرآن عند التلاوة.

(١) سورة البقرة ٢٦٩.

(٢) سورة النساء ١١٣.

(٣) سورة الجمعة ٢.

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ، لَمْ يَفْقَهُهُ^(١).

مفهوم الآية

الآية بيان لإتصال النعم وتواليها وان بعثة الرسول الأكرم نعمة دائمة ففيها نعم متعددة وكل نعمة منها متجددة سواء تلاوة الآيات أو تطهير النفوس والأخلاق والسجايا أو تحقيق الإرتقاء العلمي للمسلمين والتزود المستمر من المعارف الإلهية، وتدخل القبلة والإمثال لحكم النسخ فيها ضمن وجوه العلم المستحدثة عند المسلمين، اذ ان قبول التغيير والنسخ امر إنفرد به المسلمون وهو دليل على اهليتهم التاريخية للخلافة في الأرض.

ومن مفاهيم الآية ان القرآن مدرسة ينهل المسلمون من خزائنها المعارف الإلهية ويجعل عندهم الحصانة الفكرية من الظالمين، وتؤكد الآية ان القرآن والسنة يتضمنان علوماً توليدية وتدعو الى استقراءها واستنباطها والغوص في خزائنها.

في الآية مسائل:

الأولى: بيان فضل الله عز وجل على المسلمين والناس في بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية: دعوة المسلمين للشكر لله عز وجل على نعمة بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة: الشهادة من الله عز وجل لنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى ﴿وَكُنِّي بِاللَّهِ شَهِيداً﴾^(٢).

(١) تفسير الثعالبي ١٦١/٤.

(٢) سورة النساء ٧٩.

الرابعة: تأكيد نسب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنه من أوسط العرب وخيرة قريش.

الخامسة: نسب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين دليل على أنهم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، ولا يتعارض هذه المعنى مع إلتسابهم للعرب وإرادتهم في صيغة الخطاب، لأصالة العموم وعدم وجود تقييد ولأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يتلو الآيات على المسلمين ويعلمهم الكتاب والحكمة.

السادسة: موضوعية تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للآيات وأنها فضل من عند الله، إذ أن ذكر التلاوة على نحو التعيين دلالة على أهميتها.

السابعة: حث المسلمين على تلقي الآيات بالحفظ والتدوين والتلاوة، ومن الآيات وجوب تلاوة الآيات في الصلاة اليومية ليكون فيه تعاهد لوظائف النبوة، وهو من مصاديق وراثته المسلمين للأنبياء.

الثامنة: تدل الآية على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنه يتلو آيات الله عز وجل من غير زيادة أو نقصان، وتقدير الآية : أن كل ما يتلوه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من التنزيل كلام الله عز وجل.

التاسعة: الآية أمارة على تعاهد المسلمين لآيات القرآن.

العاشرة: لا يستطيع تلاوة الآيات عن الله عز وجل إلا الرسول، وقد فاز النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بهذه المرتبة الرفيعة وفي دعاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (وإبعثني المقام المحمود الذي وعدتني).

الحادية عشرة: تنزيه المسلمين من الكدورات الظلمانية، وأسباب الشك والجدال.

الثانية عشرة: ترغيب الناس بالإسلام وأحكامه لما فيه من تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة.

الثالثة عشر: المسلمون هم الأمة المتعلمة، وهذا التعليم سماوي، مما يدل على سلامة المسلمين من أسباب التحريف والتبديل في التنزيل والأحكام، لذا تراهم يؤدون العبادات بذات الكيف والكم الذي أداها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع بقاء ذات السنخية في الحكم بخصوص الأحكام التكليفية الخمسة، فما هو واجب في التنزيل والسنة بقی ويبقى بذاته إلى يوم القيامة، وما كان مستحباً بقی على ذات الإستحباب، وهو أمر تنفرد به الشريعة الإسلامية، وهو من أسرار إستدامتها وبقائها غضة طرية إلى يوم القيامة، وهو من مصاديق قوله تعالى في الآية السابقة ﴿لَنَلَايَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

ويحتمل غلق باب الحجة والإحتجاج على الكفار بلحاظ زمانه وجوهاً:
الأول: أيام التنزيل والنبوة.

الثاني: تحويل القبلة إلى البيت الحرام.

الثالث: عموم الأحكام التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله عز وجل.

الرابع: إتصال وإستمرار أحكام الآية وغلقها الذرائع من الناس عامة والذين ظلموا منهم خاصة في أفراد الزمان الطولية وإلى يوم القيامة.
ولا تعارض بين هذه الوجوه، وكلها من مصاديق الآية الكريمة لأصالة الإطلاق، وعموم الحكم.

الرابعة عشرة: دعوة المسلمين للإصغاء لآيات القرآن، وتلقيها بالقبول.
الخامسة عشر: بعث المسلمين لتلاوة الآيات وإستحضار تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

السادسة عشرة: بيان جهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في سبيل الله عز وجل، وبذل الوسع في الدعوة إلى الله وجذب الناس للإسلام.

السابعة عشرة: دعوة المسلمين للتقيد بالأحكام والأوامر والنواهي التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله عز وجل.
الثامنة عشر: بيان المائز بين المسلمين وغيرهم، إذ يفوز المسلمون بالتزكية والتطهير وبواسطة الرسول والرسالة، وهل جاء الأنبياء السابقون بتزكية أصحابهم وأهل ملتهم، والجواب إن دعوتهم لطاعة الله تزكية، وجاءت شريعة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ناسخة، لتكون تركيته للنفوس والمجتمعات الإسلامية حاجة وآية من عند الله عز وجل.

التاسعة عشرة: دعوة المسلمين للكسب والتحصيل، والإرتقاء في المعارف الإلهية والتدبر في آيات القرآن.

العشرون: لقد أراد الله عز وجل للمسلمين أن يجعلوا العلم وسيلة مباركة لزيادة الإيمان، وتنمية ملكة التقوى والصلاح.

الحادية والعشرون: تدل الآية على تجدد العلوم التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنها علوم توليدية تتجلى منها في كل زمان ومكان وميدان في ميادين العلم أمور مستحدثة تدل على صدق نبوته، وتكون شاهداً على إرتقاء المسلمين في سلم العلوم والمعارف وهو بشارة

إمامتهم للناس في العبادات والصلاح وفي العلوم، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

الثانية والعشرون: بيان التباين بين حال الناس قبل الإسلام وحال المسلمين بعد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة والعشرون: مجيء الآية بصيغة الخطاب للمسلمين والمسلمات، وفيه تشريف لهم، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

الآية لطف

هذه الآية لطف من عند الله في كلماتها وألفاظها ودلالاتها، وهي على وجوه:

الأول: الآية لطف بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من جهات:
الأولى: تفضل الله ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً من عند الله إلى الناس.

الثانية: تأكيد حقيقة وهي أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم نبي ورسول.

الثالثة: صيغة الإطلاق في المرسل إليه، وأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عليه وآله وسلم رسول من عند الله عز وجل.

الرابعة: دعوة الناس جميعاً لإتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتلقي التلاوة والأحكام منه.

الخامسة: زجر الناس عامة والذين ظلموا خاصة عن إيذاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

السادسة: الإخبار السماوي عن صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: الآية لطف بالمسلمين بالبعثة النبوية من جهات:
الأولى: بيان فضل الله عز وجل على المسلمين بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية: توالي النعم الإلهية على المسلمين ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة: إتصاف النعم التي تأتي المسلمين بأنها سماوية ومن عند الله عز وجل وهو من مصاديق قوله تعالى في الآية السابقة ﴿وَلَأْتِمَّ نَعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾^(١).

الرابعة: تأكيد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بآيات القرآن ومضامين هذه الآية، وما فيها من النعم المتعددة على المسلمين.

الخامسة: الآية واقية للمسلمين من الكيد والجدال.

الثالث: الآية لطف بالناس جميعاً من جهات:

الأولى: تتصف بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأنها عامة للناس، فكل إنسان ذكراً أو أنثى مأمور بإتباعه ونصرته، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(٢).

الثانية: إستقراء الدروس والعبر من رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة: مصاحبة البركات الخيرات لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) الآية ١٥٠.

(٢) سورة سبأ ٢٨.

الرابعة: جريان المعجزات على يد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومل معجزة دعوة للناس جميعاً لدخول الإسلام.

الخامسة: بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم رحمة وخير محض.

إنفاضات الآية

لقد جعل الله عز وجل النبوة مصاحبة لهبوط الإنسان للأرض، إذ هبط آدم وحواء من الجنة بعد أن أغراهما إبليس بالأكل من الشجرة، قال تعالى ﴿فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾^(١)، وكان آدم نبياً رسولاً، ثم بعث الله الأنبياء مبشرين ومنذرين رحمة منه تعالى بالناس، وحجة عليهم، ولتبقى النبوة نهر جار يغترف منه الناس العلوم ومفاهيم الحكمة، ويتجلى هذا البقاء بأمور:

الأول: تعاقب الأنبياء.

الثاني: بعث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاتماً للأنبياء.

الثالث: حفظ القرآن من التحريف إلى يوم القيامة.

الرابع: حفظ موثيق وقصص الأنبياء بآيات القرآن لتكون موعظة وعبرة

للمسلمين قال تعالى ﴿وَكُلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾^(٢).

الخامس: بقاء أحكام الإسلام ثابتة في الأرض إلى يوم القيامة.

لقد جاءت نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لتخليص الناس من براثن الوثنية وقيود وسلاسل الضلالة بعد أن دخلت الأصنام البيت الحرام، وطغى الشرك في الأرض، لتصاحبه مائدة الحكمة السماوية يغترف منها المسلمون والمسلمات متحدنين ومتفرقين، وتتجلى في أفعالهم وعلى ألسنتهم،

(١) سورة البقرة ٣٦.

(٢) سورة هود ١٢٠.

وتكون ضياء عملياً ومن أنوار رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورشحات الحكمة والعلم التي تشع منها القلوب المنكسرة.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بحرف التشبيه (الكاف) مما يدل على إرتباط موضوعها بالآية السابقة، وقد ذكرت الآية السابقة فضل الله عز وجل على المسلمين بالأمر بتوجههم إلى البيت الحرام قبله وأنها من مصاديق تمام النعمة عليهم، لتكون هذه الآية وموضوعها مصداقاً للنعم الإلهية على المسلمين ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لتكون النعم في هذه الآية على وجوه:
الأول: بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبياً ورسولاً بالشرعية الخاتمة.

الثاني: بلوغ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مرتبة الرسالة والمجيء بالشرعية السمحاء.

الثالث: إتحاد لغة الخطاب في هذه الآية مع الآية السابقة وإرادة المسلمين وهو نوع إكرام لهم، ودعوة للناس لدخول الإسلام.

الرابع: ورود ذكر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الآية بصيغة الرسالة وفيه تشريف وإكرام له، وحث المسلمين على الإقتداء به، والتقييد بأحكام الحلال والحرام التي جاء بها.

الخامس: إلتواء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للعرب والمسلمين في النسب واللغة والسجاياء الحميدة.

السادس: نعمة تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم آيات الله على المسلمين، وفيه دعوة للمسلمين للإصغاء له والتدبر في الآيات ومعانيها القدسية.

السابع: إصلاح النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين في أقوالهم وأفعالهم، وتزكيتهم.

الثامن: الإسلام مدرسة الأجيال، فكل جيل منهم ينهل من العلوم التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتي تتجلى في القرآن والسنة النبوية الشريفة.

التاسع: فتح آفاق العلم للمسلمين، وعدم إنسداد أبوابه عليهم، وفيه بشارة إظهار درر ولآئى آيات القرآن، ومع قلة كلمات الآية فقد تكرر الضمير (الكاف) للمضمر المنصوب ست مرات، وواو الجماعة مرة واحدة، والمراد في كل فرد منها المسلمون.

وتتضمن الآية الثناء على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من جهات:

الأولى: تشريف وإكرام الله عز وجل له بإختياره للرسالة.

الثانية: النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من العرب، وبعث من بينهم، فلم يأتيهم رسول من غيرهم، وفيه دعوة لهم لإتباعه ونصرته.

الثالثة: رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خير محض، ورحمة متجددة قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

الرابعة: النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إمام في الصالحات، ويأخذ بأيدي المسلمين في سبيل الخير والصلاح.

الخامسة: بيان جهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لتنزيه المسلمين من الذنوب، وإجتنبهم السيئات.

السادسة: تلاوة آيات القرآن على المسلمين وفيه شاهد بأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يتلقى الوحي من عند الله عز وجل، وهذه التلاوة مطلوبة بذاتها، لزيادة إيمان المسلمين، وتفقههم في الدين وتلاوة الآيات

مقدمة ودليل على صدق الوحي وسلامة السنة النبوية، ولزوم عمل المسلمين بمضامينها القدسية.

السابعة: فوز المسلمين وإرتقاؤهم ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومجيئه بعلوم مستحدثة وأسرار خزائن الغيب، قال تعالى ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾^(١)،
والصلة بين كلمات ومضامين الآية على وجوه:

الأول: الصلة بين تلاوة الآيات وتزكية المسلمين بقوله تعالى ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾، إن تلاوة الآيات مقدمة وسبب لطاعة الله، وكل آية إمام في الصالحات، وسبيل للهداية والرشاد، فصحيح أن حرف العطف (الواو) جاء بين تلاوة النبي للآيات وبين تزكيتهم وهو يفيد العطف والتعدد والمغايرة إلا أنه لا ينفي الصلة بينهما، لأن كل فرد منهما رشحة من رشحات الرسالة، وتلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للآيات ذاتها تزكية وسبب للتزكية وتطهير النفوس من أدران الشك والريب، وفيه مسائل:

الأولى: بيان جهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في سبيل الله.
الثانية: التلاوة قول، والتزكية قول وفعل، وفيه بيان لتعدد وظائف الرسالة، وما يقوم به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من مسؤوليات وأعباء النبوة، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿سَتُلْقِيْ عَلَيْكَ قَوْلًا ثِقِيلًا﴾^(٢).

الثالثة: يدل تعقب التزكية للتلاوة على ظهور أثر التلاوة حالاً.

الرابعة: للتلاوة منافع ذاتية وعرضية متعددة.

(١) سورة هود ٤٩.

(٢) سورة الزمل ٥.

الثاني: الصلة بين التلاوة وتعليم الكتاب، وفيها مسائل:

الأولى: ذات التلاوة تعليم.

الثانية: تتضمن كل آية من القرآن تعليم وهداية المسلمين لسبل الصلاح

والفلاح.

الثالثة: تلاوة الآيات باعث للتدبر في معانيها، ومضامينها القدسية.

الرابعة: من وجوه تعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين

تفسير آيات القرآن، وبيان تأويلها ودلالاتها.

الثالث: الصلة بين تلاوة الآيات وبين تعليم الحكمة، وفيها مسائل:

الأولى: بيان حاجة الناس عامة والمسلمين خاصة لبعثة النبي محمد صلى

الله عليه وآله وسلم.

الثانية: دعوة الناس لتلقي ما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله

وسلم بالقبول والرضا، وإقتباس الدروس والعبر منه.

الثالثة: توكيد موضوعية السنة النبوية، ولزوم صدور المسلمين عنها، فهي

المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن.

الرابعة: بيان حقيقة وهي أن الوحي أعم من القرآن، وبينهما عموم

وخصوص مطلق فكل قرآن هو وحي، وليس العكس.

الخامسة: بيان الفضل الإلهي العظيم ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله

وسلم وأنها تتضمن تلاوة الكتاب، وتعليم المسلمين سنن الحكمة.

السادسة: إقامة الحجة على الناس بأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله

وسلم لا يعلم إلا الكتاب والحكمة وما فيه خير ونفع للناس في النشاطين.

السابعة: الآية من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

الرابع: الصلة بين تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للآيات وتعليمه المسلمين ما لم يكونوا يعلمون، وفيها مسائل:

الأولى: كل آية خزينة تتضمن العلوم والأحكام.

الثانية: في القرآن علوم من الغيب وقصص الأنبياء والأمم السالفة، وهي مدرسة في الموعظة، قال تعالى ﴿إِن فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١).

الثالثة: موضوعية آيات القرآن وتلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لها في تفقه المسلمين في الدين، وإرتقائهم في مراتب الكمال الإنساني.

الرابعة: كل آية من القرآن معجزة وهي أمر لم يكن يعلمه المسلمون، بأن تأتي معجزة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتنزيل خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة.

الخامسة: بيان إرتقاء المسلمين، وتفضيلهم على الأمم الأخرى بأن تكون تلاوة آيات القرآن باباً ومقدمة لتعليمهم ما لم يعلموه من قبل، أي أن آياته تتضمن علوماً وأسراراً لم تأت بها الكتب السماوية السابقة، وهي من الشواهد على حاجة الناس للقرآن، وأن المسلمين ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

الخامس: الصلة بين قوله تعالى (يزكيهم) و (يعلمكم الكتاب) وفيها مسائل:

الأولى: التزكية مقدمة لتعلم الكتاب، وتلقيه بالقبول والتدبر.

الثانية: تعلم القرآن بذاته تزكية وتطهير للنفوس وصلاح للمجتمعات.

الثالثة: بيان الملازمة بين تعلم القرآن والتزكية.

(١) سورة يوسف ١١١.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

الرابعة: بيان فضل الله عز وجل على المسلمين بنبوته محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ أنه جاء بأعظم وأفضل ما جاء به الأنبياء السابقين الذين جاءوا بالتركية وتعليم الكتاب أيضاً ويتجلى تفضيل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين في المقام، من وجوه:

الأول: جاءت بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إستجابة من الله عز وجل لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾^(١).

الثاني: ليس من تعارض أو تزاحم بين بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء السابقين، إذ جاءت بعثته متممة لها.

الثالث: جاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن كتاباً جامعاً للأحكام والسنن، قال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢).

الرابع: تلقى المسلمين أحكام الشريعة المتكاملة بالقبول والإمثال.

الخامس: إستدامة أحكام الإسلام إلى يوم القيامة، وحاجة الناس في كل زمان إلى آيات القرآن والمسلمين كمرآة للإيمان والتقوى والصلاح.

السادس: الصلة بين قوله تعالى ﴿وَيُزَكِّكُمُ﴾ و﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا

تَعْلَمُونَ﴾، وفيه مسائل:

الأولى: علوم الغيب التي تفضل الله عز وجل بها في القرآن وسيلة لإرتقاء المسلمين في مراتب الكمال.

(١) سورة البقرة ١٢٩.

(٢) سورة النحل ٨٩.

الثانية: التزكية وصلاح النفوس وعاء ومناسبة لتلقي العلوم وأسرار الغيب.

الثالثة: إفراد المسلمين بالتزكية والتطهير، وتعلم مفاتيح العلوم.
الرابعة: من مصاديق التزكية أداء العبادات، وتعاهد طاعة الله عز وجل، فتكون باباً لجلب نعمة العلم.

السابع: الصلة بين قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ و﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، وفيها مسائل:

الأولى: إتحاد موضوع العلم في المقام.
الثانية: وحدة طرفي التعليم والمعلم، والمتعلم مع التباين في الموضوع، فالمعلم في الحالتين هو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمتعلم هم المسلمون رجالاً ونساء، أما موضوع التعليم فهو الكتاب والحكمة مرة، وعلوم الغيب وأسرار الحكمة وتهذيب النفوس، وإصلاح الألسن مرة أخرى.

الثالثة: بيان نعمة الله عز وجل على المسلمين في تعدد وجوه التعليم التي يتلقونها من الله عز وجل ورسوله، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

الرابعة: دعوة المسلمين للتفقه في الدين، وإكتساب العلوم والمعارف، لقد تكررت مادة العلم ثلاث مرات في الآية الكريمة، وفيه تشريف وإكرام للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين إذ تدل على تلقي المسلمين العلم من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وتحتمل جهة التلقي وجهين:

(١) سورة آل عمران ١١٠.

الأول: إرادة الصحابة وأهل البيت.

الثاني: عموم المسلمين والمسلمات في أجيالهم المتعاقبة.

والصحيح هو الثاني فتعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين متصل بآيات القرآن وحضور السنة النبوية، ومن الآيات في المقام وجوب تلاوة المسلمين لآيات القرآن في الصلاة اليومية، لتعاهد التعليم السماوي وحفظه في كلفيته وموضوعه، ومنع تحريف القرآن، لأن الله عز وجل أراد لأجيال المسلمين تلقي ذات التعليم الذي جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهو نعمة عظيمة أبى الله ألا تغادر الأرض.

التفسير الذاتي

ورد لفظ (كما أرسلنا) في القرآن مرتين، قال تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾^(١)، وفي الجمع بيت الآيتين دليل على تفضيل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فمع أن موسى عليه السلام من الرسل الخمسة أولي العزم، فقد أرسله الله إلى فرعون، بينما ذكرت هذه الآيات تفضل الله عز وجل بإرسال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المسلمين والمسلمات بالآيات الباهرات والحكمة وتطهير النفوس ومقدمات قبول الصالحات وأسباب الهداية، وبواسطتهم إلى الناس جميعاً، ومن الإعجاز في هذه الآية أنها جاءت خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ورد لفظ (أرسلنا) في القرآن ثماناً وخمسين مرة، كلها في الله عز وجل وأنه هو المرسل .

ولا ينحصر موضوع الإرسال بالأنبياء والرسل، بل يشمل مصاديق الخير والبلاء والعقوبة العاجلة للقوم الظالمين ذات صبغة الإنذار، قال

(١) سورة المزمل ٥١.

تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾^(١)، وقال تعالى في آل فرعون ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ﴾^(٢)، لقد تفضل الله عز وجل وعلم آدم الأسماء كلها ثم أمره وأن يعلم الملائكة بها قال تعالى ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾^(٣). ورد لفظ (يعلمكم) ثلاث مرات في القرآن مرتين في هذه الآية، والثالثة في قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾^(٤)، وفيه مسائل:

الأولى: تعدد سبل تعليم المسلمين، إذ جاءت الآيات الثلاثة في تلقي المسلمين التعليم.

الثانية: يأتي التعليم من الله عز وجل ومن رسوله للمسلمين، وتعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لهم هو من عند الله أيضاً بواسطة النبي.

الثالثة: توكيد المنزلة العظيمة للمسلمين بأن الله عز وجل ورسوله يعلمانهم، وفيه شاهد على أن المسلمين ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٥).

الرابعة: العلم واقية من إقتراف الذنوب والسيئات.

الخامسة: بيان كثرة وتعدد مضامين وأبواب العلم الذي يتلقاه المسلمون.

السادسة: مجيء الآيات بذكر موضوع التعليم وهو الكتاب والحكمة،

وكل فرد منهما نعمة عظيمة، وسلاح ملازم للمسلمين للنجاة في الدنيا

(١) سورة الأنعام ٦.

(٢) سورة الأعراف ١٣٣.

(٣) سورة البقرة ٣٣.

(٤) سورة البقرة ٢٨٢.

(٥) سورة آل عمران ١١٠.

والآخرة، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(١)، وجاءت هذه الآية لحث المسلمين على تعاهد ذكر الله عز وجل، والتقيد بأداء الفرائض وأحكام الحلال والحرام، لقد تضمنت تلاوة الآيات الأوامر والنواهي، والندب إلى الصالحات، قال تعالى ﴿وَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٢).

وقد جاء لفظ (يتلو) سبع مرات في القرآن، ستاً منها في النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مما يدل على جهاده في سبيل الله، وتعدد وكثرة تلاوته للآيات، وموضوعية التلاوة في تثبيت دعائم الدين، وبينت الآية موضوع التلاوة قال تعالى ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَاتٍ﴾^(٣)، وورد قوله تعالى ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ في القرآن مرتين، قال تعالى ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(٤)، لبيان أن الصلاة مما علمه الله.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: بيان فضل الله عز وجل على المسلمين، وإختصاصهم بنعمة بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفيه دعوة لهم لتعاهد الأحكام التي جاء بها من عند الله عز وجل.

(١) سورة البقرة ٢٦٩.

(٢) سورة آل عمران ١٠٤.

(٣) سورة الطلاق ١١.

(٤) سورة البقرة ٢٣٩.

الثانية: التخفيف عن العرب والمسلمين ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم منهم.

الثالثة: ذكر نعمة رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المسلمين، وجذبهم لمنازل الهداية والإيمان، ولزوم الشكر لله عز وجل بالتصديق بنبوته ونصرته.

الرابعة: تأكيد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من بين المسلمين دعوة سماوية لتلقي آيات القرآن بالقبول، وحث للمسلمين للعمل بمضامينها وما فيها من الأوامر والنواهي.

الخامسة: بيان حقيقة وهي أن تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للآيات لم تنحصر بعدد قليل من المؤمنين بل هي عامة يسمعون المسلمون والمسلمات.

السادسة: تعدد مضامين وصيغ النعم الإلهية على المسلمين ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتلاوة الآيات وتزكيته وتعليمهم الكتاب والحكمة وعلوم الغيب وقصص الأمم السابقة، وكل فرد منها له مصاديق وأفراد كثيرة ومتجددة، وتستنبط وتستقرأ منها علوم ومسائل غير متناهية وفيه تأكيد للملائمة أحكام الإسلام لكل الأزمنة ومختلف الأحوال، وهو من أسرار صيغة الخطاب في الآية وإرادة المسلمين والمسلمات فيها إلى يوم القيامة، لتكون دعوة لطلب العلم والكسب والتحصيل ومن الآيات أن أول آية نزلت على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هي ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾^(١).

السابعة: الآية دعوة للمسلمين للشكر لله عز وجل على هذه النعم بالتقيد بالفرائض وحسن الإمثال للأوامر الإلهية، وإجتنب المعاصي والسيئات.

التفسير

قوله تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾

ورد بخصوص التشبيه الوارد في الآية قولان:

الأول: ان النعمة في امر القبله كالنعمه بالرسالة.

الثاني: كون الرسول المبعوث ينتمي إليكم نعمة عظيمة.

لكن الآية أعم موضوعاً ومحمولاً وتفصيلاً في عدد النعم، وفيها مسائل.

الأولى: أهم النعم الواردة في الآية هي إرسال الرسول وتفضله سبحانه

بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للناس جميعاً.

الثانية: الآيات الأخرى والنصوص والقرائن كلها تفيد أن النبي محمداً

صلى الله عليه وآله وسلم أرسل للناس جميعاً، وإن كانت بدايات بعثته في

الجزيرة العربية.

الثالثة: صحيح أن الخطاب في الآية للعرب، ولكن بلحاظ أنهم مسلمون

مع شموله للقريب والبعيد منهم، وللموجود والمعدوم، ويعتبر موجهاً الى

المسلمين جميعاً خصوصاً وأن لغة الخطاب في ظاهرها يقصد بها المسلمون.

الرابعة: للكاف معان غير التشبيه، وقد تأتي الكاف للمطابقة والجمع

لأن المقام يستلزم التوسع في الآيات وتعداد النعم، وللتوكيد على موضوعية

وإعتبار كل نعمة على نحو الإستقلال والإجتماع، لذا لا تعني الآية

بالضرورة التشبيه بين الرسالة وتحويل القبله فهي من مصاديق الرسالة،

وتوكيد لصحتها وصدقها ووظيفة من وظائفها المتجددة كل يوم.

الخامسة: تتضمن الآية إكرام العرب والمسلمين ببعثة الرسول منهم،

وهو حجة عليهم وتذكير ودعوة للإنتفاع الأمثل من الرسالة لما فيها من البيان

والآيات، وفي التنزيل ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ... ﴾^(١).

السادسة : ما دام الرسول من العرب فلا بد أن تكون لغة الخطاب هي العربية لإقامة الحججة ولا يعني هذا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يعرف اللغات الأخرى.

السابعة : الآية وما فيها من الإخبار عن نسبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنذار للظالمين ليس من المشركين العرب فحسب بل مطلقاً لأنها جاءت للناس عامة.

الثامنة : لو أجرينا إحصائية على نسبة النمو وزيادة السكان على أساس الإنتماء الديني لوجدنا أن المسلمين أكثر نمواً وعدداً وزيادة مطردة في عدد السكان، ولا ينحصر النمو بعدد السكان بل يشمل الزيادة في المال والقوة إلى جانب التفقه والإرتقاء الفكري الذي يدل عليه الشطر الثاني من الآية.

التاسعة : لأن الحجج والبراهين التي أتى بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرة للعيان وتدرکها العقول وتلمسها الحواس فقد جاءت الآيات بالعموم ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾^(٢) ﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴾^(٣).

العاشرة : إنتساب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلى العرب حجة عليهم فقد لا يدعونون لنبي من قوم آخرين أو يترددون في الإندفاع الكامل تحت لوائه.

وقيل: أن المشهور من حال العرب الأنفة الشديدة من الإنقياد للغير، فبعثه الله تعالى من وسطهم ليكونوا إلى القبول أقرب^(٤)، والأقوى

(١) سورة ابراهيم ٤.

(٢) سورة القلم ٥٢.

(٣) سورة المدثر ٣٦.

(٤) مفاتيح الغيب ١٤٣/٤.

ان تلك الأنفة مقدمة وتوطئة زرعها الله عز وجل في نفوسهم لقبول نبوته صلى الله عليه وآله وسلم والذب عنها ولا تمام الحجة عليهم ولتكون شاهداً على صدق ما جاء به ، وإلا فإن المعجزة التي تصاحب النبي ومن أي أمة وقوم دامغة وقاهرة ، ووسيلة لجذب الناس جميعاً ، وسبب لطرد الأنفة وجاء في الآية السابقة في الزجر عن الخوف من الظالمين ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ واخشوني ﴿(١)﴾.

قوله تعالى ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾

الأولى : بيان لوظيفة النبي وعظيم الفضل الإلهي على العرب والمسلمين في تحمل أعباء الرسالة التي تتضمن التبليغ ونزول الآيات.

الثانية : رسالات الأنبياء تختلف في الكيف والكم والموضوع والمحمول وإن إلتقت جميعها بأنها من عند الله عز وجل.

الثالثة : الأنبياء قادة الأمم وهم المبلغون عن الله عز وجل بالوحي من غير واسطة بشر ، فالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إنفرد بنزول القرآن عليه من عند الله عز وجل ، متضمناً للأحكام والسنن ، قال تعالى ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿(٢)﴾.

الرابعة : جعل الله القرآن هادياً إلى الحق ومبشراً بالجنة ، وخطاباً سماوياً للناس جميعاً مباشرة أو بالواسطة.

الخامسة : عربية القرآن لم تحصره بالعرب بل كانت من أفضل السبل لنشره ووصوله إلى جميع الناس ، والشواهد التاريخية على ذلك ظاهرة.

السادسة : من إعجاز القرآن أن يأتي بلغة خاصة بقوم ، فينتج عنه حب المسلمين جميعاً لتلك اللغة وعدم النفرة منها مع تعدد إنتماءاتهم العرقية

(١) الآية ١٥٠.

(٢) سورة الأنعام ٣٨.

وإختلاف أصولهم.

السابعة : قد أسلم غير العرب في بدايات الدعوة منهم نفر من بني إسرائيل وأشخاص عديدون من الصحابة كسلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي ممن بلغتهم الآيات آنذاك، (لذا ورد في رسالة الخصال عن علي بن أبي طالب عليه السلام: "السَّبَّاقُ خمسة فأنا سابق العرب، وسلمان سابق فارس، وصهيب سابق الروم، وبلال سابق الحبش، وحبَّاب سابق النبط")^(١).

الثامنة : كلما بلغت الدعوة الإسلامية قوميات وشعوباً أخرى وتدبروا آيات القرآن وأحكام الإسلام وما فيها من الحكمة والدقة والعدل والشمول والتكامل وأصول العقيدة أقبلوا أفواجاً على الإسلام، وفي التنزيل ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ...﴾^(٢).

التاسعة : الضمير الوارد في ﴿فِيكُمْ﴾ و ﴿مِنْكُمْ﴾ يكون متحداً ومتعددأ في موضوعه، فقد يكون المراد من الأول جميع الناس، ومن الثاني العرب والمسلمين.

العاشرة : الآية حث على تلقي الآيات وإدراك أنها من أعظم النعم ووسيلة مباركة للتخلص من الوسوسة والكدورات الظلمانية والشك في جهة صدورها.

الحادية عشرة : يلاحظ في الآية صيغة اللطف الإلهي في التذكير بالنعمة على المسلمين بينما ورد في بني إسرائيل بلغة الإنذار والوعيد ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾^(٣).

(١) البحار ٢٢/٣٢٥.

(٢) سورة الأنعام ١٩.

(٣) سورة البقرة ٩٣.

الثانية عشرة : التلاوة هي القراءة بتدبر وإمعان، أي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ملتفت إلى وظائفه التي لا تنحصر بالتبليغ بل تشمل شؤون الرياسة العامة في أمور الدين والدنيا.

قوله تعالى ﴿وَزَكَّيْكُمْ﴾

الأول : الأي يطهركم ويصلح حالكم.

الثاني : إن إتباع الأوامر الإلهية وإتيان الفرائض طريق للمغفرة.

الثالث : رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم سبب لنزول الرحمة وتغشيتها للمسلمين.

الرابع : ظاهر الآية إطلاق التطهير ليشمل المسلمين عامة لأنه لا يتوقف على أفعال المسلمين بالذات بل إنه فضل من الله تعالى على نبيه، وبواسطته على الأمة.

الخامس : الذي يقصر عن عمد في واجباته يخرج نفسه من مواطن العفو والمغفرة ويحرم نفسه باختياره من التطهير الوارد في الآية والذي جاء بإخبار إلهي على نحو القطع والرزق الكريم الشامل الظاهر بالخطاب، وجاءت التزكية بصيغة الجمع التي تفيد الإطلاق والإستغراق إلا من يستحق الإخراج والطرد والمنع من فيها.

السادس : إنها شهادة سماوية تحث الآخرين على إتباع المسلمين والإستماع إليهم لما تجعله عند المسلمين من الأهلية لتحمل المسؤولية والأداء.

السابع : لقد بعث الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والعرب في حال تخلف ووثنية وترد أخلاقي فبعضهم يغزو بعضاً، ومجتمعاتهم تتآكل بسبب الفرقة والأراجيف والحسد فجاءت النبوة ضرورة وسبيل نجاة ووسيلة للبقاء بل البقاء الأفضل.

الثامن : الآية مدح وثناء على المسلمين لتحليلهم بمحاسن الأخلاق وفق أحكام الرسالة وآداب النبوة.

التاسع : الآية بشاره كثرة العرب والمسلمين لأن التزكية نماء وزيادة.

قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾

فيه قولان:

الأول: الكتاب هو القرآن، والحكمة هي القرآن.

الثاني: الكتاب هو القرآن، والحكمة الوحي من السنة^(١).

والآية أعم وفيها مسائل:

الأولى : يفيد العطف الغيرية والسعة بالرجوع إلى المعاني المتعددة للفظ

الكتاب والعلوم التي يتضمنها القرآن والكنوز التي تحتويها كل آية وكل سورة من سوره ومعاني القرآن وقصص الأنبياء السابقين وأسرار السماوات والأرضين، والمحكم والمتشابه والتنزيل والتفسير والتأويل والمطلق والمقيد، والعام والخاص، وغيرها.

الثانية : العطف بين التزكية بمعنى النماء والزيادة وبين تعليم المسلمين

الكتاب والحكمة، يعني أن النماء ليس في الكم والعدد فقط بل بالتعليم والتأديب والإكرام بما يجعلهم يلتزمون بأحكام الرسالة.

الثالثة : الحكمة لها معنيان:

الأول: إتيان الأفعال على الوجه الأتم.

والثاني: معرفة الأشياء وتفاصيل الأمور، وهو الحكيم سبحانه لأن

أفعاله تأتي على نحو الإتيان والتمام فلا يصدر منه شيء إلا على الوجه الأكمل، وهو العالم بالأشياء وماهياتها وتفاصيلها.

الرابعة : ورد لفظ الحكمة في عشرين موضعاً من القرآن، كلها تتعلق

بالتنزيل والفضل من الله تعالى ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾^(٢).

الخامسة : قد ورد في عيسى عليه السلام قوله تعالى ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

(١) مجمع البيان ١/ ٢٣٣.

(٢) سورة الإسراء ٣٩.

والتوراة والإنجيل... ﴿١﴾، وإجراء دراسة مقارنة بين هذه الآيات والآية محل البحث البحث يظهر عظيم منزلة المسلمين وتشريفهم وتعلم الحكمة ولو على درجة أدنى مما عند الأنبياء ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاء بها من عند الله فيأخذ منها أهل البيت والصحابة وعلماء الإسلام.

السادسة : تقدم أنه ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "العلماء ورثة الأنبياء" (٢)، ويمكن إستقراء صحة صدور هذا الحديث من هذه الآية.

فبعث الله الأنبياء بالحكمة والموعظة والمعارف الإلهية السامية وإذا أنعم الله عز وجل بنعمة على أهل الأرض فإنه أكرم من أن يرفعها، وما عند الأنبياء السابقين من العلوم عند النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ففضل الله وأمره أن يعلمها المسلمين، ويترشح هذا الأمر من الجمع بين آية البحث وقوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (٣)، وليبيان قانون من الإرادة التكوينية وأن نطق النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأمر من الله عز وجل.

السابعة : إهتم المسلمون بالعلوم المختلفة واتخذوا من القرآن والسنة دليلاً ومنبعاً للإستنباط بتناقل الروايات والأحاديث والدراسة مع التوثيق والتأليف وإن كان على نحو محدود.

الثامنة : دون علم الحديث بصورة أكثر ضبطاً وسعة، وإزداد التصنيف والتحقيق والتدوين نفسه منذ أن رفع عمر بن عبد العزيز في سنة تسع وتسعين للهجرة المنع من تدوين الحديث.

التاسعة : قام المسلمون بتنقيح مسائل الفلسفة وأوجدوا مدارس في علوم اللغة والأدب والرياضيات والطبيعة والكلام ومختلف العلوم.

(١) سورة المائدة ١١٠.

(٢) تفسير الثعالبي ٤٦٢/٢.

(٣) سورة النجم ٣-٤.

العاشرة : استطاعوا بالإهتمام بضياء القرآن أن يعالجوا أدق المسائل وأشد حالات الإبتلاء وشؤون الرياسة وقيادة جيوش الفتح بحكمة وتوفيق الأمر الذي كان سبباً في إيمان الكثيرين وفزع الأعداء.

الحادية عشرة : الحكمة وقاء وحصانة ومنعة وخير محض، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(١).

الثانية عشرة : الآية بيان لفضل الله تعالى فيما جعل عند المسلمين من سلاح الحكمة والتدبير وملكة تصريف الأمور، وتشخيص القبيح وإجتنابه.

قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

في الآية وجوه:

الأولى : بيان لما في الإسلام من النعم.

الثانية : التذكير بفضل الله على المسلمين، قال تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾^(٢).

الثالثة : الإخبار عن إفاضات النبوة.

الرابعة : توكيد إشراقات القرآن.

الخامسة : البركات المصاحبة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

السادسة : الدعوة للإنتفاع من وجود النبي صلى الله عليه وآله وسلم

بين ظهرائهم والتزود من علومه.

السابعة : حث المسلمين على اللجوء إلى النبي في كل أمر يستلزم العلم

والتدبير والحكمة والصلاح، قال تعالى ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي

الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾^(٣).

(١) سورة البقرة ٢٦٩.

(٢) سورة يونس ٥٨.

(٣) سورة النساء ٨٣.

الثامنة : التنبيه إلى وجود علوم مكنونة يظهرها النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

التاسعة : عدم التفريط بما يأتي به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولزوم العمل والتقيّد به.

العاشرة : التوثيق والتدوين للسنة النبوية القولية والفعلية.

الحادية عشرة : التذكير بهذه النعمة العظيمة كي يشكر المسلمون الله عز وجل، وفيه إستدامة لفضل الله تعالى عليهم.

الثانية عشرة : الموعظة والإعتبار من قصص الأمم السابقة التي ذمها القرآن لجحودها وعنادها.

الثالثة عشرة : إجراء الدراسات والبحوث التي تبين العلوم المستحدثة التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابعة عشرة : المقارنة بين حال العرب والمسلمين قبل الإسلام وبعده، والإتعاظ بالفوارق التي ترسخت عن علوم الإسلام.

الخامسة عشرة : تعداد تلك العلوم ومنها:

أولاً : خلق السماوات والأرض.

ثانياً : خلق الإنسان.

ثالثاً : التفكير في أسرار الكون.

رابعاً : الآيات في خلق الإنسان وأسراره.

خامساً : سير الشمس والقمر والنجوم وإختلاف الليل والنهار.

سادساً : إعجاز القرآن وآياته، قال تعالى ﴿كَتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾^(١).

سابعاً : علوم الآخرة والحساب والقبر.

ثامناً : معرفة جميع المسلمين للطرق المؤدية إلى الجنة أو إلى النار.

تاسعاً : مسائل الحلال والحرام.

عاشرًا : أداء الفرائض وأحكامها وشرائطها وأجزائها.
حادي عشر : الأهلية للرئاسة والقيادة والولاية والقضاء والإدارة
 وتصريف حوائج الناس ونصرة المظلوم.
ثاني عشر : العلم بأن طاعة الله تعالى هي الطريق إلى السعادة الأبدية.
ثالث عشر : فتح آفاق العلم امام المسلمين.
رابع عشر : حث المسلمين على طلب العلم والسعي في دروبه.
خامس عشر : معرفة فضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والمعارف
 الإلهية التي جاء بها.

سادس عشر : الإطلاع على ما كان يعانيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الأذى في سبيل الله، والإرتقاء بالواقع العلمي والعقائدي للأمة
 لتكون مؤهلة لتحمل أعباء مسؤولياتها التاريخية.

سابع عشر : تعلم المسلمين سنن وآداب الشكر لله تعالى إحداث تغيير
 عند المتعلم وتلدل الآية على أن التغير الذي يحصل عند المسلمين حالة عظيمة
 مستحدثة في الأرض، تتصف بالإرتقاء في سلم الكمالات، وإحراز علوم
 تجهلها الملل الأخرى، وأن التعليم خير محض بقرينة أن النبي محمداً صلى الله
 عليه وآله وسلم يعلم المسلمين الكتاب والحكمة، وهذا الإرتقاء من
 خصائص ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

ومن الإعجاز في مصاديق العلم الذي جاءت به الآيات التعدد والتداخل
 فيها، وإنطباق أكثر من علم على موضوع واحد من غير تعارض بينهما
 ويكون التباين في الكيفية، فمثلاً قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ
 وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، فهو من الكتاب لجزئيته من القرآن، ومن الحكمة لما فيه
 من الصبر والتدبر، ومما لم يعلمه المسلمون لأن الإسترجاع رزق كريم لم

يكن عند أهل الملل السابقة.

ومن الآيات في المقام تعاهد المسلمين الشكر والحمد لله عز وجل على نحو الوجوب المتكرر إذ يبدأ كل مسلم ومسلمة الصلاة بقول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، وبصيغة التعبد والقرآنية وقيد إستقبال البيت الحرام الذي جاءت الآيات الثلاثة السابقة بالتأكيد عليه، وليكون هذا الشكر باباً لتوالي النعم على المسلمين، ويتجلى بالعهد والوعد الكريم، قال سبحانه ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾^(٢).

ويحتمل الخطاب وموضع التعليم وجوهاً:

الأول : إرادة الصحابة وأهل البيت .

الثاني : المراد المعنى الأعم، والمقصود أجيال المسلمين المتعاقبة .

الثالث : الأصل هو تعليم الصحابة وأهل البيت، ويأخذ التابعون

وتابعوا التابعين منهم .

ولا تعارض بين هذه الوجوه، وكلها من مصاديق الآية الكريمة فان قلت كيف يكون تعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأجيال المسلمين اللاحقة ممن لم يروه أو يسمعوا منه ومن دون واسطة ، والجواب هو إقتباس أجيال المسلمين من سنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم واستنباطهم الدروس منها، وملائمتها للأحوال والأزمنة والأماكن المتبانية .

وعن أبي رافع عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا ندرى... ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه^(٣).

(١) سورة الفاتحة ٣.

(٢) سورة النمل ٤٠.

(٣) الدر المشور ٣٠٩/٢.

قوله تعالى ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ الآية ١٥٢.

الإعراب واللغة

فاذكروني: الفاء حرف إستئناف، اذكروني: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو: فاعل، والنون: نون الوقاية، الياء: مفعول به.

أذكركم: فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب، والفاعل ضمير مستتر تقديره (أنا) يعود إلى الله، وأشكروا: عطف على أذكروني، لي: جار ومجرور متعلقان بأشكروا.

ولا تكفرون: الواو حرف عطف، لا: الناهية، تكفرون: فعل مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون، الواو: فاعل، والكسرة: أمانة على الياء المحذوفة التي هي مفعول به.

والذكر إستحضار النفس للمعنى بعد غيابه عنها، ورجوع الصورة الى الذهن سواء كانت حقيقة عقلية أو تصويرية أو وهمية، وبالذكر يطرد النسيان، وذكرنا للباري عز وجل في الآية موضوع يحمل صفة العبادة وهو أعم من غياب المعنى عن المحافظة فكل فرد من ذكرنا لله يتعقبه ذكر آخر، وملاكه الشوق وليس من نسيان في المقام .

في سياق الآيات

بعد بيان النعم العظيمة التي رزق الله عز وجل المسلمين بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم جاءت هذه الآية نعمة أخرى جديدة وهي تعليم المسلمين مقدمات وأسباب المحافظة على هذه النعم بالقول والفعل.

الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة على شعبتين:

الأولى: الصلة بين هذه الآية والآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين آية (يعرفونه) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: معرفة أهل الكتاب بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبعثته شاهد تصديق لنبوته، ومناسبة لشكر المسلمين لله تعالى على هذه الحجة البينة، وما فيها من التخفيف عنهم بالإحتراز من الجدل وأسباب الشك التي تأتي من فريق من أهل الكتاب.

الثانية: دعوة المسلمين إلى ذكر الله عز وجل وإن قام فريق من أهل الكتاب بإخفاء الحقائق والبشارات الخاصة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة: جاءت الآية أعلاه بإخبار من الغيب وبيان حقيقة وهي وجود أخبار نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الكتب السماوية السابقة مما يستلزم شكر المسلمين على هذه النعمة.

الثاني: الصلة بين آية (ولكل وجهة) ^(٢)، وبين هذه الآية وفيها مسائل:

الأولى: التوجه إلى البيت الحرام في الصلاة من ذكر المسلمين لله عز وجل.

الثانية: من الإعجاز في الشريعة الإسلامية مجيء الأمر الإلهي للمسلمين

(١) الآية ١٤٦.

(٢) الآية ١٤٨.

بأفراد الطاعة كالصلاة والزكاة، قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(١)، لتكون كل من الصلاة والزكاة ذكراً لله عز وجل.

الثالثة: إستباق الخيرات طاعة لله عز وجل وبقصد القرية في ذكر الله عز وجل.

الرابعة: إتيان الفرائض وفعل الصالحات من شكر المسلمين لله عز وجل.
الخامسة: جاء إمتثال المسلمين بإستقبال البيت الحرام في الصلاة شاهداً على إيمانهم وتنزههم من الكفر والضلالة.

الثالث: الصلة بين آية (ومن حيث خرجت)^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: إستقبال المسلمين للبيت الحرام في الصلاة من ذكرهم لله عز وجل.
الثانية: من اللطف الإلهي بالمسلمين أن يأمرهم الله سبحانه بذكره، ويأتي القرآن بالأمر الذي يتضمن الإمتثال له ذكره تعالى، فيأتيهم الأجر والثواب المركب والمتعدد من الإمتثال.

الثالثة: في الجمع بين الآيتين بشارة الجزاء العظيم في الدنيا على إستقبال البيت الحرام وترغيب للناس بالإسلام وأحكامه.

الرابعة: بيان منافع ما يأتي في القرآن من النسخ.
الخامسة: التوجه للبيت الحرام في الصلاة من شكر المسلمين لله عز وجل.
السادسة: من الجحود بالنعم الإعراض عن البيت الحرام وإستقباله.
الرابع: الصلة بين الآية السابقة (كما أرسلنا)^(٣)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: مما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إستقبال البيت

(١) سورة البقرة ١٤٣.

(٢) الآية ١٤٩.

(٣) الآية ١٥١.

الحرام.

الثانية: في إستقبال البيت الحرام تخفيف عن المسلمين، إذ أن مكة أم القرى، ويحج إليها العرب والمسلمون وهو من الحنيفية الإبراهيمية.

الثالثة: لقد أنعم الله على المسلمين والناس جميعاً بتعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لهم الكتاب والحكمة، ليكون هذا التعليم من ذكر الله ومقدمة له.

الرابعة: يفيد الجمع بين الآيتين قيام المسلمين بذكر الله من وجوه:
الأول: تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الآيات وتلاوة المسلمين لها، وإستماع المسلمين لآيات القرآن من ذكر الله،

الجواب نعم فإن قلت إن الكفار يسمعون آيات القرآن عرضاً فلا يعتبر ذكراً منهم لله عز وجل، والجواب حصول التباين والتضاد الموضوعي في القصد والنية، فالمسلمون يسمعون التلاوة للإتعاظ والتدبر، أما الكفار فإنهم يستكبرون ويعرضون عنها، مما يزيدهم إثماً، قال تعالى ﴿وَيُلْكَأُفَّاكَ أَتَيْمٌ﴾ ^(١) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرَةً بِعَذَابِ أَلِيمٍ ^(٢).

الثاني: تزكية وتطهير المسلمين لإصلاح لهم للمواظبة على ذكر عز وجل.

الثالث: تعلم الكتاب وتلاوة الآيات ذكر لله عز وجل.

الرابع: الإمتثال لما في القرآن من الأوامر والأحكام من ذكر الله، كما في قوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ^(٣)، وهذا الإمتثال من مصاديق الشكر لله عز وجل.

الخامس: تعلم الحكمة ومضامين الوحي التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من ذكر الله عز وجل.

السادس: معرفة المسلمين لعلوم الغيب مناسبة لذكر الله والتوجه له بالشكر.

(١) سورة الجاثية ٧-٨.

(٢) سورة المزمل ٢٠.

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه:
الأول: الصلة بين هذه الآية والآية التالية (استعينوا بالصبر)^(١)، وفيها مسائل:
مسائل:

الأولى: إتحاد لغة الخطاب في الآيتين بتوجهه إلى المسلمين.
الثانية: تضمن الآيتين الأمر إلى المسلمين وما فيه الأجر والثواب.
الثالثة: الإستعانة بالعبادات من ذكر الله عز وجل والشكر له، وهي وقاية من الجحود.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية (بل أحياء)^(٢)، وفيها مسائل:
الأولى: جاءت هذه الآية بالأمر للمسلمين بذكر الله، وجاءت الآية أعلاه بالنهي عن نعت الذين ماتوا في سبيل الله بأنهم أحياء.
الثانية: في الإقرار بحياة وخلود الذين قتلوا في سبيل الله ذكر الله عز وجل، لما يدل عليه من الإقرار بالمعاد وعالم الجزاء، قال تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٣).

الثالثة: القتل في سبيل الله عز وجل من أسمى معاني الإخلاص في طاعة الله، وذكره والإنقطاع إليه.

الرابعة: لزوم شكر المسلمين لله عز وجل على نعمة حسن الجزاء والمثوى للذين قتلوا في سبيله.

الثالث: الصلة بين هذه الآية وآية (ولنبلونكم)^(٤)، وفيها مسائل:
الأولى: دعوة المسلمين لذكر الله عند الشدة والرخاء.
الثانية: تفقه المسلمين، وإرشادهم إلى سلاح يكون واقية وحرزاً من الإبتلاء

(١) الآية ١٥٣.

(٢) الآية ١٥٤.

(٣) سورة آل عمران ١٦٩.

(٤) الآية ١٥٥.

المتحد والمركب.

الثالثة: إبتلاء المسلمين بالخوف والجوع لا يعني أنه عقوبة، فهو باب ومناسبة لنيل الثواب.

الرابعة: إبتدأت الآية محل البحث بالأمر بذكر الله، وأختتمت الآية أعلاه بالحث على الصبر لبيان أن ذكر الله هو أفضل مصاديق الصبر.

الخامسة: بيان قانون ثابت وهو وجوب ذكر الله في كل الأحوال وعدم التفريط بالفرائض عند الشدائد، بل هي سبيل لمحو تلك الشدائد والتغلب عليها.

إعجاز الآية

الأول: ذكر الله تعالى لنا رحمة تتعقب ذكرنا له سبحانه وإقامة الشعائر.

الثاني: عدم الوساطة بين الشكر والكفر.

الثالث: من إعجاز الآية أن الآيات السابقة عدت النعم العظيمة المتتالية على بني إسرائيل، وذكرت الآية السابقة نعمة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم على المسلمين، وأمر الله في هذه الآية بالشكر عليها، أي انها تعادل تلك النعم وتزيد عليها.

الرابع: عند حصول العلم تأتي مرتبة الذكر، أي أن الذكر من صفات ووظائف العلماء، فالآية مدح وثناء على المسلمين.

الخامس: الصلاة أصدق وأكمل مفاهيم الذكر، فالآية حث وترغيب بالصلاة.

السادس: تبين الآية التناقض والتنافي بين الذكر والكفر.

السابع: يطرد ذكر الله تعالى وجوه الكفر المحتملة.

ومن إعجاز هذه الآية أنها جاءت من أربع كلمات لم ترد في القرآن، وهي:

الأولى: إذكروني.

الثانية: أذكركم.

الثالثة: إشكروا لي.

الرابعة: لا تكفرون.

وفي إجتماع هذه الأوامر آية في إكرام المسلمين، وحجة في تشریفهم، ودوام عزهم ، وشاهد على أنهم ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، ودليل على الإعجاز في ألفاظ القرآن، وأنها ليست كلها مكررة، بل في القرآن آيات تتكون من كلمات متعددة، ولكن تلك الكلمات غير موجودة في آيات القرآن الأخرى لتكون مدرسة لإستنباط المسائل.

ومن الإعجاز في نظم الآية إفاضات التعليم والتأديب فيها، فقد ذكرت الآية السابقة تعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين الكتاب والحكمة والفرائض، وجاءت هذه الآية بمصاديق من هذا التعليم من وجوه:

الأول: وجوب ذكر المسلم لله عز وجل .

الثاني: البشارة والإخبار عن ذكر الله عز وجل لمن يذكره من المؤمنين لإفادة الحق في لغة الخطاب في الآية السابقة (كما ارسلنا فيكم رسولا منكم) وللوعد الكريم في هذه الآية الخاص بالمسلمين (أذكركم).

الثالث: الأمر الإلهي للمسلمين بالمبادرة إلى شكر الله بقوله تعالى ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾.

الرابع: إجتنب الجحود والكفر بالنعيم، والصدود عن ضروب الطاعة قال تعالى ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾^(٢).

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة التغابن ١٢.

وجاءت الآية التالية لتكون مضامينها مصاديق مركبة ومتعددة لما فيها من الإستعانة بالصبر والصلاة وهو من آيات الله ومما علمه النبي محمدا صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين، ومن وجوه الذكر لله عز وجل والشكر له سبحانه التنزه عن الكفر والجحود .

وسياتي في الجزء الثالث والأربعون بعد المائتين من هذا السفر قوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ تحريم للإرهاب.

ويمكن تسمية هذه الآية آية (فاذكروني) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية.

الآية سلاح

تحت الآية الكريمة على ذكر الله تعالى وعدم الغفلة عن الذكر، وتبين أهميته وآثاره، وتؤسس له مدرسة مستقلة ذات فصول وقواعد.

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار إمتحان وإبتلاء يتصارع فيها الحق والباطل، والخير والشر، وتفضل سبحانه ورزق الإنسان ما يتوقى به من أسباب الباطل والشر، وينجذب إلى الحق والهدى، ومن هذا الرزق هذه الآية القرآنية وما فيها من الأمر بذكر الله عز وجل، وتعاهد شكره سبحانه، وإجتنب الجحود بنعمه، وكل فرد من الأفراد الثلاثة التي ذكرتها الآية الكريمة وواقية وحرز من الإفتتان بزخرف وغرور الدنيا، وهذه السلاح من الشواهد على صيرورة المسلمين، ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

ولا تنحصر منافع مضامين الآية بأمور الحياة الدنيا، بل تشمل الآخرة وجوه:

الأول : تبعث الآية السكينة في النفس من أهوال يوم القيامة لصيرورة ذكر الله حرزاً وأماناً في النشاطين.

(١) سورة آل عمران ١١٠.

الثاني : الآية واقية من النار.

الثالث : الآية وسيلة للسلامة من الغفلة والجهالة ، وما يترشح عنهما من الآثام وما يفوت بسببهما من أفراد الثواب العظيم.
وتبعث آيات القرآن والسنة النبوية على تعاهد الذكر، وليس من حصر لمصاديقه ومناقضه قال تعالى ﴿وَلَذِكُرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(١).

وعن عبد الله بن بسر أن رجلاً قال : يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأحبرني بشيء أتشبث به، قال : لا يزال لسانك رطباً بذكر الله^(٢).

وذكر الله عون للغلبة على الشدائد والمصائب لذا ورد الأمر الإلهي بالاسترجاع بقول ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٣) عند المصيبة وتلاوة القرآن من أبهى مصاديق الذكر، فأنعم الله عز وجل على المسلمين وجعل الصلاة واجباً متكرراً خمس مرات في اليوم، وكله ذكر وخشوع لله عز وجل.

مفهوم الآية

تؤكد الآية في مفهومها على لزوم عدم الإنشغال بالدنيا وتوظيف العلوم فيها لغير مرضاته تعالى وتدعو إلى عدم التفريط بالمعارف الإلهية والخزائن التي تفتح على المسلمين بالقرآن والسنة، كما تحبر الآية عن إتصال نعم الله تعالى وإزدياد أبواب فضله على المسلمين بدوام ذكره وحرصهم على أداء الفرائض والعبادات.

(١) سورة العنكبوت ٤٥.

(٢) سنن الترمذي ٢٦٨/١٢.

(٣) الآية ١٥٦.

ومن مفاهيم هذه الآية والآية السابقة الجمع بين بشارة نزول البركات على المسلمين وإقبال الدنيا وسعة العيش، والحث على مقابلة النعم بالشكر له تعالى وعدم الجحود.

وفي الآية مسائل:

الأولى: إكرام المسلمين بتوجه الخطاب التكليفي لهم.

الثانية: تعيين موضوع هذا التكليف، وهو ذكر الله عز وجل.

الثالثة: ترغيب الناس بدخول الإسلام، لما في ذكر الله من الشرف العظيم.

الرابعة: بيان المنزلة والشأن الرفيع الذي فاز به المسلمون بالهداية إلى ذكر الله عز وجل.

الخامسة: مجيء الآية بصيغة العموم الإستغراقي الشامل لأجيال المسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة.

السادسة: عمارة الأرض بذكر الله عز وجل، وفوز المسلمين بهذه النعمة وفيه دعوة للناس للإقتداء بهم ومحاكاتهم.

السابعة: بيان منافع ذكر الله، والأجر العظيم الذي يفوز به من يقوم بذكر الله عز وجل.

الثامنة: عدم تخلف ذكر الله للمسلمين عن ذكرهم له.

التاسعة: تعدد صيغ وقاية المسلمين من إبتلاءات الحياة الدنيا، وجاءت في الآية على وجوه:

الأول: ذكر المسلمين لله.

الثاني: ذكر الله عز وجل للمسلمين، وتغشيم برحمته.

الثالث: قيام المسلمين بشكر الله عز وجل.

الرابع: إجتنب المسلمين الجحود بالنعم.

العاشرة: بيان حقيقة وهي تعدد سبل وكيفيات طاعة الله وأنها لا تقف عند ذكره سبحانه، بل لا بد من التوجه له بالشكر والثناء على النعم التي تفضل بها.

الحادية عشرة: عدم ذكر متعلق وموضوع الشكر، لأن النعم الإلهية على الناس وعلى المسلمين خاصة من اللامتهي، قال تعالى ﴿وَإِذْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١).

الثانية عشرة: التحذير من توجيه الشكر لغير الله عز وجل، إذ جاءت الآية بتقييد الشكر بلزوم توجيهه إلى الله عز وجل وهو المنعم على الخلائق كلها، وما من مخلوق إلا وهو محتاج إلى رحمته.

الثالثة عشرة: بيان التنافي والتضاد بين شكر الله وبين الكفران بالنعمة، وقد أراد الله عز وجل للمسلمين الإنقطاع إلى عبادته وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

الرابعة عشرة: دعوة المسلمين لإجتنب الخلط بين العمل الصالح وضده، قال تعالى في ذم قوم ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾^(٣).

الخامسة عشرة: من النعم الإلهية في بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية الكريمة التي جاءت للمسلمين والمسلمات بخير الدنيا والآخرة.

السادسة عشرة: بيان منافع رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتلاوة الآيات وتعليمه المسلمين الكتاب

(١) سورة إبراهيم ٣٤.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة التوبة ١٠٢.

والحكمة، وصيغ لأهلية للإمثال لأمر الله عز وجل في ذكره وتسييحه.

الآية لطف

جاءت الآية لطفاً بالمسلمين لما فيها من هدايتهم إلى ذكر الله عز وجل وما فيه من أسباب الصلاح والهداية في الدنيا، والأجر والثواب العظيم في الآخرة، لقد خلق الله عز وجل الناس لعبادته وذكره، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

وجاءت هذه الآية ليتعاهد المسلمون ذكر الله عز وجل ليكون مصداقاً من مصاديق عبادة الله عز وجل في الأرض، وفيه شاهد بأن الله عز وجل يقرب الناس إلى منازل العبادة، لدلالة هذه الآية على أن ذكر الله مطلوب بذاته وهو مقدمة لضروب من العبادة وفيه تهذيب للنفس وصلاح للمجتمعات.

لقد خلق الله عز وجل الإنسان من عقل وشهوة، وجاءت هذه الآية ليوظف المسلم عقله في طاعة الله، ويقهر النفس الشهوية وينقطع إلى ذكر الله، وشكره على نعمة الخلق والعافية والإسلام، وهل في الآية لطف بغير المسلمين، الجواب نعم، لأنها دعوة للإسلام، ووسيلة للتنزه من الكفر وبرزخ دون المحوود بالنعم.

إنفاضات الآية

لقد جعل الله عز وجل الدنيا داراً لرحمته، ودعاء وظرفاً للهداية والصلاح، وتفضل وبعث الأنبياء لجذب الناس للإيمان، وجاءت هذه الآية للإخبار عن قيام المسلمين بمسؤوليات تعاهد الحياة في الأرض، وديمومة العيش فيها بأمن وسلام، إذ تنزل البركات بذكر الله،

وعند ما أمر الله عز وجل الناس بعبادته وذكره فإنه غني غير محتاج للعبادة ولما جاء في هذه الآية من ذكره وتسييحه، ولكنه أراد للناس الحياة الكريمة والسعادة في النشأتين والتي لا تنال إلا بطاعة الله وإجتناى معصيته، وجاءت هذه الآية جذباً للمسلمين لسبل الطاعة، وبرزخاً دون الغفلة والجهالة، ويمنع ذكر الله من أسباب الغواية، واللهث وراء زينة الدنيا التي هي دار إمتحان ومليئة بالإفتتان، وتفضل وأنزل هذه الآية للوقاية مما في الدنيا من أسباب اللذة المحرمة، إذ أن ذكر الله عز وجل، وحضور الخشية منه تعالى في الوجود الذهني حرز من الإفتتان، ومانع من طغيان النفس الغضبية والشهوية،

وجاءت الآية بالأمر بالشكر لله عز وجل ليكون هذا الشكر سياحة في عالم الملكوت، وإستحضاراً متجدداً لفضل الله عز وجل والنعمة المتعددة والمتتالية التي أنعم بها على المسلمين.

وتتضمن الآية أمرين ونهياً، وكل فرد منها جذبة إلى منازل الإيمان، وسبب للهداية والصلاح.

التفسير الذاتي

في الآية بلحاظ آيات القرآن الأخرى مسائل:

الأولى: جاءت آيات القرآن بمدح الذاكرين لله عز وجل على نحو الإطلاق الشامل للرجال والنساء قال تعالى ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، وفيه حث للمسلمين على الذكر وبيان منافعه وأن التكليف به لا ينحصر بالذكر من المسلمين، بل يشمل المسلمات أيضاً، ليكون ذكر كل منهما حثاً للآخر على الإقتداء به في الذكر، وإصلاحاً للمجتمعات، وواقية من السيئات وإرتكاب الذنوب.

الثانية: بيان لزوم الكثرة والتعدد في ذكر الله، وأن هذه الكثرة تشريف وتفضيل خص الله عز وجل به المسلمين، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾^(١)، والمراد من لفظ الذين آمنوا عموم المسلمين والمسلمات، ويشمل الخطاب المنافقين لأن في ذكر الله شفاء وتنزه من النفاق، فمن الإعجاز في الذكر أنه واقية وعلاج ومادة للتوبة والإنابة.

الثالثة: ذكر الله في العبادة وما بعدها، قال تعالى ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٢)، وعند أداء مناسك الحج والفراغ منها^(٣).
الرابعة: من وجوه ذكر الله ذكر نعمته، قال تعالى في أمر الناس جميعاً

(١) سورة الأحزاب ٤١.

(٢) سورة الجمعة ٩.

(٣) أنظر سورة البقرة ٢٠٠.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾^(١)، وفيه إشارة إلى أن ذكر نعمة الله واجب على كل المكلفين، وهو طريق للهداية والإيمان ويأتي الثواب للمؤمن عند ذكره نعمة الله، أما الكافر فإنه ذكره لها حجة عليه، وكذا عدم ذكره لها مع إضافة بأن عدم ذكرها جحود وإستكبار وإصرار على العناد.

الخامسة: عدم إحصار ذكر الله بكيفية وهيئة مخصوصه قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾^(٢).

السادسة: جاء الخطاب الإلهي بالذكر إلى الأنبياء والمرسلين كما في قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾^(٣)، أيضاً المسلمون والمسلمات إذ لا دليل على تخصيص الخطاب.

وجاء في زكريا قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾^(٤)، وجاء العطف بالواو في الآية، وهو من عطف الخاص على العام، مع قرينة وهي الذكر الكثير، الذي يفيد المعنى الأعم من التسبيح، وبلحاظ أن المقام مقام شكر لله، وإقامة للحجة، وتوكيد للمعجزة في رزق الله عز وجل زكريا ولداً مع تقدمه وزوجه في العمر، وفوات أوان الإنجاب.

السابعة: جاءت الآيات بالإخبار عن تخلف أكثر الناس عن وظائف الشكر لله، قال تعالى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(٥)، ويفيد الجمع بين الآيتين لزوم عدم إلتفات المسلمين إلى أهل الجحود، وأن تعاهد المسلمين

(١) سورة فاطر ٣.

(٢) سورة آل عمران ١٩١.

(٣) سورة الأعراف ٢٠٥.

(٤) سورة آل عمران ٤١.

(٥) سورة يوسف ٣٨.

لشكر والثناء على الله حجة على الناس، ودعوة لهم لدخول الإسلام، ويدرك الإنسان بما رزقه من عقل ويلحظ الشواهد أن شكر المنعم واجب. الثامنة: لقد أثنى الله عز وجل على الأنبياء لقيامهم بالشكر لله عز وجل، قال سبحانه ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾^(١)، لبيان أن المسلمين ورثة الأنبياء في الشكر، وإخلاص العبودية لله عز وجل.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: الأمر للمسلمين بذكر الله عز وجل.

الثانية: يفيد عطف الذكر على الآية السابقة بأن ذكر الله نوع شكر له سبحانه على بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من بين ظهراني العرب والمسلمين وتعليل المسلمين الكتاب والحكمة، والشكر بذاته عمل صالح، وتترشح عنه الصالحات.

الثالثة: جعل المسلمين في حرز من السيئات، إذ أن ذكر الله حصن ومنعة.

الرابعة: حث المسلمين على الإستغفار لأنه من مصاديق الذكر.

الخامسة: بيان طريق الفوز برحمة الله، وهذا الطريق ذكر الله لقوله

تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

السادسة: بيان فوز المسلمين بمرتبة ذكر الله عز وجل، وهذا الذكر متصل إلى يوم القيامة، وملازم لذكرهم له سبحانه في الصلاة، وتلاوة القرآن، والفرائض البدنية كالصيام والحج لأنه نوع ذكر وطاعة وإمثال لأوامر الله

عز وجل وهو من مصاديق تفضيل المسلمين، وأنهم ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

السابعة: لو ذكر شطر من المسلمين الله عز وجل وقصر الشطر الآخر منهم بوظائف الذكر فهل يكون ذكر ورحمة الله بذات الكيف والحكم والنوع، ويحتسب الله عز وجل ذكر شطر منهم له ذكراً صادراً من الجميع رافة ورحمة بالمسلمين كأمة واحدة، أم أن ذكره ورحمته تعالى تكون خاصة بالذين يذكرونه منهم،

الجواب إن الله عز وجل واسع كريم، وإذا أعطى يعطي بالأوفى والأعم، وهو الذي يشكر فريقاً من المسلمين فيعم شكره المسلمين جميعاً، ومن ذكره تعالى للمسلمين طرد الغفلة ورفع التقصير عنهم، وإصلاحهم لذكره سبحانه، وتقريبهم من طرق التوبة وهدايتهم إليها،

فجاءت هذه الآية لجذب المسلمين والمسلمات إلى منازل الذكر، وتوارثهم له، وفرحهم وإستبشارهم به كفضل وخير محض، قال تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٢)، وبلحاظ الآية أعلاه فإن الذكر مواساة للمسلمين عند المصيبة، وبرزخ دون الغرور والبطر عند توالي النعم، ودعوة للصبر في حال الشدة والبلاء، لذا جاءت الآية التالية بالحث على الصبر والصلاة، وجاء بعد ثلاث آيات قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة يونس ٥٨.

أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ^(١)،
ليكون الإسترجاع من مصاديق ذكر الله، والصلوات مغفرة ورحمة.

الثامنة: بالشكر لله يرتقي المسلمون في مراتب الكمالات.

التاسعة: دعوة الناس للإقتداء بالمسلمين في الشكر لله.

العاشرة: دعوة المسلمين للجوء والإستغاثة بالله.

الحادية عشرة: جاءت الآية السابقة بتعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الكتاب والحكمة من عند الله، وجاءت هذه الآية بتعليم الله عز وجل للمسلمين ذكره وشكره وطاعته وتفضله بتحذيرهم من الكفر والجحود بالنعمة.

الثانية عشرة: مواظبة المسلمين على ذكر الله وشكره دعوة متجددة للناس لدخول الإسلام، وزجر لهم عن التعدي على المسلمين وحرماتهم، وقد ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قوله (نصرت بالرعب مسيرة شهر)^(٢).

ويبحث ذكر المسلمين لله عز وجل الفزع والرعب والهيبة في قلوب الأعداء.

الثالثة عشرة: النهي عن الجحود بالنعمة الإلهية، وهذا النهي في مفهومه دعوة إضافية لشكر الله عز وجل، وتوكيد لحقيقة وهي أن النعم كلها من عند الله عز وجل، وأنه سبحانه يجب أن يشكره عباده على النعم لأن فيه خير الدنيا والآخرة.

(١) سورة البقرة ١٥٦-١٥٧.

(٢) الكشاف ٣٦/١.

الرابعة عشرة: لقد أنعم الله عز وجل على المسلمين بالملائكة مدداً وعوناً لهم في ميادين الدفاع ، قال تعالى ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾^(١).

أجزاء لم يغز النبي (ص) أحداً

ستأتي أجزاء خاصة من هذا السفر بقانون (لم يغز النبي (ص) أحداً) وهي :

- ◆ الجزء التاسع والخمسون بعد المائة.
- ◆ الجزء الستون بعد المائة.
- ◆ الجزء الحادي والستون بعد المائة.
- ◆ الجزء الثالث والستون بعد المائة.
- ◆ الجزء الرابع والستون بعد المائة.
- ◆ الجزء الخامس والستون بعد المائة.
- ◆ الجزء السادس والستون بعد المائة.
- ◆ الجزء السابع والستون بعد المائة.
- ◆ الجزء التاسع والستون بعد المائة.
- ◆ الجزء الحادي والسبعون بعد المائة .
- ◆ الجزء الثاني والسبعون بعد المائة .
- ◆ الجزء الثالث والسبعون بعد المائة .
- ◆ الجزء الخامس والسبعون بعد المائة.
- ◆ الجزء السادس والسبعون بعد المائة.
- ◆ الجزء السابع والسبعون بعد المائة .

- ◆ الجزء الثامن والسبعون بعد المائة .
- ◆ الجزء الثاني والثمانون بعد المائة .
- ◆ الجزء الخامس والثمانون بعد المائة .
- ◆ الجزء الثامن والثمانون بعد المائة .
- ◆ الجزء الثاني والتسعون بعد المائة .
- ◆ الجزء المائتان .
- ◆ الجزء الثامن بعد المائتين .
- ◆ الجزء الثاني عشر بعد المائتين .
- ◆ الجزء الثامن عشر بعد المائتين .
- ◆ الجزء السادس والعشرون بعد المائتين .
- ◆ الجزء الثامن والثلاثون بعد المائتين .

الصلة بين أول وآخر الآية

بدأت الآية بحرف العطف الفاء الذي يفيد عدم تأخر التالي عن الأول، وفيه شاهد على الصلة والاتصال بين هذه الآية والآية السابقة التي جاءت ببيان نعمة الله عز وجل على المسلمين والناس جميعاً ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفيه شاهد بأن رسالته جعلت المسلمين مؤهلين لتلقي الأمر الإلهي بذكر الله والإمتثال لأوامر ونواهيه، وهو من الدلائل على إرتقاء المسلمين لمنزلة ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)،

لقد بعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ليقراً القرآن على المسلمين كما في قوله تعالى في الآية أعلاه ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾^(٢)،

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة البقرة ١٥١.

وجاءت هذه الآية بالأمر إلى المسلمين بذكره تعالى ومن أهم مصاديق الذكر تلاوة آيات القرآن، ومنها هذه الآية ليفيد الجمع بين الآية السابقة وهذه الآية الأمر الإلهي إلى المسلمين بتلاوة الآيات التي تلاها عليهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفيه أمانة على سلامة القرآن من التحريف، بتعاهد أجيال المسلمين التلاوة من حين تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لها،

ومن الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾^(١) وأسباب حفظ القرآن مبادرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم تلاوة الآيات حالما يفصل عنه الوحي، ودعوته لكتاب الوحي لكتابة ما أنزل الله، وحرص المسلمين على متابعة نزول الآيات وسؤال بعضهم بعضاً عما نزل من الوحي، فمن يتخلف يوماً أو ساعات عن الحضور عند النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يسأل الصحابة عما أنزل من القرآن، وتلك آية عقائدية وإيمانية لم تشهدها الأرض، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

وبين ذكر الله وتلاوة الآيات عموم وخصوص مطلق، فكل تلاوة هي ذكر لها وليس العكس، لذا فإن هذه الآية تتضمن الأمر بتلاوة الآيات، ومن الإعجاز في الأوامر الإلهية صيرورة الفعل العبادي إمتثال لأوامر عديدة، بإقامة الصلاة مثلاً إمتثالاً وطاعة لقوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾^(٣)، وتنطبق عليه الأطراف الثلاثة في هذه الآية من وجوه:

(١) سورة الحشر ٧.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة النساء ٧٧.

الأول: إتيان الصلاة ذكر متعدد لله عز وجل لا ينحصر بالقراءة وتلاوة الآيات، فكل جزء وركن من أركان الصلاة هو ذكر لله عز وجل، ومن الآيات أن الأمر بذكر الله في الآية جاء بصيغة الجمع (إذكروني) ويؤدي المسلمون الصلاة جماعة وفرادى في أوقات مخصوصة من الليل والنهار.

الثاني: أداء الصلاة أبهى معاني الشكر القولي والفعلية لله عز وجل.

الثالث: يدل أداء الصلاة على الإقرار بنعم الله عز وجل، وعدم الجحود بها.

وكما أن الأمر بذكر الله لم يتخلف عن تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الآيات وتعليمه المسلمين فإن ذكر الله عز وجل للمسلمين لم يتأخر عن ذكرهم له سبحانه، وفيه نعمة إضافية بتجدد أداء المسلمين للصلاة ويحتمل ذكر المسلمين لله عز وجل وجوهاً:

الأول: ذكر الله باللسان.

الثاني: ذكر الله عز وجل بالفعل كالعبادات البدنية.

الثالث: الذكر المتعدد والمركب من القول والفعل.

وجاءت الآية بالوجوه الثلاثة وإرادة المعنى الأعم للذكر، وفيه مندوحة وسعة، وشاهد على فضل الله عز وجل على العباد، بأن يتفضل بالأمر بعبادته وذكره، ثم يجعل مصاديق الإمثال متعددة وأكثر من أن تحصى، وكل فرد منها هو ذكر لله عز وجل، ومن فلسفة الذكر أن ليس مجرداً بل هو عنوان للجوء إلى الله والإستغاثة به، قال تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(١)، والصلة بين ذكر الله والخشوع على وجوه:

الأول: ذكر الله مقدمة وسبيل للخشوع لله عز وجل.

الثاني: الذكر ذاته خشوع وخضوع لله.

الثالث: الذكر رشفة من رشفات الخشوع لله عز وجل.

ترى لماذا لم تقل الآية (فأذكروني وأشكروا لي أذكركم) والجواب على وجوه:

الأول: جاء تقديم ذكر الله للمسلمين على شكرهم له لبيان فضل الله بنزول رحمته وفضله عليهم بذكرهم له، أما قيامهم بالشكر والثناء عليه فجزاؤه لا يعلمه إلا الله عز وجل.

الثاني: في الآية تخفيف ولطف بالمسلمين، فذكرهم الله سبب لنزول خير والرزق الكريم.

الثالث: الذكر من مصاديق شكر الله عز وجل.

الرابع: ذكر الله للمسلمين سبيل لتوجههم إلى شكره تعالى على النعم ومضامين الرحمة التي تنزل عليهم، ومصاديق ذكره تعالى لهم.

الخامس: الأمر الإلهي للمسلمين بذكره دعوة لشكره تعالى وفي التنزيل ﴿لَنْ شُكْرُكُمْ لَازِدٌكُمْ﴾^(١).

السادس: إن الله عز وجل هو العزيز الحكيم الذي يتفضل بالنعم الكثيرة ثم يجعلها مقدمة لشكر المسلمين له، وهو الذي يعطي الكثير بالقليل، فذكر المسلمين.

وجاء تقييد الشكر بأنه لله عز وجل لبيان أن النعم كلها من عنده تعالى، وهو القادر على كل شيء، وهذا التقييد وقاية من الشرك مطلقاً، والشرك

الخفي على نحو التعيين، ليكون المسلمون في مأمن منه، وهو من الشواهد على أنهم ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

ومن القوانين في الإرادة التكوينية أن الشكر سبب لدوام النعم ومضاعفتها، قال تعالى ﴿لَنْ شُكْرُكُمْ لَا يَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٢)، وهل التوفيق لذكر الله من هذه الزيادة الجواب نعم، فصحيح أن ذكر الله في الآية جاء على نحو الأمر إلا أنه رحمة ونعمة وسبب لفعل المسلمين والمسلمات الصالحات وإقتنائهم الحسنات،

ولم تذكر الآية متعلق وموضوع الشكر، وفيه آية من عند الله لكثرة وتعدد النعم الإلهية قال سبحانه ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(٣)، الإطلاق في الآية وعدم التعيين بنعمة مخصوصة لوجوه:

الأول: كل نعمة تستحق الشكر المتعدد.

الثاني: دعوة المسلمين إلى إستحضار النعم الإلهية على الفرد والجماعة.

الثالث: الشكر خير محض ونفع للمسلمين، والله عز وجل غني عن العالمين قال سبحانه ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾^(٤).

الرابع: الشكر دعوة للناس لدخول الإسلام، وهو شاهد على حسن سمت المسلمين وإخلاصهم العبادة لله، وجاءت الآية بأمرين متعاقبين هما ذكر الله وشكره ويحتمل فيها وجوه من جهة التكليف:

الأول: إرادة الوجوب في الذكر والشكر.

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة إبراهيم ٧.

(٣) سورة إبراهيم ٣٤.

(٤) سورة لقمان ١٢.

الثاني: إستحباب الذكر والشكر.

الثالث: وجوب الذكر وإستحباب الشكر.

الرابع: إستحباب الذكر ووجوب الشكر.

والصحيح هو الأول لحمل الأمر على الوجوب إلا مع القرينة الصارفة، وهي معدودة في المقام.

وأختتمت الآية بالنهي عن الجحود بالنعمة، والصلة بين أطراف الآية الثلاثة، الأمر بالذكر، والأمر بالشكر والنهي عن الكفر على وجوه:

الأول: الصلة بين الذكر والشكر، وفيها مسائل:

الأولى: إجتماع ذكر الله مع الإقرار بنعمته أمر حسن ذاتاً وعرضاً وأثراً.

الثانية: إجتماعهما وقاية من الذنوب والسيئات.

الثالثة: في الآية حث على الدعاء والمسألة مع الثناء على الله عز وجل.

الرابعة: إنقطاع المسلمين إلى ذكر الله عز وجل، بلحاظ أن الشكر من أفراد الذكر.

وجاء الأمر بالذكر ومعه وعد كريم بذكر الله للمسلمين، وعظيم الثواب على هذا الذكر.

الثاني: الصلة بين الذكر وعدم الكفران، وفيها مسائل:

الأولى: التحذير من الجحود.

الثانية: بيان طريق الوقاية والسلامة من كفران النعمة بذكر الله عز وجل.

الثالثة: تأكيد موضوعية الإعتراف بالنعم وعدم الجحود بها.

الرابعة: لما جاءت الآية السابقة بالإخبار بأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يعلم المسلمين الكتاب والحكمة، جاءت هذه الآية من مصاديق

تعليم الكتاب والحكمة، وهداية المسلمين إلى سبل الشكر لله عز وجل.

الخامسة: ذكر الله دليل على عدم الكفران بالنعم.

السادسة: الالتفات إلى وجوب عدم الكفران بالنعمة سبيل ومقدمة لذكر الله عز وجل.

الثالث: الصلة بين الشكر لله وعدم الكفران، وفيها مسائل:

الأولى: التوجه إلى الله بالشكر إقرار بالنعمة.

الثانية: بين الشكر لله والكفران تعناد وتناف، فما دام المسلم مشغولاً بذكر الله وشكره فهو غارق بالنعمة.

الثالثة: عدم الجحود بالنعمة سبيل لشكر الله وإدراك أنه واجب.

الرابعة: الشكر لله مصداق لعدم ستر النعمة.

ومن الإعجاز في الآية أن كل طرف من أطراف الآية حرز من العذاب، ووسيلة للنجاة في النشاطين، وكل واحد منها متصل في موضوعه بالآية السابقة وبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومرتشح عنها وعما فيها من البركات، لذا ابتدأت الآية بحرف الفاء الذي يفيد الترتيب المعنوي والذكرى، والتعقيب الذي ينفي التراخي والتباطئ في المعطوف بالنسبة لزمان وقوع وفعل المعطوف عليه، إذ تتضمن الآية الأمر بذكره تعالى في الحال وعند نزول الآيات ويعلم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين الكتاب والحكمة، وعلوم الغيب لقوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا

تَعْلَمُونَ﴾، ليكون هذا الذكر على وجوه:

الأول: إنه وسيلة لتلقي الكتاب والحكمة بالقبول والرضا.

الثاني: إنه مقدمة للإمثال لما في الكتاب والحكمة من الأوامر والنواهي، ومصداق له.

الثالث: الذكر حصانة من أسباب الشك والريب.

الرابع: إنه سلاح وواقية من أهل الجدال والنفاق، وتأتي الفاء للسببية بأن ما قبلها سبباً لما بعدها، فبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما فيها من الأحكام والمعجزات الباهرات سبب لذكر الله عز وجل.

التفسير

قوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾

الأولى: الذكر إستحضار الشيء في الذهن وهو خلاف الغفلة والنسيان كما في قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾^(١)، وموضوع الآية عدم الغفلة عن ذكره تعالى.

الثانية: قد يكون الذكر أعم من حضور المعنى في الذهن فهو يشمل القول ومنه قوله تعالى ﴿قَالُوا سَمِعْنَا قَتْلَ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾^(٢).

الثالثة: بين الذكر والخاطر عموم وخصوص مطلق، فكل خاطر هو ذكر بالنفس وليس العكس لأن الخاطر يمر بالبال والقلب سريعاً ومرة ويتغشاها الذكر مدة أطول وأبين وقد يكون باللسان.

الرابعة: المراد من الذكر في الآية الكريمة الوجهان معاً، الذكر في الذهن والذكر في القول، وهل يجزي أحدهما مطلقاً ودائماً الجواب: لا.

الخامسة: من العبادات ما هو جهري كصلاة الصبح والمغرب والعشاء، وبعض المناسك كالتلبية في الحج والعمرة فلا ينعقد الإحرام إلا بها، ويستحب للرجال الجهر بها دون النساء وهي على الأقوى ليك اللهم

(١) سورة الاعراف ٢٠٥.

(٢) سورة الأنبياء ٦٠.

لييك، لبيك لا شريك لك لبيك، ويستحب القول بعدها أن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

إن الحج نفسه من أحسن مصاديق الذكر القولي والعملي والجوارحي والإيقاع إلى الله عز وجل وهو واجب مع الإستطاعة على كل مكلف مرة واحدة في العمر، قال تعالى ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾^(١).

السادسة : في الآية أمر ووعد متلازمان، وفيه وجوه :

الأول : ذكرنا لله تعالى في الدنيا يكون سبباً لرحمته في الآخرة.

الثاني : إقامة الفرائض طريق للفضل الإلهي ونزول البركة.

الثالث : المواظبة على التسييح والذكر كي يصرف البلاء.

الرابع : التفكير بآيات الله تعالى وبديع خلقه سبيل لتوالي النعم.

الخامس : على منهج (القرآن يفسر بعضه بعضاً) قال تعالى ﴿

وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(٢).

السادس : ذكرنا لله تعالى إبتداء وطواعية وفي حال السعة والرخاء سبب

لذكره تعالى لنا في حال العسر والشدة، وفي كتاب الدعاء باب إسمه

إستحباب التقدم بالدعاء في الرخاء قبل نزول البلاء، وكرهه تأخيره وفيه

ثلاثة أحاديث.

السابع : الدعاء اذا كان معروفاً في حال الرخاء رفعته الملائكة وان لم

يكن معروفاً فاذا لجأ إليه العبد في حال الشدة تقول الملائكة صوت غير

معروف، وفيه حث على ملازمة الدعاء.

الثامن : ذكر في تفسير الآية: اذكروني بالدعاء أذكركم بالإجابة لقوله

(١) سورة البقرة ١٩٨.

(٢) سورة الأحزاب ٣٥.

تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١) ولكنه أخص من موضوع الآية وإن كان من من مصاديق الذكر.

التاسع : إن ذكر الله تعالى أعم من الإستجابة موضوعاً ومحمولاً.
العاشر : في الآية مندوحة وسعة ورحمة فمطلق الذكر منا أو صرف الطبيعة في الذكر يعني الإقتراب من الوعد الإلهي بذكره تعالى لنا وهو الواسع الكريم الذي يرزق بغير حساب، ويعطي الكثير بالقليل، فذكر قليل يسبب الثواب العظيم.

الحادي عشر : إستحضار تدوين وتوثيق الملائكة لأعمال بين آدم بعث لعمل الصالحات وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: "قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الملك ينزل بالصحيفة أول النهار وأول الليل يكتب فيها عمل ابن آدم فاعملوا في أولها خيراً وفي آخرها خيراً يغفر لكم ما بين ذلك إن شاء الله، فإن الله قال ﴿ادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ على نحو الإطلاق في المأمور والموعود به.

الثاني عشر : للقواعد الكلية في سعة فضله تعالى يمكن حمل الأول وهو ذكرنا له تعالى على كفاية طرف القلة، وحمل الثاني وهو ذكره سبحانه لنا على مضاعفة الفضل والإحسان.

الثالث عشر : ما في الآية من الوعد لا ينحصر بالحياة الدنيا بل يشمل الدنيا والآخرة.

الرابع عشر : ذكر الله سبحانه متعدد الوجوه والجوانب والبركة، فيعني الرحمة والعفو والرزق الكريم والإعانة على الإقامة على منازل الذكر وصرف البلاء الذي يشغلنا عن الذكر والتسبيح.

الخامس عشر : ذكر الله تعالى واقية وحصانة من المعصية والفتن، وحرز

من إغواء إبليس.

السادس عشر: إرتقاء العبد أثناء تلبسه بالذكر إلى منازل عباد الله المخلصين.

ويدل إبتداء الآية بالفاء على لزوم عدم وجود مهلة وفترة بين بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما فيها من النعم وبين ذكر المسلمين لله، وفيه حث للمسلمين على المبادرة إلى أداء الصلاة والفرائض الأخرى، ويحتمل ذكر الله للمسلمين بلحاظ الزمان وجهين:

الأول: تعقب ذكر الله للمسلمين عند ذكرهم الله عز وجل، فما له يذكرونه فإنه يذكرهم.

الثاني: إرادة المعنى الأعم وأن الذكر الواحد من المسلمين سبب لذكر متصل من الله الذي يعطي الكثير بالقليل، وإن ذكر الله عز وجل هو رحمته وعظيم فضله وإحسانه،

ولا تعارض بين الوجهين، وتبين الآية حاجة الناس لرحمة الله، وفوز المسلمين بأبهى مصاديقها وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

بحث كلامي

تسبح لله يعني تنزهه وتثني عليه وتقده عزا اسمه، وكلمة "سبحان" مصدر بمعنى سبح الله تسبيحا، وقد جاءت في القرآن في أكثر من أربعين مورداً وتتضمن إرشاداً للعقول لسبل الهداية، وتقويم مسار تفكير البشر ببيان عظيم قدرة الله، وليدفع عن أوهامهم ما لا يليق به من الصفات، كما أنها باب للأمن والتوكل عليه سبحانه، وإخلاص العبادة له، ووجه من وجوه الإحتراز بقوته.

(١) سورة آل عمران ١١٠.

لقد أثنى الله عز وجل على الملائكة لمواظبتهم على صفة التسبيح، قال تعالى ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾^(١)، والتسبيح سلاح الأنبياء تلقاه أهل البيت والصحابة بالرضا والقبول، وكانت الزهراء مثلاً دائبة على التسبيح ومواظبة عليه في الليل والنهار بما أدبها به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذ جعلها تدرك ان التسبيح والذكر والعبادة هي الوظائف الأساسية للإنسان في وجوده على سطح الأرض.

عن ابي الورد بن ثمامة عن علي عليه السلام: "انه قال لرجل من بني سعد الا أحدثك عني وعن فاطمة أنها كانت عندي وكانت من أحب أهله إليه - أي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - وأنها إستقت بالقربة حتى أثر في صدرها وطحنت الرّحى^(٢) حتى مجّلت يداها^(٣)، وكسحت البيت حتى اغبرت ثيابها وأوقدت النار تحت القدر حتى دكنت ثيابها فأصابها من ذلك ضرر شديد، فقلت لها لو أتيت اباك فسألتيه خادماً يكفيك مر ما أنت فيه من هذا العمل، فأنت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوجدت عنده حداًثاً فاستحيت وإنصرفت.

قال: فعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها جاءت لحاجة فغدا علينا ونحن في لفاعنا، فقال السلام عليكم يا أهل اللّفاع^(٤) فسكتنا واستحيينا لمكاننا، ثم قال: السلام عليكم فسكتنا، ثم قال: السلام عليكم فخشينا ان

(١) سورة الأنبياء ٢٠.

(٢) الرّحى: الحجر الذي كان يستعمل آلة للطحن المنزلي.

(٣) مجّلت يده: صلبت وثخن جلدها وظهر فيها ما يشبه البشّر من العمل ، وفي لسان العرب لابن منظور استشهد في مادة مجل بمحدث فاطمة وقال: أنها شكت إلى علي عليهما السلام مجّلت يديها من الطحن، كما قال في باب دكن: وفي حديث فاطمة رضوان الله عليها أوقدت القدر حتى دكنت ثيابها، دكن الثوب: إذا إتسخ واغبر لونه يدكن دكناً.

(٤) اللّفاع: ما التحف به الإنسان وإشتمل به وجلل جسده من لحاف أو ثوب أو رداء.

لم نرد عليه ان ينصرف، فقلت وعليك السلام يا رسول الله، ادخل فلم يعد ان جلس عند رؤوسنا فقال: يا فاطمة ما كانت حاجتك أمس عند محمد، فخشينا إن لم نجبه أن يقوم.

قال: فاخرجت رأسي فقلت: إني والله أخبرك يا رسول الله أنها إستقت بالقربه حتى أثر في صدرها وجرت بالرحى حتى مجلت يداها وكسحت بالبيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتى دكنت ثيابها، فقلت لها: لو أتيت أباك فسألتيه خادماً يكفيك مر ما انت فيه من هذا العمل، قال: أفلا أعلمكما ما هو خير لكما من الخادم إذا أخذتما منامكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين وإحمدا ثلاثاً وثلاثين وكبرا أربعاً وثلاثين، قال: فاخرجت فاطمة عليها السلام رأسها فقالت: رضيت عن الله ورسوله ورضيت عن الله ورسوله ورضيت عن الله ورسوله^(١).

وهذا التعليم من مصاديق قوله تعالى في الآية السابقة ﴿وَيُعَلِّمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(٢).

لقد تطلعت الزهراء عليها السلام إلى أبيها صلى الله عليه وآله وسلم ليتحفها بخادم مما تأتي به سرايا الدفاع من الأسرى لتعينها على حوائج المنزل تخفيفاً عنها عليها السلام ولتتفرغ للإشتغال بذكر الله، ولكنه صلى الله عليه وآله وسلم إستجاب لها في وجه آخر غير الذي سألت لما يعلمه من مواطن الأجر والثواب وما فيه خير الدنيا والآخرة، وعلمها دعاء يصلح أن يكون كنزاً وذخيرة بل سلاحاً وعنصر إيمان يملأ الجوانح والأركان ساعات النهار ويكون حرزاً في الليل وعند غلبة النوم، ومدرسة عقائدية يهتدي بانوارها المسلمون والمسلمات.

(١) البحار ٨٢/٤٣.

(٢) سورة البقرة ١٥١.

وقد روي في الصحيحين: أن علياً قال إشتكي مما أئدى بالقرب، فقالت فاطمة: والله إني أشتكي يدي مما أطحن بالرحى، وكان عند النبي أسارى فأمرها أن تطلب من النبي صلى الله عليه وآله وسلم خادماً فدخلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسلمت عليه ورجعت فقال أمير المؤمنين: مالك، قالت: والله ما إستطعت أن أكلم رسول الله من هيئته، فانطلق علي معها إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال لهما: لقد جاء بكما حاجة، فقال علي: مجازاتهما فقال: لا ولكنني أبيعهن وأنفق أثمانهم على أهل الصفة والصفة سقيفة عند مدخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسكنها الغرباء والفقراء من المهاجرين الذين ليس لهم مساكن أو مال، وعلمها النبي صلى الله عليه وآله وسلم تسبيحة الزهراء .

قوله تعالى ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾

الأولى : جاء الأمر بذكر وشكر الله سبحانه بعد ذكر نعمة النبوة ونزول القرآن مما يدل على تمييزها كنعمة ورحمة لأنها جامعة للإرادة التكوينية والتشريعية.

الثانية : أمر الله سبحانه بذكره شرف خص به المسلمين.

الثالثة : تدل الآية على رفعة الإسلام وحسن الإستجابة عند المسلمين بآية واحدة عظمت تتفرع عنها الآيات ، ليحسن المسلمون الشكر لله وتعاهد ضروب النعم .

الرابعة : جعلت الآية الكفر نقيض الشكر، ولا واسطة بينهما لعمومات قواعد الصلة بين الخالق والمخلوق، والمعبود والعبد.

الخامسة : الآية وإن كان فيها الأمر بالذكر والشكر لله تعالى إلا أن هذا الأمر جزء من الفضل الإلهي لما فيه من الجزاء والثواب ولوجوبه في ذاته عقلاً وشرعاً.

السادسة : تجزي كلمة (الحمد لله) في الشكر على النعمة، وتتجدد بتوالي

ولاستحداث النعم.

السابعة : تحذر وتنتهي الآية عن الجحود وعدم شكر النعمة.

الثامنة : هل من ملازمة بين الذكر والشكر أم أن الشكر متمم للذكر الجواب هو صحة الأمرين معاً، والشكر أخص وفيه إقرار بالنعم والشكر تدوم النعم وتتوالى لقوله تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(١).

التاسعة : ومن ثواب الشكر في الدنيا أنه طريق إلى الزيادة في النعم كما وكيفاً وزماناً.

العاشرة : إن الأمر بالذكر والشكر وحده يستحق الشكر، لأنه نوع إكرام وتشريف وتأديب من الله تعالى للمسلمين.

الحادية عشرة : مما عليه إجماع الملمين أن العبد يكون أكثر حاجة إلى رحمة الله تعالى في الآخرة، وليس من وصف تقييدي لذكره تعالى للعبد يومئذ وما يتضمنه من الرحمة والرفقة.

وأصل الشكر الأظهار والبيان، وقيل هو مقلوب كشر كما يقال: والشكر والحمد والثناء نظائر وقيل (وبين الحمد والشكر فرق يظهر بالنقيض، فنقيض الشكر الكفر ونقيض الحمد الذم)^(٢).

ولكن الفرق بينهما بالذات أيضاً ولا ينحصر بالتباين بالنقيض لأنه تعريف بالواسطة .

وقال اللحياني : الحمد الشكر فلم يفرق بينهما الأخفش الحمد لله الشكر لله الشكر لله)^(٣).

بحث عرفاني

(١) سورة إبراهيم ٧.

(٢) ابن سيده / المخصص ٢٠٧/٤.

(٣) لسان العرب ١٥٥/٣.

الشكر حال تتقوم بثلاثة أمور:

الأول: معرفة العبد حقيقة نفسه، لذا سميت معرفة النفس بأنها أم الفضائل.

الثاني: معرفة المنعم وإن الله تعالى هو وحده المنعم وغيره وسائط وأسباب بأذنه وعلمه وقد ثبت في المعرفة الإلهية أن لا مؤثر في الوجود إلا الله وتلك حقيقة أساسية وعلم فطري وطريق إلى تقديسه تعالى فيتفرع عنها إدراك حقيقة عظيم قدرته تعالى وإنفراده بالفعل.

الثالث: معرفة مصاديق النعمة وأفرادها سواء كانت نعمة بدنية أو دنيوية أو دينية وعد الشكر من مقامات السالكين، وكل مقام لهم يتألف من علم وهو الأصل ليعرف به المنعم وموضوع ومقدار الإنعام، ويتفرع عنه الحال وهو السعادة التي تغمره بهذا الإنعام، ويترشح عنه العلم بما يكون مناسباً لحال الحب والإمتنان للمنعم وبما يعني الإقرار بالنعمة.

من أهم وجوه العمل الشكر على النعمة باللسان أو الجوارح عند رؤية العبد النعمة عليه، أو الإكتفاء بمرتبة أدنى وهي الشكر بالقلب المقترن بحال الخشوع والفرح بما تغشاه من النعم ليعرف علوم التوحيد وتنزيه واجب الوجود عما لا يليق به من الصفات.

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ الآية ١٥٣.

الإعراب واللغة

يا: أداة نداء، أي: نادى نكرة مبني على الضم في محل نصب، ها: حرف تنبيه، الذين: اسم موصول في محل نصب بدل من أي، آمنوا: فعل ماض مبني على الضم، الواو: فاعل.

استعينوا: فعل امر مبني على حذف النون، الواو: فاعل.
 بالصبر: جار ومجرور متعلق باستعينوا، والصلاة: الواو: حرف عطف،
 الصلاة: معطوف على الصبر، مجرور مثله.
 إن الله: إن: حرف مشبه بالفعل للتوكيد ولفظ الجلالة إسم (إن) منصوب،
 مع الصابرين: مع: ظرف مكان مضاف، الصابرين: مضاف إليه.

في سياق الآيات

بعد ان بينت الآيات السابقة فضل الله تعالى على المسلمين بالرسالة
 وبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للناس والأمر بذكره تعالى،
 جاءت هذه الآية بالأمر بأفعال عبادية مطلوبة في ذاتها لتكون مقدمة وتمهيداً
 لغيرها.

الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة على شعبتين:

الأولى: الصلة بين هذه الآية والآيات السابقة على وجوه:

الأول: الصلة بين آية (يعرفونه) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: دعوة المسلمين للتحلي بالصبر وإتخاذ سلاحاً في مواجهة جحود
 فريق من أهل الكتاب بنبو محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يمنع المسلمين
 من أداء الصلاة.

الثانية: كتمان الآخرين للبشارات بنبو محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا
 يمنع المسلمين من أداء الصلاة.

الثالثة: تجلي الحقائق بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من
 المعجزات والبرهين التي تدل على صدق نبوته.

الرابعة: الصبر واقية مما يشير به أهل الجحود من الشك والريب.

الثاني: الصلة بين آية (الحق من ربك) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: الصبر سلاح ضد الشك والإفتراء.

الثانية: أداء المسلمين الصلاة دليل على تنزههم من الشك والريب.

الثالثة: إبتدأت هذه الآية بالثناء على المسلمين ونعتهم بصفة الإيمان، وجاءت الآية أعلاه بالتحذير من الشك والإفتراء، ويفيد الجمع بينهما سلامة المسلمين من الشك للتباين والتنافي بينهما.

الثالث: الصلة بين آية (ولكل وجهة) ^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: يستلزم التوجه إلى الكعبة قبله الإستعانة بالصبر لما فيه من النسخ والتغيير، ومخالفة الرغبة بالبقاء على ذات الشيء خصوصاً وأن المسلمين كانوا يستقبلون بيت المقدس وهو قبله لشطر من أهل الكتاب.

الثانية: إتحاد موضوع الآيتين إذ جاءت هذه الآية بالأمر بالإستعانة بالصلاة، وتضمنت الآية أعلاه ذكر القبلة التي هي شرط الصلاة.

الثالثة: تضمنت الآية أعلاه الأمر بالمبادرة إلى الطاعات، وفعل الخيرات، وجاءت هذه الآية بالأمر بالصبر والصلاة والإستعانة بهما في المسابقة في الخيرات، وكل من الصبر والصلاة خير محض .

ولم تبدأ الآية بحرف عطف يربط موضوعها وكلماتها مع الآية السابقة إلا أن صلتها مع الآيات السابقة إلا أن صلتها مع الآيات السابقة تتجلى في مضامينها القدسية وما فيها من الأوامر المتصلة مع ما في الآية السابقة من الأمر بذكر الله والتوجه إليه بالشكر والثناء .

ولما أختتمت الآية السابقة بالزجر عن الجحود بنعمة الله عز وجل جاءت هذه الآية بالثناء على المسلمين بلغة الخطاب ووصفهم بالمؤمنين، وفيه شهادة

(١) الآية ١٤٧.

(٢) الآية ١٤٨.

من عند الله بأنهم لم ولن يكفروا بنعم الله عز وجل، وهذه الآية مقدمة لمضامين الآية التالية.

الرابعة: تتضمن الآية أعلاه التذكير بالمعاد، وجاءت هذه الآية بالأمر بالإستعانة بالصبر والصلاة وهما طريق ووسيلة للنجاة يوم القيامة.

الخامسة: إتحاد لغة الخطاب في الآيتين، وتوجههما إلى المسلمين والمسلمات.

السادسة: من اللطف الإلهي بالعباد أن يأمر الله عز وجل بالفعل العبادي، ثم يأتي بما يساعدهم على الإمتثال.

الرابع: الصلة بين آية (ومن حيث خرجت) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: إستقبال البيت الحرام حق من عند الله، وكذا الإستعانة بالصبر والصلاة.

الثانية: يفيد الجمع بين خاتمة الآية أعلاه، والأمر الوارد في هذه الآية بشارة المسلمين بالأجر والثواب على حسن الصبر وأداء الصلاة والفرائض الأخرى.

الثالثة: تأكيد شرط القبلة في الصلاة، وأنه حق من عند الله، وتأكيد التقيد به.

الخامس: الصلة بين آية (وحيث ما كنتم) ^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: تأكيد الإستعانة بالصبر في تغيير القبلة.

الثانية: بيان موضوعية تحويل القبلة ولزوم مبادرة المسلمين إلى الإمتثال.

(١) الآية ١٤٩.

(٢) الآية ١٥٠.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين أن إستقبال البيت الحرام نعمة نالها المسلمون دون غيرهم من الأمم، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

الرابعة: تتكون الصلاة من أركان كتكبيرة الإحرام والركوع والسجدين، وأجزاء كالقراءة وجاءت هذه الآية للإستعانة بها، لتكون الإستعانة إنحلالية بذات الصلاة وبأجزائها والإستقبال منها،

وبالإسناد البراء بن عازب قال قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ فَصَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا ثُمَّ وَجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ فَمَرَّ رَجُلٌ قَدْ كَانَ صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ وَجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَانْحَرَفُوا إِلَى الْكَعْبَةِ^(٢)، وعن الإمام الصادق عليه السلام: لا صلاة إلا إلى القبلة^(٣).

الخامسة: دعوة المسلمين للصبر في مواجهة أذى الذين إستخفوا بهم لتحولهم لإستقبال البيت الحرام، وفي التنزيل ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَيْهِمْ﴾^(٤).

السادسة: لقد أراد الله عز وجل للمسلمين بالإستعانة بالصبر والصلاة نيل مراتب الحلم في الإعراض عن السفهاء وجذبهم للإسلام، فمن الآيات في الدعوة الإسلامية عدم الكفاية بالإعراض عن أهل الجهالة والضلالة والريب،

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سنن النسائي ٦١/٢.

(٣) الوسائل ١٠٦/١٧.

(٤) سورة البقرة ١٤٢.

ويقوم المسلمون بدعوتهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة، والدعوة الصريحة والصامته .

ومن الآيات أن الصبر والصلاة والصيام تنطبق على مصاديق الدعوة أعلاه وإن تباينت في ماهيتها إلا أن كلاً من الصبر والصلاة يصدقان عليها.

السابعة: جاءت الآية أعلاه بأمر المسلمين بعدم الخشية أو الخوف من أهل السفاهة والضلالة في موضوع القبلة وتحويلها، وجاءت الآية محل البحث بذكر سلاحين في مواجهتهم وهما الصبر والصلاة.

الثامنة: الإستعانة بالصبر والصلاة طريق للفوز بتمام النعمة وكمال الدين.

التاسعة: لما أختتمت آية (وحيث ما كنتم) بقوله تعالى (لعلكم تهتدون) جاءت هذه الآية بأبهى مصاديق الهداية وهما الصبر والصلاة.

السادس: الصلة بين آية (كما أرسلنا) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم آمن المسلمون ونالوا مرتبة تلقي الخطاب الإلهي الشريف ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الثانية: إتحاد الآيتين بلغة الخطاب فكل منهما تتوجه إلى المسلمين.

الثالثة: من الآيات التي تلاها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على المسلمين الآية محل البحث وما فيها من الحجج ، فهي من حيث النظم القرآني آية، ومن جهة مضامينها القدسية آيات ودلالات باهرات على إعجاز القرآن، وما فيه من الأوامر التي تهدي المسلمين إلى سبل الرشاد والفلاح وأسباب النجاة في النشاطين بإتخاذ الصبر رداء، والصلاة منسكاً وعملاً.

الرابعة: في الصبر والصلاة تزكية وتطهير للنفوس والمجتمعات.

الخامسة: من الكتاب الآية محل البحث، ومن الحكمة التحلي بالصبر وأداء الصلاة ، لما في الصبر من التنزه عن الجزع والفرع، وما في الصلاة من أدب العبودية والإقرار بنزول القرآن من عند الله عز وجل.

السادسة: يفيد الجمع بين الآيتين بيان مصاديق الكتاب والحكمة التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

السابعة: جاء الإسلام بآية مركبة من وجوه:

الأول: التحلي بالصبر.

الثاني: المواظبة على أداء الصلاة اليومية.

الثالث: الإستعانة بالصبر.

الرابع: الإستعانة بالصلاة.

الخامس: الإستعانة بالصبر والصلاة معاً.

فقد يكون المسلم في حال رخاء وسكينة لم يداهم فيها أمر مفاجئ من زيادة أو نقصان فتأتي الصلاة للإستعانة بها لدوام النعم وعدم نقصانها، ولسؤال المزيد من النعم، وفي ذات الصلاة صبر وتحمل.

السابع: الصلة بين الآية السابقة آية (فاذكروني)^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: الإقامة على ذكر الله من مصاديق الصبر على طاعة الله.

الثانية: الصبر عن المعاصي مقدمة لذكر الله.

الثالثة: من أحسن وأبهى مصاديق ذكر الله إقامة الصلاة.

الرابعة: الإستعانة بالصبر والصلاة من ذكر الله، لما فيها من اللجوء إلى الله والإقرار بأنه على كل شيء قدير ورجاء الرحمة والخير منه سبحانه.

الخامسة: من الشكر لله عز وجل أداء الصلاة والصيام، والتحلي بالصبر.

السادسة: لما جاءت الآية السابقة بالإخبار عن ذكر الله عز وجل للمسلمين جزاء لذكركم له، جاءت هذه الآية بالأمر بالإستعانة بالصبر والصلاة، وفيه يجتمع الأمران:

الأول: ذكر المسلمين لله عز وجل.

الثاني: ذكر الله عز وجل للمسلمين بأمره لهم بالعبادة، وترشح الثواب عنها.

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين هذه الآية وآية (بل أحياء) ^(١)، وفيها مسائل:

الأولى: إتحاد لغة الخطاب في الآيتين، وتوجهها إلى المسلمين.

الثانية: جاءت هذه الآية بالأمر والندب إلى فعل وهو الإستعانة بالصبر والصلاة، وتضمنت الآية التالية الزجر عن قول وهو نعت الشهداء بالموتى، وهذا الزجر إكرام للمؤمنين الأحياء والشهداء.

الثالثة: إبتدأت الآية التالية بحرف العطف (الواو) (ولا تقولوا) مما يدل على التداخل الموضوعي بين الآيتين.

الرابعة: القتل في سبيل الله أسمى مصاديق الصبر موضوعاً وحكماً.

الخامسة: جاءت الآية التالية بالإخبار عن المنزلة الرفيعة للذين قتلوا في سبيل الله مما يدل على أن حياة الشهداء في الآخرة من عمومات خاتمة الآية السابقة ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

السادسة: يفيد الجمع بين الآيتين حاجة المجاهدين إلى الصبر في سوح القتال، قال تعالى ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية (ولنبلونكم) ^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى: يفيد الجمع بين الآيتين الحاجة إلى الصبر في الأمور التالية:

الأول: نزول الخوف بالمسلمين، وعداوة المشركين، وتهديدهم للمؤمنين.

(١) الآية ١٥٤.

(٢) الآية ١٥٥.

الثاني: تعرض المسلمين لنقص المؤون والجوع والقحط، والجذب، وما يسببه الإنشغال بالجهاد عن الكسب والمعاش.

الثالث: نقص الأموال والنقود وهلاك المواشي.

الرابع: وقوع القتل في المسلمين في المعارك والحروب.

الخامس: قلة الربيع ونقص الثمرات.

الثانية: بيان منافع الصبر في الدنيا والآخرة.

الثالثة: إتحاد موضوع خاتمتي الآيتين ومجيء الآية أعلاه بتفسير وبيان هذه الآية.

الرابعة: عدم وجود تعارض بين الإيمان والإبتلاء بأسباب الأذى.

الخامسة: يفيد الجمع بين الآيتين حاجة المسلمين للإستعانة بالصبر والصلاة.

السادسة: تعلق البشارة بالمؤمنين الصابرين، إذ جاءت هذه الآية بالخطاب

بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وجاءت الآية أعلاه بالأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ببشارة الصابرين.

الثالث: الصلة بين هذه الآية وآية (إذا أصابتهم) ^(١)، وفيها مسائل:

الأولى: من أبهى معاني الصبر، هو الصبر عند المصيبة، وتفضل الله عز وجل

وأمر بالإستعانة بالصبر في الأحوال مطلقاً، ومنها حال المصيبة.

الثانية: من مصاديق الصبر قول ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين دعوة المسلمين باللجوء إلى الصلاة وذكر الله

عند المصيبة.

الرابعة: إنفراد المسلمين باللجوء إلى الإسترجاع والصبر والعبادة عند

المصيبة، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

الخامسة: البشارة بالمدد واللفظ الإلهي عند تلقي المصيبة بالصبر والإسترجاع وهو من مصاديق خاتمة هذه الآية (أن الله مع الصابرين).
السادسة: عدم مغادرة البصيرة والحكمة للمسلم عند المصيبة، لما في اللجوء للإسترجاع من السكينة.

الرابع: الصلة بين هذه الآية وآية (أولئك عليهم صلوات) ^(١)، وفيها مسائل:
الأولى: تعلق موضوع الآيتين بالمسلمين.

الثانية: بلحاظ الجمع بين الآيتين، تتضمن الآية أعلاه أموراً:
الأول: بيان منافع الصبر والصلاة.

الثاني: الترغيب بالصبر عند المصيبة وفي حال الشدة.

الثالث: إرتقاء المسلمين في مراتب الكمالات الإنسانية.

الرابع: تعدد الفوائد والمنافع الدنيوية والآخوية للصبر والصوم.

الخامس: بيان وتوكيد مصاديق خاتمة هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

السادس: إستدامة الحياة الدنيا بمواظبة المسلمين على عبادة الله في الأحوال المتباينة، ومنها حال الشدة والمصيبة.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين أن المسلمين الصابرين هم المهتدون.

الرابعة: تفقه المسلمين في الدين، ومعرفة حقيقة وهي بلوغ مراتب الهداية بالصبر والصلاة والإستعانة بهما في التغلب على المصيبة وآثارها.

إعجاز الآية

الأولى: الإستعانة تنحصر بالله تعالى ، فامر سبحانه بالإستعانة بالصبر والصلاة يفتح آفاقاً من العلم.

الثانية: تظهر الآية منزلة العبادات وإداء الفرائض عنده تعالى واحتسابها واسطة للإستعانة وتوسلاً وتضرعاً.

الثالثة : تنبأ الآية ما يواجهه الإسلام والمسلمون من المشاق والتعدي.

إبتدأت الآية بالثناء على المسلمين بوصفهم بصيغة الإيمان، وفيه دعوة لهم للتقيد والإمتثال للأمر الإلهي الذي تتضمنه الآية الكريمة، فمن يكون مؤقناً عليه أن يتحلى بالصبر، ويبادر إلى أداء الصلاة، وجاء الأمر في الآية بالإستعانة لتكون موضوعاً عقائدياً وبيانياً لحقيقة وهي أن العبادات مطلوبة بذاتها، وهي وسيلة لبلوغ غايات ومقاصد حميدة أخرى.

ومن إعجاز الآية الكريمة أن العبادات ذاتها موضوع للإستعانة وقضاء الحوائج، فيأتي المسلم بالصلاة كواجب عيني، ثم تأتي هذه الآية لتدل على قانون في الإرادة التكوينية وهو أن منافع الواجب حالة وأجلة ومنها الإستعانة بالواجب العبادي وإتحاذه عضداً وبلغه، وهو من أسرار إختصاص وإبتداء هذه الآية بالخطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بلحاظ أن الإستعانة تركز على الإيمان وترشح عنه، بينما لم يرد هذا الخطاب في موضوع الإستعانة في سورة الفاتحة بل ورد على نحو الإخبار والإقرار ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، مما يدل على أن المسلمين أخلصوا العبادة لله، وفوضوا أمورهم إليه واستعانوا به في السراء والضراء فهداهم إلى الإستعانة بالعبادات لتكون فرع الإستعانة به وفي طولها، وبين الإستعانتين عموم وخصوص مطلق .

فكل إستعانة بالعبادات هي إستعانة بالله، ووسيلة للتقرب إليه سبحانه، وباب للتفقه في الدين والإرتقاء في المعارف الإلهية، ورؤية الآيات والنعم التي تأتي مع الصبر والصلاة، والبلاء الذي يصرف بالإنقطاع إلى العبادة، والإستعانة في الآية متعددة من وجوه:

الأول: الإستعانة بالصبر.

الثاني: الإستعانة بالصلاة.

الثالث: الإستعانة بالصبر والصلاة.

الرابع: الإستعانة بالصبر للتوفيق لأداء الصلاة.

الخامس: الإستعانة بالصلاة للتوفيق للتحلي بالصبر وجعله ملكة دائمة.
فصحيح أن الصلاة جاءت معطوفة على الصبر في الآية موضوع الإستعانة فيها، إلا أنه لا يمنع من إتخاذ كل من الصبر والصلاة وسيلة وبلغة للثاني، وهو من الأسرار في مضامين الآية القرآنية، وإحاطتها باللامحدود من المعاني والوقائع والحوادث، فالصبر عون ودعاء نفساني وجسدي لأداء الصلاة، والصلاة تنمية لملكة الصبر، وتعاهد لها.

ومن إعجاز الآية ما يترشح من وصف المسلمين في بدايتها بالإيمان، وحاجة المقام لهذا الوصف في جذب المسلمين لمنازل الصبر والصلاة بالثناء عليهم، وهو شاهد على أنهم ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، بتقريب أن مدحهم والثناء عليهم بصفة الإيمان يجعلهم يتسابقون في الإمتثال للأوامر الإلهية الواردة في الآية الكريمة .

وقدمت الآية الصبر على الصلاة بلحاظ أنها مرآة الإيمان مما يدل على موضوعية الصبر ومدرسة الصيام والإستعانة بهما في أداء العبادات، وليكون الصبر سبباً ومادة للخشوع ، ليعشق المسلمون الصلاة ويتنظرون كل فريضة بعد الأخرى بشوق ليأتي الفرج والنصر الذي تدل عليه خاتمة الآية (ان الله مع الصابرين).

ويمكن تسمية هذه الآية آية (استعينوا).

وقد جاء هذا اللفظ ثلاث مرات في القرآن مرة بذات المعنى ولكن مع تقدم حرف العطف الواو ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾^(٢)، ومرة بالإستعانة

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) الآية ٤٥.

بِاللَّهِ ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾^(١).

الآية سلاح

تبقى هذه الآية منهجاً تعبدياً و اخلاقياً يومياً للمسلم يساعده في المساهمة الجادة في تثبيت اركان الإسلام.

وهذه الآية مدد وسلاح من وجوه:

الأول: تتضمن الآية سلاح الإستعانة، وتهدي المسلمين إلى الإنتفاع من العبادات وإتخاذها واقية وحرزاً، ويكرر كل مسلم ومسلمة بشوق ورغبة قوله تعالى ﴿إِنَّا كَنَعِدُ وَإِنَّا كَنَسْتَعِينُ﴾^(٢)، عدم مرات في اليوم، لتأتي هذه الآية نافلة وفضلاً من الله في موضوع الإستعانة.

الثاني: الصبر سلاح وحرز من الزلل واليأس والإحباط.

الثالث: الصلاة سلاح لقهر النفس الشهوية والغضبية، وواقية من الشرك والضلالة، وأسباب الشك والريب.

الرابع: الصبر والصلاة مجتمعين عون وسلاح لبلوغ الغايات الحميدة، وسبيل للنجاة والنجاح .

وهل نعت المسلمين بصيغة الإيمان بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، سلاح، الجواب نعم، وهو عون ومدد يستعان به لتنمية ملكة الصبر، وتعاهد الصلاة في حال الرخاء والشدة وإتخاذها وسيلة لبلوغ مراتب الخشوع والخضوع لله عز وجل.

مفهوم الآية

(١) سورة الأعراف ١٢٨.

(٢) سورة الفاتحة ٥.

يعتبر الصبر علم الأخلاق الصغير، وهو من أبهى ركائز العقيدة الإسلامية وآلة للثبات على الإسلام ونشره في ربوع الأرض، انه سلاح ينفرد به المسلمون وقد يعجز الآخرون عن مواجهته .

فترى شطرا من الناس يجتهدون في اختراع احدث الأسلحة ويهيئون شتى الوسائل لتدارك أسوء الإحتمالات، ولكنهم لم يدركوا بعد فلسفة الصبر في الإسلام وعدم امكان قهرها والتغلب عليها، انها ارادة وعزيمة وقدرة على التحمل ومواجهة المشاق وتطرد عن النفس الجزع والفرع عند الشدة والمصيبة مما يكون مقدمة للوثوب والإنطلاق نحو الأمام وتجاوز المحن والحيف وانتهاز الفرص لتحقيق الغايات الحميدة، ولا تتعارض مدرسة الصبر في الإسلام مع تهيئة وسائل الدفاع ، قال تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾^(١).

قد جاء اقتران الصلاة بالصبر في موضعين وهما في سورة البقرة ولكل منهما دلالات بحسب اللحاظ والسياق والمفهوم بالإضافة الى المعاني المشتركة بينهما .

ومن منافع الإستعانة بالصلاة تعاهدها وحفظها وتثبيت القبلة الى البيت الحرام والإعراض عن اهل الجدل والخصومة، وخاتمة الآية حث على اجتناب الجزع والعجلة ومنع من ديب آفة الملل الى النفس وما تبعثه من السأم والكسل وتسببه من القنوط والخسران.

والآية في مفهومها مدرسة اخلاقية وتربوية واصلاحية تبعث الفرع والخوف في قلوب اعداء الإسلام سواء بالكشف والدلالة اللذين يتضمنها

(١) سورة الأنفال ٦٠.

الأمر أو بالتأثير والعلية اللذين يترشحان عن امثال المسلمين للأمر الوارد في الآية.

وجاءت الآية بصفة الإيمان لإكرام المسلمين ، ولأن الصبر مرتبة لا يقدر عليها الا من امتحن الله قلبه بالإيمان ورزقه الهداية، والآية بشارة المدد الغيبي والعون الإلهي للمسلمين في صبرهم سواء بتلقي اذى الكفار أو بالصبر على العبادات وما فيها من المشقة والتكليف أو بالصبر عند المصيبة. وتلازم الحاجة عالم الإمكان، والإنسان من الممكنات، فهو محتاج دائماً، وجاءت هذه الآية ليختص المسلمون بنعمة عظيمة في باب الإستعانة وقضاء الحوائج، والوقاية من الآفات وأسباب الهلكات، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، وأسباب تعاهد هذه المرتبة السامية، وتلك آية في اللطف الإلهي بأن يتفضل الله عز وجل على المؤمنين بالمدد والعون الذي يجعلهم يتعاهدون قانون تفضيلهم إلى يوم القيامة، وفيه دعوة للناس لمحاكاة المسلمين والإقتداء بهم.

إن إبتداء الآية بالخطاب بصفة الإيمان تعريض بغير المؤمنين، ودعوة لهم للحقوق بالمسلمين، وفيه شاهد على أن المسلمين هم الذين يستطيعون الصبر وأداء الصلاة وإتخاذهما عوناً وسلاحاً، ولو قام غير المسلم بالصبر فهل يستطيع أن يستعين به، الجواب هناك تباين موضوعي في الصبر إذ أن صبر المسلم طاعة لله عز وجل وإمثالاً لأمره، بالإضافة إلى أن العبادة ذاتها صبر وهي طريق وسبيل إلى الصبر.

وتدعو الآية المسلمين إلى عدم الجزع وإجتنب اليأس والقنوط، ومن مفاهيم الآية بعث الفرع والخوف في قلوب أعداء الإسلام لأن المسلمين أمة

صابرة لا يستطيع جيش كبيراً كان أو صغيراً أن يلحق الضرر بها، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(١)، بتقريب أن الله عز وجل أراد دفع الضرر عن المسلمين بحثهم على لزوم منازل الصبر والعبادة، ويحتمل الصبر في الآية وجوهاً:

الأول: إنه من المشترك المعنوي الذي يحتمل وجوهاً منها الصبر عند المصيبة، والصبر عند الشهوات.

الثاني: المقصود الصيام والصبر عن المفطرات من الأكل والشرب والجماع.

الثالث: الصبر والتحمل في أداء العبادات في أدائها، والحرص على تعاهد أوقاتها، الصبر من الصلاة إلى الصلاة وأداء المناسك، وما فيها من العناء، لذا سميت العبادات بالتكاليف لما فيها من المشقة والعناء.

الرابع: الصبر في ميادين الدفاع، كما في قوله تعالى ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّن الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾^(٢).

وفي الآية أعلاه شاهد على المنافع الآتية العظيمة للصبر، وأنه مفتاح النصر ومن الدلائل والمصاديق العملية على خاتمة الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

الخامس: إرادة المعنى الأعم للصبر لذا لم يذكر متعلقه، ففي الآية حذف وتقديره: واستعينوا بالصبر في الأمور كلها.

(١) سورة آل عمران ١١١.

(٢) سورة آل عمران ١٢٥.

ولا تعارض بين هذه الوجوه، وكلها من مصاديق الآية الكريمة.
وتبين الآية الفوائد العظيمة للصلاة، وأنها سلاح مصاحب للمسلم والمسلمة في دروب الحياة، وعون في مواجهة الشاق، وكان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذا أحزنه أمر لجأ إلى الصلاة وقال (أرحنا يا بلال)، وفيه شاهد على إظهار الخشوع لله عز وجل والرضا بحكمه في كل الأحوال، والصلاة بذاتها صبر ومقدمة للصبر، وثمرة للصبر.
وجاءت خاتمة الآية لتبين الحاجة إلى الصبر وأن الله عز وجل مع الصابرين متحدين ومتفرقين، وفيه بشارة نصر الإسلام وظفر المسلمين بأعدائهم، وسلامتهم من الكيد، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾^(١).

إنفاذات الآية

والصبر في اصطلاح علم الكلام هو مقاومة النفس للهوى لثلاث تنقاد للشهوات، والرغائب غير الشرعية، وسمي الصوم صبراً لما فيه من حبس النفس عن الطعام والشراب والمفطرات الأخرى، ومن أسماء شهر رمضان (شهر الصبر)، لما فيه من الإمتناع والصبر عما يفسد الصيام، وهو مناسبة لتنمية ملكة الصبر، والوقاية من السيئات في شهر رمضان وباقي أيام السنة وهو من أسرار جعل الصوم شهراً كاملاً وفي كل سنة فإن منافع الصوم في تهذيب النفوس وإصلاح المجتمعات ولوج باب التوبة والمبادرة إليها تنبسط على كل أيام السنة، ومقام من مقامات الصالحين، ويستلزم التلبس بدرجة من الورع والتقوى وإظهار الخشوع لله عز وجل، لذا ورد قوله تعالى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾، وقد أكرم الله

عز وجل الأنبياء بالصبر، وجعلهم يرتقون في منازل الصبر، ويكونون أسوة للمؤمنين في التحمل وتلقي الأذى في جنب الله وليبقى صبرهم مدرسة للأجيال في ترويض النفوس لتلقي العناء في سبيل الله واختياره بقبول ورضا.

ويدل الأمر على الإستعانة بالصبر على أنه أمر وجودي وليس عديمياً، ويحتاج الصبر قوة في نفس الإنسان يستطيع معها السيطرة على الجوارح واللسان، ويمتتع عما نهى الله عز وجل عنه مع فخر وإعتزاز بهذا الإمتناع، لأن النفرة من الفعل القبيح واقية من إرتكابه وملاسته والدنو منه.

إن تلاوة هذه الآية سياحة في عالم الملكوت وتجرد من المادة حب الدنيا، وحرز من غلبة النفس الشهوية والغضبية وفناء في حب رضا الله عز وجل، فمن أحب أمراً سعى في بلوغه، وبذل الوسع لتحقيقه، وجاءت هذه الآية لبيان مصاديق بلوغ مراتب الإيمان والإرتقاء في سلم الكمالات بإتخاذ الصبر رداء وواقية، والصلاة حفاً يومياً متجدداً، وصاحباً كريماً لا يفارق السلم في الليل أو النهار، ليكون كلاً من الصبر والصيام سياحة في عالم الملكوت، وتهدياً للنفس وإصلاحاً للمجتمعات، وطرذاً للغواية وأسباب الضلالة.

الآية لطف

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار إختبار وإمتحان، وتفضل سبحانه وملاها بأسباب التقريب إلى طاعته، والنفرة من معصيته، ومن الآيات أن يكون الفعل الواحد من العبد على وجوه متعددة ومتداخلة وهي:

الأول: التقريب إلى الطاعة.

الثاني: ذات الفعل طاعة لله.

الثالث: أداء الفعل العبادي واقية من المعصية، وسبب للنفرة منها ومن مصاديق الصبر وأداء الفرائض، فتأتي الصلاة مثلاً لتقرب الإنسان إلى سبل الطاعة مطلقاً، وتحجب العبد عن المعصية لذا ورد قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ

تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴿١﴾.

ومن وجوه الصبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما وإن كانا واجبين إلا أن كل واحد منهما يستلزم الصبر من الطرفين الأمر بالمأمور، ويفيد الجمع بين الآية محل البحث والآيات التي تتضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إتخاذ الصبر سلاحاً للعبور على الصراط، والأمن من النار.

ومن اللطف في الآية لغة الخطاب فيها، وإكرام المسلمين بنعتهم بصفة الإيمان وفيه حث لهم للسعي للإرتقاء إلى منازل الإيمان والوقاية من الجحود بالنعم، فلما أختتمت الآية السابقة بقوله تعالى (ولا تكفرون) جاءت بداية هذه الآية وقاية للمسلمين من الكفر بالنعم وشهادة سماوية بتنزههم عن الجحود بها للتنافي والتضاد بين الإيمان والكفر بالنعم .

ليكون اللطف الإلهي جلياً في أول ووسط وآخر الآية الكريمة ويترشح منها على الآيات المجاورة، فجاءت الآية التالية بالثناء على الذين يقتلون في سبيل الله وأنهم أحياء وخالدون في النعيم، والشهادة من أبهى وأسمى معاني الصبر في ذات الله عز وجل لما فيها من التضحية في مرضاته، ورجاء لقاءه، والفوز بالثواب العظيم.

التفسير الذاتي

تكررت مادة (صبر) في مواضع وآيات عديدة من القرآن، وهي مدرسة في الصبر وفلسفته وحاجة المؤمنين له في أفراد الزمان الطولية المختلفة بل كانت حاجة آدم وحواء له ظاهرة وهما في الجنة، إذ جاء النهي عن الأكل من الشجرة والذي يستلزم الصبر وتحدي إبليس ووسوسته، وإذ جاءت هذه الآية بالإستعانة بالصبر فإن آيات أخرى تضمنت الأمر بالصبر، وهذا الأمر

متعدد، فمرة يأتي متحدا كما في الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ﴾^(١)، ويشمل المسلمين والمسلمات معه، وأخرى يأتي بصيغة الجمع، قال تعالى ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا﴾^(٢)، وبينت الآيات أن الصبر يقرب العبد من الله، ويكون سبباً في نزول الرحمة عليه، قال تعالى ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(٣)، ليجتمع أمران بأن الله عز وجل مع الصابرين كما في خاتمة الآية محل البحث، وأنه سبحانه يحبهم.

لقد أراد الله عز وجل للمسلمين الثواب العظيم والأجر الجزيل فرغبهم بالصبر ودعاهم للإستعانة به ليفوزوا بالنعيم الخالد، قال تعالى ﴿إِنَّمَا يُوفِى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٤).

وجاءت هذه الآية بالإستعانة بالصبر، وجاءت آيات أخرى بالأمر بالصبر، والإخبار عن حسنه الذاتى، والثناء على أصحابه، والصلة بين الأمر بالصبر والإستعانة به مدرسة كلامية وعقائدية تبين أسرار الصبر الإيماني وأنه عون وسلاح ورشاد للمسلم.

والعبادة بلغة لتحقيق الغايات الحميدة، والوصول إلى المراتب الرفيعة، وتحصيل الإمتثال للأوامر الإلهية، والإنسان عرضة لمداهمة الإبتلاء والأذى والمصيبة في كل وقت وزمان، وإن لم يكن هذا الإبتلاء خارجياً، فإنه يدب في النفس الإنسانية على نحو الوسوسة وطول الأمل، والرغبة الجامحة، وشدة

(١) سورة الأحقاف ٣٥.

(٢) سورة الأنفال ٤٦.

(٣) سورة آل عمران ١٤٦.

(٤) سورة الزمر ١٠.

الخوف وخشية فوات المنفعة .

فجاءت الآية لمواجهة الإبتلاء خارجياً كان أو من بواطن النفس، ويحتاج الصبر في إستدامته إلى الصبر عليه، والبقاء في منازلته، والإمتناع عن الجزع والفزع.

وورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لما سئل عن الإيمان، قال: هو الصبر، ومن معاني ومنافع الصبر في الشريعة الإسلامية جعل الصوم كفارة لعدد من الذنوب والخطايا ، كما في كفارة القتل الخطأ والعجز عن تحرير رقبة مؤمنة ، قال تعالى ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾^(١).

وقد إحتاج المسلمون الأوائل إلى الهجرة وكانت أول هجرة للصحابة إلى الحبشة، ثم هاجر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحاب المدينة المنورة، ولا بد من الصبر قبل الهجرة وبعدها، أما قبل الهجرة فبتحمل أذى كفار قريش ، وأما بعدها فلما فيها من فراق الأهل والأحبة، وترك أسباب الرزق المستديمة في البلد، ومواجهة أحوال طارئة لا يعلم بها وبآثارها إلا الله عز وجل .

فجاءت الهجرة شاهداً على صبر المسلمين، والنصر والغلبة للمسلمين في معارك الإسلام الأولى دليل على المنافع العظيمة للصبر، ويكون الصبر والصلاة بناء عقائدياً وأقياً من الجريمة وتلك حقيقة أدركها علماء الإجتماع والقانون بالشواهد والوجدان والإحصاء والتباين بين المجتمعات المؤمنة إذ تقل فيها الجريمة، وأهل الجحود والضلالة إذ تكثر بينهم الجريمة وأنواع الرذائل، وهل التوبة من الصبر الجواب نعم، لما فيه من الندم عن المعصية، والعزم على المعاودة إليه، والإقرار بالمعاد والخشية من الحساب.

وجاءت الآيات بالأمر بالصلاة على نحو الوجوب ، قال تعالى ﴿وَأَقِمُوا

الصَّلَاةُ^(١)، ويفيد الجمع بينهما وجوهاً:

- الأول: بيان منافع الصلاة وأنها واقية وسلاح وخير محض.
الثاني: الترغيب بأداء الصلاة، وتوكيد ما فيها من الفوائد.
الثالث: بعث الفزع، والخوف في قلوب أعداء الإسلام.
الرابع: مواجهة المشاق وضروب الإبتلاء بالعبادة.
الخامس: بشارة النصر والظفر بالمواظبة على الصلاة والفرائض الأخرى.
 وورد لفظ (الصابرين) إلا في هذه الآية، وفيه شاهد على موضوعية هذه الآية في ميادين الصبر، نعم ورد قوله تعالى ﴿كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢).

من غايات الآية

في الآية مسائل:

- الأولى: توكيد الصلة بين الآيات، وتداخل مضامينها وتجلي منافع الآية الكريمة بمضامينها، وما يأتي في الآيات اللاحقة.
الثانية: الثناء على المسلمين، بالخطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ودعوتهم للإمتثال للأمر الإلهي في هذه الآية بلحاظ أن المؤمنين يحسسون النفس عن القبائح، ويصبرون في طاعة الله وإتيان الفرائض والواجبات.
الثالثة: الصبر أمر وجودي يستلزم السعي له وتعاهده، وإتخاذه سلاحاً وبلغة.
الرابعة: بيان منافع الصبر الذاتية والعرضية.
الخامسة: الإشارة إلى تلقي المسلمين العدوان من الكفار ولزوم تحليهم بالصبر وتعاهدهم للفرائض واجتناب الجزع.
السادسة: تقيد المسلمين بأحكام الشريعة، دعوة للناس لدخول الإسلام.

(١) سورة النور ٥٦.

(٢) سورة البقرة ٢٤٩.

السابعة: خاتمة الآية ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ، بشارة المدد والعون الإلهي للمسلمين، فخروج المسلمين لمعركة بدر مصداق عملي لأبهى معاني الصبر، وكان ثوابه العاجل بنصرهم مع قلة عددهم بالنسبة للكفار الزاحفين من قريش ومن معها من الأحباش، قال تعالى ﴿وَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(١).

الثامنة: تنمية ملكة التقوى في نفس المسلم، للملازمة بينها وبين الصبر، وهو مقدمة لها وجزء منها ورشحة لها.

وورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فمن لا صبر له لا إيمان له^(٢).

التفسير

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

الأولى: جاء الحث على الاستعانة بالصبر والصلاة في الآية الخامسة والأربعين من السورة، وقد تقدم أن التكرار في منطوق الآية لا يعني التشابه والاتحاد بينهما فكل آية لها مضامين خاصة وتفتح آفاقاً من العلم.

الثانية: التكرار يجب أن لا يكون حائزاً أو برزخاً دون البحث عن الآيات المتشابهة على نحو مستقل.

الثالثة: هذه الآية بدأت بالخطاب إلى الذين آمنوا، والمراد هنا أعم من الإيمان بالمعنى الإصطلاحي فيشمل الخطاب كل من نطق بالشهادتين سعة في فضل الله تعالى وإقامة للحجة وباباً للتوبة والتدارك، فمن آمن بلسانه فقط فقد يؤمن بقلبه خاصة وإن الآيات باتصال وتعاقب العقلية منها والحسية.

الرابعة: أن الخطاب نفسه دعوة للانتقال إلى مرتبة أعلى من مراتب الإيمان.

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

(٢) جامع الأحاديث ٤٩١/٣٠.

الخامسة : يحتاج هؤلاء ومنهم المنافقون الى الصبر ايضاً والمواظبة على الصلاة، وقد ثبت عقلاً ووجداناً انها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

السادسة : فقد ورد في كتب معتبرة متعددة عن موفق بن احمد باسناده عن مجاهد عن ابن عباس قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما انزل الله آية فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الا علي رأسها وأميرها"^(١).

وبالإسناد عن عكرمة عن ابن عباس قال: "ما انزل الله تعالى في القرآن آية يقول فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الا كان علي ابن ابي طالب شريفها وأميرها"^(٢). وهو خطاب إكرام للصحابة والتابعين وعموم المؤمنين من بعدهم.

السابعة : أمر الهي وحث على اتخاذ الصبر منهجاً وسلوكاً.

الثامنة : تدل الآية في مفهومها على ان الصبر نوع من أنواع الطاعات.

التاسعة : من وجوه الصبر الإمتناع عن المعصية وشهوة النفس ، ومنه الاقبال على الطاعة، والمواظبة على فعل الصالحات لما في التكاليف من المشقة.

العاشرة : يؤول الصبر على الصوم كما في بعض النصوص ، وفيه وقاء وعون على تجاوز حال الأذى والقهر وكثرة التعدي على المسلمين فهو انقطاع الى الله بانتظار الفرج وإنصراف الكيد والشر.

الحادية عشرة : في الآية تأديب للمسلمين وبيان لأهم معالم مدرسة الصبر ذات الموضوعية والاعتبار في الشريعة الاسلامية.

قوله تعالى ﴿وَالصَّلَاةَ﴾

(١) مناقب الخوارزمي ١٨٨، وحلية الأولياء ١/ج ٦٤، وكنز العمال ١١/٦٤ ح ٣٢٩٢٠ الصواعق المحرقة ١٢٧، وتأريخ الخلفاء للسيوطي ١٣٦.

(٢) مناقب الخوارزمي ١٩٨.

الأول : مع أهمية الصلاة في الدين الإسلامي وعظيم منزلتها في العبادة يأتي الأمر الإلهي بالإستعانة بها واتخاذها سلاحاً واماناً.

الثاني : تفتح الآية مبحثاً كلامياً في موضوع حصر الإستعانة بالله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١) لما يفيد تقديم المفعول من الحصر والإختصاص وليس في القرآن تعارض او تناف بين آياته، مما يعني ان اللجوء الى الله في اصدق واهم وجوه العبادة هو استعانة به تعالى بالواسطة والطريق الأمثل وتظهر متجسدة بالجوارح والأفعال.

الثالث : ان الإستعانة بالله تارة تكون قلبية وفي القصد والعزم، وتارة بالفعل لما في الصلاة من الذكر والتوسل والخضوع والإقرار.

الرابع : من احكام الصلاة انها لا تتقوم الا بالنية والقصد وان الرياء مفسد للعبادة ، وعلى قاعدة القرآن يفسر بعضه بعضاً فلا مانع من اعتبار هذه الآية مصداقاً لقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢).

الخامس : فيها ايضاً تخفيف ورحمة ومنع للإختلاف والخصومة.

السادس : هل الإستعانة بالصبر والصلاة على نحو الحصر او المثال، الأقوى انها على نحو المثال الأمثل والفرد الاشرف لأن الصلاة والصوم اهم العبادات.

السابع : للصبر وجوه ومصاديق متعددة ويستطيع الإنسان اعتماده واتخاذها سلاحاً في كل حال شدة ومداهمة بلاء وخرج وضيق.

الثامن : لقد اراد الله عز وجل بهذه الآية تلمس المسلم لدروب التوفيق والتأييد فبالإضافة الى ما فيهما من النفع وصرف البلاء فان الإلتجاء اليهما نوع هداية تتجسد بها بعض معالم فلسفة التكليف.

(١) سورة الفاتحة ٥.

(٢) سورة الفاتحة ٥.

التاسع : ان مجرد الإتيان بالفرائض والنوافل طاعة لله وسبيل الى المدد الإلهي والرشاد والتوفيق.

العاشر : تخرج بعض اهل العرفان من اللجوء الى اهل الحل والعقد في قضاء حاجته لأنه يقول في الصلاة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ باعتبار ان هذه الآية وقراءتها في الصلاة مدرسة يومية متجددة، وما دامت الإستعانة بالصلاة والصيام بأمر من الله تعالى فلا بد ان فيهما منافع عظيمة وانهما لطف وتفضل منه سبحانه.

الحادي عشر : ان الله عز وجل فرضهما على العبد لمنافع دنيوية واخرية وليست أخروية فقط.

الثاني عشر : ليكونا سكينة وطريقاً للإنتصار على الأعداء ومواجهة تعديهم وافترائهم واسائتهم.

الثالث عشر : لعل في ورود خطاب الإستعانة بلغة الجمع تأكيداً على وحدة الحكم في هلال شهر رمضان وشوال وعلى اداء صلاة الجماعة بل هو ظاهر في مفهومها، فالفرقة والاختلاف تقيض الاستعانة الجماعية.

الرابع عشر : الآية دعوة لوحدة المسلمين في عباداتهم ومناسكهم.

قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

الأول : الآية وعد وبيان لجانب من الإرادة التكوينية والتشريعية.

الثاني : مضامين الآية قاعدة كلية في المعرفة الإلهية جارية منذ خلق آدم والى يوم القيامة.

الثالث : المعية هنا في قوله تعالى ﴿مَعَ﴾ لها دلالات ومعان كثيرة منها ما هو ظاهر ومنها ما هو مكنون ومنها ما هو مستحدث بفضل الله تعالى ومنها ما هو شخصي وما هو نوعي ، والأخير هو الأكثر والأعم بدليل ورود الآية بصيغة الجمع.

الرابع : ان الاجتماع والالتقاء في منازل الصبر نوع اعانة جماعية وتضامن واقالة وتدارك ومؤاساة وعنصر تحفيز وتشجيع بتوفيق من الله تعالى.

الخامس : ان الصبر القليل يؤدي بفضل الله تعالى الى النصر والفتح من حيث لا يعلمون.

السادس : من الرزق ما يكون بالكسب وهو الغالب والمتعارف، ومنه ما يكون من غير اسباب مقصودة يأتي نعمة من الله تعالى، فالآية حث على اتخاذ الصبر سلاحاً وحرزاً.

السابع : الآية اخبار عن حسن الجزاء ولو بالدلالة الإلزامية، أي ان استعنتم بالصبر واتخذتموه منهجاً وسلاحاً على نحو جماعي عام فان العون والممدد سيأتيكم من عند الله في الدنيا.

الثامن : الله سبحانه يعينكم على أداء الفرائض ، ويمكن لكم في الأرض. التاسع : ظاهر الآية البشارة بالتوفيق والتأييد والظفر والنصر فهي امور يتفضل بها الله تعالى مع الصبر.

العاشر : هل تعني الآية ان معونة ونصر الله عز وجل لا يكونا الا مع الصابرين حصراً بحسب مفهوم المخالفة وانه لا بد من الصبر، الجواب على شعبتين :

الأولى : المعنى الخاص للصبر وأنه الصوم، فهو فريضة وضرورة من ضرورات الدين وان الله عز وجل لا يعين وينصر الا من يقيم الشعائر ويؤدي الفرائض ، لتدل الآية بالدلالة التضمنية على لزوم الإقامة على العبادات.

الثانية : المعنى الأعم للصبر وعدم إحصاره بالصبر بمعناه اللغوي لتعدد وجوه فضل الله تعالى وان كان من الصعب التفكير بايمان من غير صبر فكل تكليف يستلزم الصبر.

الحادي عشر: التعجيل بطلب النصر يستلزم الصبر او يكون مقصوداً على نحو الخصوص ، قال تعالى ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾^(١).

الثاني عشر: اختيار الشهادة والصبر على حر القتل ومغادرة الأهل والأحبة من سمى صيغ الصبر موضوعاً ومحمولاً.

الثالث عشر: هذه الآية مناسبة لتفقه وتأديب المؤمنين وحثهم على الطاعات وبيان ضرورتها ولزومها وأنها الطريق الى رحمة الله.

الأول: الله عز وجل مع الصابرين عند التلبس بالصبر.

الثاني: في حال المصيبة وإظهار المسلمين الصبر والإسترجاع.

الثالث: عند الشدة والرخاء.

الرابع: بعد إنقضاء تلبس المبدأ بالحال كما في مبحث المشتق في علم الأصول، أي بعد إنقضاء موضوع الصبر والتحلي به، فصحيح أن الصبر ملكة عند المؤمن، ولكن عندما يغادرها آناً ما فإن الله عز وجل ينزل عليه الصلوات والرحمة كي يعود إلى حال الصبر بإعتبارها سمة الصالحين، ومن مصاديق هذه العودة أدائه للصلاة اليومية الواجبة.

الخامس: إن الله عز وجل مع الصابرين في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

والصحيح هو الأخير من غير أن يتعارض مع الوجوه الأخرى، وهو من عظيم فضل الله وأنه سبحانه إذا أعطى يعطي بالأوفى والأتم ، قال تعالى ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾^(٢).

(١) سورة الطور ٤٨.

(٢) سورة الإنسان ١٢.

قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءُ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الآية ١٥٤.

الإعراب واللغة

الواو: حرف عطف على ما تقدم، لا: ناهية، تقولوا: فعل مضارع مجزوم بلا، لمن: جار ومجرور متعلقان بتقولوا، وجملة يقتل صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، في سبيل الله: جار ومجرور متعلقان بيقتل، واسم الجلالة مضاف إليه.

أموات: خبر لمبتدأ محذوف وتقديره هم أموات، بل: حرف إضراب وعطف، أحياء: خبر لمبتدأ محذوف، والجملة معطوفة على جملة (هم أموات).

ولكن: الواو حالية. لكن: حرف إستدراك لا عمل له لأنه وقع بين جملتين.

لا تشعرون: لا: نافية، تشعرون: فعل مضارع مرفوع ، والواو : فاعل.

في سياق الآيات

بعد أن حثت الآيات السابقة على شكر الله تعالى بالقول والعمل والتزام الصبر في مرضاته وطاعته تعالى وإجتنب معصيته، جاءت هذه الآية لبيان موضوع وحكم الشهادة والقتل في سبيله تعالى وأنه ليس خارجاً من الأمر بالصبر، وليكون طريقاً ومادة للجهاد وليس موضوعاً مغايراً له فهو داخل فيه كقصد وحال تلبس.

الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة على شعبتين:

الأولى: الصلة بين هذه الآية والآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين آية (ولكل وجهة) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: التقيد باستقبال البيت الحرام في الصلاة إمثال للأوامر الإلهية، وكذا الجهاد في سبيل الله.

الثانية: جاءت الآية أعلاه بالحث على المسارعة للخيرات والتنافس فيها ومن أسمى مصاديق الخير المسارعة إلى سوح الجهاد في سبيل الله.

الثالثة: إخبار هذه الآية عن حياة الشهداء عند الله من مصاديق قوله تعالى في الآية أعلاه ﴿أَنْتُمْ مَّا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾.

الرابعة: إن بقاء الشهداء أحياء في دار الخلد من عمومات ومصاديق خاتمة الآية أعلاه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الثاني: الصلة بين آية (ومن حيث خرجت) ^(٢)، وهذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: مجيء الآية أعلاه خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبواسطته لأجيال المسلمين من المسلمين والمسلمات جميعاً إلى يوم القيامة.

الثانية: حياة الشهداء عند الله حق وصدق.

الثالثة: ترتب الثواب على فعل الصالحات وخروج المؤمنين للجهاد،

(١) الآية ١٤٨.

(٢) الآية ١٤٩.

وليس الشهادة وحدها، قال تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾^(١).

الرابعة: لزوم إمتثال المسلمين لتحويل القبلة، وتحمل الأذى بهذا الخصوص، فأقصى ما يلاقيه المسلم في سبيل الله هو القتل، وهو في حقيقته حياة أبدية عند الله عز وجل، مما يعني الكرامة والسعادة والخلود في النعيم.

الثالث: الصلة بين آية (ومن حيث خرجت فول وجهك)^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: جاءت الآية أعلاه بالأمر للمسلمين بإستقبال البيت، وجاءت هذه الآية بالنهي عن نعت الذين قتلوا في سبيل الله بأنهم أموات.

الثانية: يفيد الجمع بين الآيتين مجيء القرآن بتعليم المسلمين أحكام الشريعة وتأديبهم وتفقههم بعالم الدنيا والآخرة.

الثالثة: بيان وقاية الشهداء من الناس وذمهم وسخريتهم لعمومات قوله تعالى (لئلا يكون للناس عليكم حجة).

الرابعة: من نعمة الله عز وجل على المسلمين أن الشهداء منهم أحياء عند الله عز وجل.

الخامسة: النهي عن نعت الشهداء بأنهم أموات من نعم الله عز وجل على المسلمين لما فيه من تأكيد لمنزلة الذي يقتل في سبيل الله، ودعوة الناس لإكرامه.

الرابع: الصلة بين آية (كما أرسلنا)^(٣)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: من معالم وخصائص رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

(١) سورة آل عمران ١٢١ .

(٢) الآية ١٥٠.

(٣) الآية ١٥١.

نيل الذين يقتلون تحت لوائه الخلود في النعيم.

الثانية: النهي الوارد في هذه الآية من الآيات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله.

الثالثة: كما أن القتل في سبيل الله تزكية وتطهير، فإن دخول الإسلام والتقيد بالوظائف العبادية تزكية ونجاة، وفيه شاهد على فضل الله عز وجل على المسلمين بنيلهم المراتب العالية بإتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابعة: من الحكمة القول بالحياة والسعادة الأبدية لمن يقتل في سبيل الله، لما في هذا القول من إصلاح اللسان، وتهذيب النفس، والتفقه في الدين.

الخامسة: مما علمه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين الترغيب بالشهادة والقتل في سبيل الله.

السادسة: لم يكن الناس يعلمون أن الذي يقتل في سبيل الله يختلف عن غيره من القتلى والأموات بأنه حي عند الله، فجاء القرآن بالإخبار عن حياة الشهيد لتكون له منزلة وشأن عظيم بين الناس في الحياة الدنيا، وبشارة شفاعته لذويه.

الخامس: الصلة بين آية (فاذكروني)^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:
الأولى: يتضمن القول بأن الشهداء أحياء ذكراً لله عز وجل، قال تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾^(٢).

الثانية: ذكر الله عز وجل مقدمة وطريق للرضا بالقتل في سبيله سبحانه.
الثالثة: من ذكر الله عز وجل التقيد بالأوامر والنواهي التي أنزلها في القرآن.

(١) الآية ١٥٢.

(٢) سورة آل عمران ١٦٩.

الرابعة: بيان منزلة الشهداء، فجاءت آية (فاذكروني) بالأمر بذكر الله وشكره، وتتجلى أبهى وأصدق معاني الذكر والشكر بالقتل في سبيله.

الخامسة: يفيد الجمع بين الآيتين الثناء على المسلمين بأن منهم شهداء قتلوا في سبيل الله.

السادس: الصلة بين الآية السابقة آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: القتل في سبيل الله أسمى درجات الصبر.

الثانية: بيان مصداق لقوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، من وجوه:

الأول: خروج المسلمين للجهاد.

الثاني: إستشهاد عدد من المسلمين في سوح المعارك وخارجها في سبيل الله.

الثالث: وصف المسلمين للذين قتلوا في سبيل الله بأنهم أحياء .

الرابع: تنمية ملكة حب التضحية دفاعاً عن بيضة الإسلام .

الخامس: توارث المسلمين لإكرام الذين يقتلون في سبيل الله ، وإن بعد زمان مغادرتهم الأرض ، وهو من رشحات حياتهم عند الله بأن يكونوا حاضرين بأسمائهم وتفانيهم في مرضاة الله في الوجدان والواقع اليومي للمسلمين.

الثالثة: دعوة المسلمين للصبر وتحمل الأذى بفقد الأحبة في سوح القتال.

الرابعة: إستعانة المؤمنين بالصبر عند التوجه إلى ميدان المعركة، وأثناء القتال.

(١) الآية ١٥٣.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

الخامسة: جاءت خاتمة الآية أعلاه بالإخبار والوعد الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، والآية محل البحث من الشواهد عليه من وجوه:

الأول: الشهادة في سبيل الله أرقى مراتب الصبر، والله عز وجل مع الشهداء.

الثاني: إكرام الشهداء بأن جعلهم الله أحياء عنده.

الثالث: هداية المسلمين إلى عدم القول بموت الشهداء، ونفي ظن موتهم من الوجود الذهني، والدعوة إلى تصور الحياة الأبدية في عالم الآخرة.

الرابع: ترغيب المسلمين بالصبر وتحمل الأذى في جنب الله.

السادسة: إتحاد الآيتين في لغة الخطاب، بقرينة إبتداء هذا الإتحاد بإرادة المعنى الأعم في النهي، وشموله للناس جميعاً.

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآية التالية ﴿لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾^(١)، وفيها مسائل:

الأولى: إتحاد صيغة الخطاب في الآيتين، وتوجهها إلى المسلمين.

الثانية: جاءت الآية قبل السابقة بصيغة الأمر، وجاءت الآية السابقة بلغة النهي، أما هذه الآية فجاءت بصيغة الجملة الخبرية، وجاءت الآية التالية بلغة الشرط ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ﴾، مع إتحاد الموضوع.

الثالثة: تعدد مصاديق البلاء على المسلمين، ومواصلة الكفار التعدي على الحرمات.

الرابعة: تضمن الآيتين موضوع الشهادة والقتل في سبيل الله لقوله تعالى في الآية التالية ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ﴾.

الخامسة: أختتمت الآية التالية بالأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالبشرى للصابرين ومنهم الذين يقتلون في سبيل الله، وإرادة المعنى الأعم لموضوع البشارة ليشمل الحياة الدنيا والآخرة.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية (الذين إذا أصابتهم)^(١)، وفيها مسائل:
الأولى: يفيد الجمع بين الآيتين دعوة المسلمين للصبر عند فقد بعض الأحبة بالقتل في سبيل الله.

الثانية: تفضل الله عز وجل بتعاهد المسلمين في مجتمعاتهم باللجوء إلى الإسترجاع عند المصيبة.

الثالثة: الإسترجاع عون للمسلمين في عدم نعت الشهداء بأنهم أموات لما فيه من الإقرار بالمعاد.

الرابعة: إخبار هذه الآية بالحياة الأبدية للشهداء مواساة سماوية كريمة للمسلمين.

الخامسة: دعوة المسلمين لرجاء الثواب بالصبر والإسترجاع.

السادسة: إسترجاع المسلمين عند المصيبة مقدمة للتسليم بحياة الشهداء الأبدية.

الثالثة: الصلة بين هذه الآية وآية (أولئك عليهم الصلوات)^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى: هداية المسلمين إلى سبل الثناء والثواب.

الثانية: إجتنب المسلمين نعت الشهداء بأنهم أموات.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين تغشي الرحمة الإلهية للأحياء والشهداء من

(١) الآية ١٥٦.

(٢) الآية ١٥٧.

المسلمين، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، إذ يسترجع المسلمون عند مصيبة القتل وفقد الشهداء.

الرابعة: نعت الذين يقتلون في سبيل بأنهم أحياء من وجوه الهداية.
الخامسة: الترغيب بالجهاد، وتلقي الجراحات والتلف والخسارة بالصبر والإسترجاع طمعاً بالأجر والثواب.

إعجاز الآية

في الآية تشريع لقاعدة كلامية وأخلاقية أساسية في مسيرة الإسلام ونظامه العقائدي كتب الله عز وجل لها الخلود والإعتبار والموضوعية في الحياة اليومية للمسلمين وصارت رعباً وفزعاً يقذف في قلوب الكافرين والأعداء. لقد جاءت الآية بصيغة النهي عن قول مخصوص مع أنه ظاهر للحواس لتوكيد قانون حياة الشهداء الأبدية بمقام حسن عند الله عز وجل وهو من الشواهد على أن حجة ومعجزة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عقلية وحسية .

ويتعلق موضوع الآية بالحياة الدنيا وعالم البرزخ من وجوه:
الأول: يعترف المسلمون بأن الله عز وجل ينشر الناس جميعاً يوم القيامة، وأن الشهداء من الذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢).

الثاني: تسليم المسلمين بأن الشهداء على الحق والهدى، وإنهم إختاروا الفناء في مرضاة الله.

الثالث: قيد (ولكن لا تشعرون)، الذي أختتمت به الآية الكريمة.

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة آل عمران ١٧٠.

الرابع : جاءت الآيات بالبشارة بالجنة للشهداء، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾^(١)، وجاءت الآية بصيغة الجمع (لمن يقتل)، وفيه تهيئة لأذهان المسلمين لمعارك الإسلام القادمة، وأنهم يقدمون الشهداء، وأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رسول من عند الله ولا يخرج للقتال أو يرسل السرايا إلا بوحي وأمر من عند الله لعمومات قوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٢).

وجاءت هذه الآية للإخبار بأن من المسلمين من يتعرض للقتل في سبيل الله وهو للشرف عظيم، وانتقال كريم إلى حياة أبدية ويمكن أن نسمي هذه الآية آية (بل أحياء)، وورد هذا اللفظ في القرآن مرتين^(٣)، ويتعلقان بالشهداء وحياتهم الأبدية عند الله.

الآية سلاح

خلقت الآية خصائص وقيماً ومفاهيم للشهادة لم تكن معروفة بين الأمم وأصبحت منهاجاً للمسلمين في سرايا الدفاع ورافقتهم في جزء من حياتهم اليومية والجهادية إلى يومنا هذا فكانت سلاحاً في كل معركة ومواسياً كريماً لكل من يفقد حبيباً في سوح المعارك، وهي عون على مواجهة العدو. يتفضل الله عز وجل ويحذر المسلمين من قول ونعت مخصوص، ليكون هذا النهي على وجوه:

(١) سورة التوبة ١١١.

(٢) سورة النجم ٣-٤.

(٣) أنظر سورة آل عمران ١٦٩.

الأول : إصلاح اللسان في باب الجهاد.

الثاني : بيان المائز والتشريف الخاص للذين يقتلون في سبيل الله، فهم يغادرون إلى الرفيق الأعلى ولكن ذكرهم يتجدد على نحو خاص من الإكرام.

الثالث : الترغيب بالدفاع عن بيضة الإسلام.

الرابع : طرد الكآبة عن نفوس المؤمنين وتخفيف وطأة فقد الأحبة الذين يقتلون في سبيل الله.

الخامس : الآية برزخ دون اليأس والقنوط، وإستيلاء الحزن على النفوس.

السادس : دعوة للمسلمين للجهاد وعدم خشية الموت حتى ينهزم الكفار أمامهم، قال تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(١).

السابع : هذه الآية مقدمة للإسترجاع عند المصيبة الوارد بعد آيتين بقوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٢)، والمصيبة أعم وتتعلق بالقتل والموت وما يتعرض له الإنسان من الأذى والبلاء.

وجاء النهي في الآية بصيغة الجمع ليكون المسلمون أمة متحدة وعلى درجة عالية في التفقه في الدين، تكرم الشهداء ولا تلتفت إلى إستخفاف وشماتة الأعداء.

أسباب النزول

نزلت الآية في قتلى بدر وكان قد قتل يومئذ من المسلمين أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، فاذا قتل واحد من المسلمين

(١) أنظر الجزء الحادي والتسعين من هذا التفسير الذي جاء خاصاً بتفسير هذه الآية.

(٢) الآية ١٥٦.

يقولون: مات فلان، فانزل الله تعالى هذه الآية وهو المروي عن ابن عباس. وورد عن البلخي "ان المشركين يقولون: إن أصحاب محمد يقتلون نفوسهم في الحروب بغير سبب ثم يموتون فيذهبون فاعلمهم الله ان ليس الأمر على ما قالوا".

ومع ان القول الأول هو الأقرب بلحاظ جهة الصدور لأن ابن عباس من الصحابة ومناسبة الحديث وتلقيه بالقبول ، فلا مانع من إجتماع السببين وورود نظم الآية بصيغة المخاطب يمكن حمله على التعدد والتركيب ما دام الموضوع واحداً، وقد إستخف فريق من الناس بالمسلمين لتحويل القبلة ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾، فمن باب الأولوية أن يتوجهوا باللوم للمسلمين لعشقهم الشهادة، وتبرز هنا فلسفة وذخائر مبحث (سياق الآيات) وتوظيفه في تحقيق أسباب النزول فقد تضمنت الآية السابقة الخطاب التشريفي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهذه الآية معطوفة عليها الأمر الذي ينفي التعارض بين الصبر والشهادة.

مفهوم الآية

أعلى مراتب الصبر هو وقوع القتل على الإنسان وهو على أقسام بحسب النية والإرادة أو الكيفية أو بلحاظ الغاية ، وتارة يحصل بالإقدام على مقدماته وما يحتمل أن ينجم عنه القتل وتارة يأتي عرضاً أو من غير إختيار وإستعداد، والقتل تارة يكون في سوح المعارك وأخرى بالسيف صبراً، وبحسب الغاية قد يحصل القتل دفاعاً عن النفس أو المال أو العرض أو نتيجة للتعدي وإيذاء الآخرين، وأخرى بسبب ظلم الظالمين وهجوم الأعداء للتعدد والتنافي بين غاية القاتل والمقتول، ومرة يكون القتل في سبيل الله وهو أشرف أنواع القتل إذ يكتب دوام الحياة للشهيد.

والآية ترغيب في الشهادة في سبيل الله، وحث على الأقدام إلى سوح القتال دفاعاً عن الإسلام، وفيها منع من الشك في مصير الشهيد لتكون الآية في مفهومها على وجوه :

الأول : الآية جواب ورد على الشبهات التي يثيرها المنافقون وأعداء الدين.

الثاني : الآية حصانة دون إستماع المسلمين للشبهات وحاجز دون الخوف.

الثالث : تبث الآية في نفوس المؤمنين الشوق الى لقاء الله سبحانه. الرابع : تبين الآية عظيم قدرته وسلطانه وبديع خلقه وتوالي نعمه، فهو سبحانه واهب الحياة ويفضل ليمنح الخلود لمن إختار خرم ما بقي من حياته دفاعاً عن الحق وثباتاً على الإسلام.

وظاهر الخطاب في الآية أنه موجه إلى المسلمين بحسب سياق الآيات ولغته في الآية السابقة والتالية، ولكنه في مفهومه إسكات للكافرين وتوبيخ لهم وإسقاط لما في أيديهم، وتملاً الآية قلوبهم بالرعب لإدراكهم بما تبعته في نفوس المسلمين من العزيمة وإرادة القتال في سبيل الله، لنيل إحدى الحسينين أما النصر وأما الشهادة.

ومن مفاهيم الخطاب في الآية حث المسلمين على القتل في سبيل الله وعدم الخوف من السمات، أي ان تقديرها بهذا المعنى: لا تخافوا من القتل في سبيل الله لأنكم ستكونون أحياء إلى الأبد.

وجاءت الآية بصيغة الجمع (لا تقولوا) أي أنها موجهة للمسلمين وغيرهم، كما جاء لفظ أموات بصيغة الجمع، وفيه دعوة إلى عدم الفرع من كثرة عدد قتلى المسلمين وأن الله سبحانه هو الكريم.

وفي الآية مسائل:

الأولى: تأكيد عالم البرزخ وأن الشهداء أحياء فيه.
الثانية: إكرام الشهداء بين أهليهم وذويهم عند المفارقة إلى الرفيق الأعلى.
الثالثة: التخفيف عن ذوي الشهيد، ومواساتهم ودعوتهم للصبر والرضا بأمر الله.

الرابعة: نصرة الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بإكرام أصحابه وأتباعه الذين يقتلون في المعارك من وجوه:
الأول: إن قتل الشهداء وزهق أرواحهم في سبيل الله.
الثاني: الإخبار عن حياتهم.
الثالث: نفي الموت والعدم عنهم.

الرابع: بعث الغيظ في قلوب أعداء الإسلام ، قال تعالى ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾^(١).

الخامسة: إغاثة ونصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بزيادة إيمان المسلمين، ومنع الفتنة وديب الشك بحصول القتل بين المؤمنين.
السادسة: لقد هاجر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة المنورة هرباً من عذاب وبطش قريش، فزحفت جيوشها صوب المدينة وأرادوا إستئصال المسلمين، فجاءت هذه الآية تحريضاً للمسلمين على القتل، ووقاية من اليأس وإستيلاء الحزن على النفوس عند حصول القتل بين المسلمين.

السابعة: تتضمن الآية في مفهومها التباين بين قتل المسلمين وقتلى الكفار فإذا كان قتلى المؤمنين أحياء عند الله، فإن الكفار في العذاب الأليم.
الثامنة: دعوة المسلمين للتسليم والتصديق بالغيب.

الآية لطف

تتضمن هذه الآية نهى المسلمين عن قول مخصوص وهو نعت الشهداء بالأموات، وهذا النهي لطف من وجوه:

الأول: إنه تأديب للمسلمين والمسلمات.

الثاني: معرفة المسلمين لمنزلة الشهداء عند الله.

الثالث: لزوم إكرام الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، وهذا الإكرام شاهد على حسن منزلتهم عند الله عز وجل.

الرابع: بعث السكينة في نفس المجاهد بأنه لن يخسر شيئاً عند الخروج للدفاع والقتال .

الخامس: مواساة ذوي الشهيد.

السادس: طرد السأم والضجر واليأس عن نفوس المسلمين والمسلمات.

السابع: دعوة الناس للإسلام بحسن العاقبة التي يلقاها الشهداء، ومن المعروف في الشريعة جواز لبس الرجال للحرير في ميدان القتال ليدو المسلمون في حال غنى ومندوحة، وفيه ترغيب للناس بدخول الإسلام، وجاءت هذه الآية بالترغيب العام والخاص، أما العام فهو دخول الإسلام لعظيم فضل الله على المسلمين، وأما الخاص فهو نعمة الله عز وجل على الشهود بعد مغادرة الدنيا.

إفادات الآية

تتغشى منافع هذه الآية الأحياء والأموات من المسلمين، بأن تصلح الأحياء لذكر الشهداء بما يؤكد إكرام الله عز وجل لهم، والذي يدل في مفهومه على الإقرار بالعالم الآخر والحياة الأبدية، وكأن الآية تقسم الناس إلى قسمين بعد الموت :

الأول: الأموات الذين فارقوا الحياة.

الثاني: الشهداء الذين فارقوا الدنيا بأجسادهم، لينتقلوا إلى حياة كريمة خالية من الإمتحان والابتلاء ، قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾^(١).

وتدعو الآية المسلمين والناس كافة لقبول الحقائق والموجودات الغيبية وهو الذي يسمى بالقوة النظرية في مقابل القوة العملية وهي قابلية التصرف المادي والفعل والتأثير فيما حولها، فتخبر الآية عن جانب من عالم الغيب لذا أختتمت بقوله تعالى ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، لتجعل صور حياة الشهداء حاضرة في الوجود الذهني .

ويأتي تكرار تلاوة هذه الآية والتنزه عن وصفهم بالأموات لتثبيت هذه الصور وجعلها جزء من الواقع اليومي للمسلمين، فمن أسرار القرآن تقريب البعيد، وجعل أسرار من الغيب حاضرة، وإلباس المدركات العقلية لباس المحسوسات.

ومن منافع الآية الكريمة دفع شرور الأرواح الظلمانية، والكدورات الموحشة، والأسى والحزن على فقد الأحبة في ميادين الدفاع، وهو من خصائص المسلمين كونهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، بينما يعيش الكفار في حسرة وخيبة لفقد صناديدهم ورجالاتهم في القتال، وهذه الآية مقدمة لتثبيت أركان الدولة الإسلامية، وإجتنب الناس التعدي على حرمتها .

(١) سورة البقرة ٢٠٧.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

لقد أراد الله عز وجل تفضيل المسلمين بإزاحة الحجب عن أبصارهم، وإزالة الغمة والحزن عن صدورهم بالإخبار عن النعيم والمقام الكريم للشهداء عند منهم سبحانه.

الصلة بين أول وآخر الآية

بدأت الآية ب (لا) الناهية، ويتصف موضوع النهي بأمور:

الأول: إنه جلي ومبين، وليس فيه إجمال وترديد.

الثاني: شمول المسلمين والمسلمات بالنهي الوارد في الآية.

الثالث: تعلق النهي بموضوع فيه إكرام الشهداء خاصة والمسلمين والمسلمات عامة.

فمن الإعجاز في الشريعة الإسلامية أن يأتي النهي بما يتضمن الثناء على المسلمين وإرادة الخير والنفع لأجيالهم المتعاقبة وتثبيت أحكام الشريعة في الأرض ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

واللام في (لمن) لام الإستحقاق، فالذي يقتل في سبيل الله لا يصدق عليه بأنه ميت لأنه في الحقيقة حي عند الله عز وجل، وورد عن ابن عباس عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: (لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش)^(٢).

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) الدر المنثور ٤٨٢/٢.

وورد عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الشهداء على بارق نهر يباب الجنة، في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً^(١).

عن أبي بصير: أنه سأل الإمام جعفر الصادق: عن أرواح المؤمنين فقال: في الجنة على صور أبدانهم لو رأيته لقلت فلان^(٢).

وجاء حرف الإضراب بالإخبار عن حياة الشهداء، وهو من الجزاء والثواب العظيم الذي ينالونه لإختيارهم أموراً:

الأول: الجهاد والدفاع عن الإسلام.

الثاني: قصد القربة في القتال.

الثالث: موضوع قتلهم أنه في سبيل الله.

لقد جاءت الآية بالنهي عن وصف الشهداء بأنهم أموات، وأخبرت بأنهم أحياء، فهل تتضمن الآية الأمر بالقول بحياتهم لعمومات القاعدة الأصولية أن النهي عن الشيء أمر بضده، الجواب لا تصل النوبة إلى هذه القاعدة، إذ أن الإخبار عن حياتهم عند الله يحمل على الحقيقة وذكر (عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم: أنهم أحياء على الحقيقة إلى أن تقوم الساعة)^(٣).

وأختتمت الآية بقوله تعالى (ولكن لا تشعرون) أي لا تحسون بحياتهم وأن عالم الآخرة محجوب عن أهل الدنيا، وهو من مصاديق الإبتلاء والإختبار فيها وتؤكد الآية قاعدة وهي لزوم الرجوع إلى القرآن والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لمعرفة حقائق الأشياء وأسرار الغيب وعالم الآخرة، ولزوم عدم تقييد القول والموضوع بالشعور والإحساس.

(١) تفسير ابن كثير ١٦٤/٢.

(٢) مجمع البيان ٣٩٨/١.

(٣) مجمع البيان ٢٣٦/١.

التفسير الذاتي

ورد لفظ أحياء خمس مرات في القرآن، منها مرتان بخصوص الشهداء، قال تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١)، لتكون الآية أعلاه تأكيداً وتفسيراً للآية محل البحث لما فيها من البيان عن حال الشهداء وأنهم أحياء عند الله عز وجل وفي ظل رحمته وأن حياتهم مقترنة بنزول الرزق إليهم، وفيه دلالة على كرامتهم وحسن منزلتهم وأنهم لم ولن يموتوا ولكنهم غادروا الدنيا إلى عالم السعادة الأبدية.

وورد لفظ (فقولوا) في القرآن ست عشرة مرة، منها ست مرات بصيغة النهي (لا تقولوا)، ومنها ثلاث مرات خطاب إرشادي وتأديبي للمسلمين في الأحكام والسنن، قال تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَقْبَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾^(٢)، وجاء لفظ (أموات) في القرآن ثلاث مرات بالرفع وثلاث بالنصب، قال تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾^(٣)، في بيان لمنزلة الإحياء.

(١) سورة آل عمران ١٦٩.

(٢) سورة النساء ٩٤.

(٣) سورة فاطر ٢٢.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: بيان فضل الله عز وجل على المسلمين بهدايتهم إلى القول الصحيح والحسن ، قال تعالى ﴿وَهْدُوا إِلَيَّ الطَّيِّبَ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَيَّ صِرَاطَ الْحَمِيدِ﴾^(١).

الثانية: بشارة اللطف الإلهي بالشهداء ولزوم إكرام المسلمين لهم، والتسليم بمنزلتهم عند الله.

الثالثة: تأكيد وجود عالم البرزخ ومنزلة الشهداء فيه، وسؤال الله عز وجل النجاة والسلامة من ضغطة وعذاب القبر، (روى عبد الله بن عباس: لما ماتت فاطمة أم علي بن أبي طالب خلع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قميصه، وألبسها إياه، واضطجع معها في قبرها، فلما سوى عليها التراب، قال بعضهم: يا رسول الله رأيناك صنعت شيئا لم تصنعه بأحد، فقال: إني ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة ، واضطجعت معها في قبرها ليخفف عنها من ضغطة القبر ، إنها كانت أحسن خلق الله إلي صنيعا بعد أبي طالب)^(٢).

الرابعة: الإخبار عن قتل بعض المؤمنين في سبيل الله.

الخامسة: الشهادة السماوية للشهداء بأنهم قتلوا في سبيل الله.

السادسة: تأكيد الحياة بعد الموت ، وهل تنحصر بالشهداء أم تشمل ما هو أعم من أهل الإيمان والتقوى ، الجواب هو الثاني، إذ أن إثبات شيء

(١) سورة الحج ٢٤.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني ٢٠٦/١٥.

لشيء لا يدل على نفيه عن غيره، ولكن الآية تدل على إختصاص الشهداء بمنزلة عظيمة، ولزوم إكرام الناس لهم.

السابعة: في الإقرار بحياة الشهداء عند الله أجر وثواب للمسلمين والمسلمات، لذا جاء وصفهم بالشهداء، (والشهيد: المقتول في سبيل الله)^(١)، وسمي شهيداً لوجوه منها:

الأول: لأنه حي وحاضر لم يموت.

الثاني: تشهده ملائكة الرحمة.

الثالث: الملائكة شهود له في الجنة.

الرابع: قيامه بالشهادة بصدق النبوة والتنزيل حتى بذل نفسه في توكيد وتثبيت هذا التصديق.

الخامس: يشهد على ما أعدّ الله له من الكرامة والمنزلة الرفيعة بالقتل.

السادس: يشهد الذي قتل في سبيل الله على الناس.

السابع: يشهد حال من بعده من ذويه، وما يلحق أعداء الإسلام من الهلاك والكبت ، قال تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(٢).

ومن إعجاز الآية أنها ذكرت الشهيد بقيد القتل في سبيل الله، للحصر والتعيين، وأن المراد خصوص الذين قتلوا في سبيل الله، وليس مطلق الذين يسمون بالشهداء، (وفي الحديث: المبطون شهيد والغريق شهيد)^(٣) أي يلحقان بالشهيد في الفوز بالجنة فضلاً من عند الله عز وجل.

(١) لسان العرب ٣/٢٤٢.

(٢) أنظر الجزء الحادي والتسعين الذي جاء خاصاً بتفسير هذه الآية.

(٣) تفسير الرازي ٥/٢٧٧.

الثامنة: لا يشعر الناس بحياة الشهداء، والكرامة والرفعة التي هم فيها عند الله.

التاسعة : تبين هذه الآية قانوناً وهو تقديم الإخبار القرآني على الشعور بالشيء إذا تعارضاً، ليصبح الإخبار القرآني هو الموجود في الذهن وعالم التصور، وتلك آية وخصوصية يتصف بها المسلمون وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

التفسير

الأولى : يظهر نظم الآيات والتداخل في موضوعاتها واضحاً جلياً في هذه الآية فبعد أن أمر الله سبحانه بالصبر وإتحاذه سلاحاً ووعد عليه بالإعانة جاءت هذه الآية لتتعلق بما يتضمن المغايرة الجهتية مع الصبر بتقديم أغلى شيء يمتلكه الإنسان، بل كل ما يملك وهو النفس.

الثانية : الآية دفع وهم ، فقد يظن بعضهم أن الأمر بالصبر يعني بمفهومه وفحوى الخطاب النهي عن بذل النفس والجهد، فلا تعارض بين الأمر بالصبر وحب الشهادة في سبيل الله.

الثالثة : ترى في الآيات الصبر والقتل يتدافعان على ذات الموضوع وكأنهما من المتضادين اللذين لا يجتمعان في زمان واحد وفي موضوع واحد وعند القتل في سبيله تعالى تغلب الحياة الأبدية.

الرابعة : من الإعجاز أن هذه الآية جاءت مباشرة بعد آية الصبر، فقد يكون في التباعد والتفريق بينهما في ذات السورة أو بوجود كل منهما في سورة عسر ومشقة في الربط بينهما وإثبات وحدة الموضوع، ويصبح الجمع بينهما منحصرأً باهل الاختصاص والعلم وبذلك تفوت فرص وإستدلال عقائدي وقد يحصل إضرار وأذى خاص أو عام بخصوص إتساع الإسلام

وحفظ بيضته.

الخامسة : مجيء آية الشهادة في سبيل الله متعقبة لآية الصبر إعجاز في ترتيب القرآن ودليل على أنه تم بتوفيق منه تعالى وبالوحي ونزول جبرئيل.

السادسة : يتفرع عن هذا الترتيب علم جديد هو إمكان الجمع بين الآيتين المختلفتين بقرائن المقام والمقال، فهذا الترتيب دعوة للجمع بينهما من غير تعارض أو مزاحمة.

السابعة : هذا الترتيب والنظم جاء إستجابة لحاجة نوعية تتمثل بلزوم التفات الناس إلى حقيقة عدم التعارض بين الصبر والجهد في سبيله، بل انه أفضل وجوه الصبر.

الثامنة : تمنع الآية تأثير الشماتة والحسد وأقوال المناققين في قلوب المسلمين ومحاولاتهم التعريض بمن إستشهد من المسلمين.

قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقَاتِلُ﴾

الأول : نهى وتحذير وتنبيه ، وهل هو نهى مولوي أو نهى إرشادي، وعلى سبيل الحرمة ام الكراهة الأصح انه نهى مولوي ولا يحمل على حرمة نعت الشهيد بانه ميت لأن الموت لغة زهوق الروح ومغادرتها البدن، وهو امر يحصل للشهيد والميت مطلقاً، وفق منظار دنيوي محسوس، ولكن لا بد من إستحضار أنه وحي عند الله، وإن فارق الحياة الدنيا، قال تعالى ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾^(١).

الثاني : جاءت هذه الآية لتبين أن الملاك ليس على العالم المحسوس، فلا ملازمة دائمة بين الدنيا وبين الحياة البشرية ، وليس كل من يغادر الدنيا يعتبر ميتاً، لأن الوجود أعم من الحياة الدنيا، والزمان أعم من أن يستوعب الأحياء من أهل الدنيا فقط، وقدرة الله مطلقة أي ان جميع الأشياء

(١) سورة العنكبوت ٦٤.

مستجيبة له ومتساوية في درجة الإستجابة التامة.

الثالث : هل الشهداء وحدهم أحياء عند الله بعد الممات أم أن شطراً من أهل الإيمان كالعلماء أحياء أيضاً ، لا يستبعد أن يكون غير الشهداء أحياء في عالم البرزخ كما تدل عليه بعض النصوص في المؤمنين وأن المؤمن يكون قبره كروضة من رياض الجنة ، فالنهي ورد بالخصوص في الشهداء بقيد القتل في سبيل الله مما يرجح معه أن درجات الرفعة فيما بعد الموت على مراتب مشككة وليس متواطئة ، وفيه نوع تشريف وإكرام خاص إنفرد به الشهداء وهو أمر عليه إجماع علماء الإسلام.

الرابع : فلسفة الشهادة موضوع ذو شأن ومرتبة خاصة في حياة المسلمين وسنن الشريعة لذا جاءت الآية صريحة في تعريف بسيط للشهداء وهم الذين قتلوا في سبيل الله.

الخامس : وردت نصوص تعد من مات دفاعاً عن ماله أو غريباً أو حرقاً ونحوه شهيداً فهل تشمل الآية الجواب لا ، لأن لفظ الشهيد يطلق عليهم مجازاً وليس حقيقة ، وعلى نحو الإلحاق كما تقدم قبل بضع صفحات ، بينما يطلق على المقتول في سبيل الله حقيقة ، وعليه تترتب أحكام كثيرة.

السادس : إن قلت أن الشهيد المقتول في سبيل الله كغيره من الناس تراه يصبح بالقتل جثة هامة ، ولو وضعنا سلكا وجهاز إنصات دقيق مع هذا الإرتقاء التقني لما بدت من الشهيد أية حركة أو أمارة تدل على الحياة أو مغادرة بدنه القبر ، والجواب من وجوه :

الأولى : إن عالم الآخرة له نواميسه الخاصة وأسواره الخفية التي حجب الله عن أهل الدنيا الإطلاع عليها ومعرفتها كجزء من الإبتلاء الإلهي في الحياة الدنيا .

الثانية : الحياة أعم من الدنيا وهي متصلة دائمة إلى عالم الآخرة ، والحياة منحة وكرامة ورزق كريم من عند الله تعالى وهو سبحانه يرزق من يشاء

بغير حساب .

الثالثة : تسالم المملين بحياة الروح وانتقالها إلى عالم الملكوت.

السابع : في الخبر أن أرواح الشهداء تنتهي إلى شجرة المنتهى وهو الموضع من السماء الذي بلغه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج تشریفاً وإكراماً من الله تعالى وللمسلمين.

وجاءت الآية بصيغة الجمع في طرف المخاطب وهم المسلمون، لإرادة المسلمين والمسلمات جميعاً ممن يبلغهم خبر قتل أحدهم في سبيل الله وتلقيهم له بالقبول والرضا، وما يدريك لعل من المخاطبين من سيكون من الشهداء وهو لا يرضى لنفسه بعد مغادرة الدنيا أن يقال عنه أنه ميت لما يراه من النعيم وحسن إستقبال الملائكة.

وفي التنزيل ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾^(١)، وهذه الآية وإن كانت عامة في موضوعها إلا أنها تحكي قصة جيب النجار من قوم يونس الذي نصح لقومه ودعاهم لإتباع الرسل ولكنهم قتلوه فأدخله الله الجنة فتمنى أن يعلم قومه بعظيم منزلته وأنه حي عند الله كي يتوبوا ويؤمنوا لذا (ورد في الحديث: أنه نصح لهم حياً وميتاً)^(٢).

وعن عروة قال: قدم عروة بن مسعود الثقفي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم استأذن ليرجع إلى قومه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنهم قاتلوك؟ قال: لو وجدوني نائماً ما أيقظوني، فرجع إليهم، فدعاهم إلى الإسلام، فعصوه وأسمعوه من الأذى، فلما طلع الفجر قام على غرفة، فأذن بالصلاة، وتشهد، فرماه رجل من ثقيف بسهم فقتله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه قتله: مثل عروة مثل صاحب

(١) سورة يس ٢٦.

(٢) التسهيل لعلوم القرآن ٤٠٨/٢.

يس، دعا قومه إلى الله فقتلوه^(١).

وتبعث الآية على الزهد في الدنيا، وإستحضار الآخرة والتدبر في طرق النعيم فيها، وتدعو إلى الصبر في جنب الله، والإستعداد للقتال والدفاع عن الإسلام وتطرد الشك عن النفوس، وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَطَرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ قَطْرَةٌ مِنْ دُمُوعٍ فِي خَشْيَةِ اللَّهِ وَقَطْرَةٌ دَمٍ تُهْرَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَمَّا الْأَثَرَانِ فَأَثَرُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَثَرُ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ^(٢).

وبين الذي يموت على الفراش والذي يموت في سبيل الله عموم وخصوص مطلق، وكذا ذات النسبة بين الذي يموت في سبيل الله والذي يقتل في سبيل الله بلحاظ أن الموت أعم وإن إتحدت الغاية، فجاءت الآية وما فيها من الوعد الكريم بخصوص الذي يقتل بالسيف ونحوه في سبيل الله وليس من حصر لوجوه دخول المؤمن الجنة.

ووردت الآية بصيغة المضارع في طرفيها من القائلين والذين يقتلون، ولم تذكر الآية الذين قتلوا قبل نزول الآية، ولكنها تدل عليه بالدلالة التضمنية والأصالة الإطلاق ووحدة الموضوع في تنقيح المناط.

وفي الآية إشارة إلى تجدد حدوث القتل بين المسلمين دفاعاً عن الإسلام، دعوة لهم للصبر في الشدائد وعدم الخشية من المخاطر التي تواجه المسلمين في ميادين الدفاع، وحياة الشهداء في الآخرة من مصاديق العلو في قوله تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾^(٣).

قوله تعالى ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

(١) الدر المنثور ٨/٢٩٥.

(٢) سنن الترمذي ٦/٤٣٠.

(٣) سورة آل عمران ١٣٩.

تقييد للقتل الذي تتعقبه الحياة وهو ان يكون جهاداً في سبيل الله ولإحياء الشريعة وتثبيت دعائم الدين والذب عنه وعن النبوة والغالب في مصاديقه سوح القتال والمعارك التي خاضها المسلمون في الفتوحات والسرايا ولكن هذا لا يمنع من المصاديق الفردية والشخصية التي تتم ابتداءً أو قهراً وإنطباقاً بانخراط العمر في سبيل الله.

ويروى أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله عز وجل له "كيف وجدت الموت" قال كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب فقال: "أما إنا قد هونا عليك". وعن موسى صلوات الله عليه أنه لما صارت روحه إلى الله عز وجل قال له "يا موسى كيف وجدت الموت" قال: وجدت نفسي كشاة حية بيد القصاب تسلخ.

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "تَحَدَّثُوا عَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِنَّهُ كَانَتْ فِيهِمْ الْأَعَاجِيبُ، ثُمَّ أُنْشَأَ يُحَدِّثُ، قَالَ: خَرَجَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَتَوْا مَقْبَرَةً مِنْ مَقَابِرِهِمْ، فَقَالُوا: لَوْ صَلَّيْنَا رَكَعَتَيْنِ، فَدَعَوْنَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُخْرِجَ لَنَا بَعْضَ الْأَمْوَاتِ، يُخْبِرُنَا عَنِ الْمَوْتِ، قَالَ: فَفَعَلُوا، فَبَيَّنَا لَهُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ رَجُلٌ بِرَأْسِهِ مِنْ قَبْرِ، بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَثَرُ السُّجُودِ، فَقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ، مَا أَرَدْتُمْ إِلَيَّ؟ فَوَاللَّهِ، لَقَدْ مِتُّ مِنْذُ مِئَةِ سَنَةٍ، فَمَا سَكَنْتُ عَنِّي حَرَارَةَ الْمَوْتِ حَتَّى كَانَ الْآنَ، فَادْعُوا اللَّهَ أَنْ يُعِيدَنِي كَمَا كُنْتُ^(١).

وكان علي عليه السلام يحرض على القتال في سبيل الله ويقول: إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفس محمد بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موت على فراش).

وليس من حصر لصيغ زهوق الروح وأسباب وكيفية القتل فلذا جاءت الآية بالحصر في النية والقصد والموضوع دون الكيفية وفيه بيان ومنع من

(١) المسند الجامع ٢٥٧/٣.

الجهالة والغرر وأسباب الغواية، وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء فأبي ذلك في سبيل الله؟ قال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله تعالى^(١).

قوله تعالى ﴿أَمْواتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

الأولى: لم يرد النهي على نحو القضية المهمة أو أن متعلقه القول فقط إنما صدر النهي بسبب عدم المطابقة بين الوصف والواقع.

الثانية: النهي تنبيه لحقيقة موضوعية مغايرة للقول والوصف.

الثالثة: الآية في مفهومها بشارة ووعد وترغيب بالشهادة لما فيها من الثواب العظيم وأنه بيع أغلى شيء شخصي بأغلى قيمة عرفتها الكائنات بالإضافة إلى إعتبار إستدامتها وإستحقاق الإنسان المرتبة الرفيعة، وهو شاهد على تشريفه بأن نفخ الله فيه من روحه، ليلبغ أسمى مراتب هذا التشريف مع القطع بالعودة والرجوع إليه بمصاديق الشوق وهو إختيار القتل في سبيله تعالى كعنوان للحب والصدق وإخلاص العبادة، إنه فناء في ذات الله تعالى وهو سبحانه الشكور، فيجدد الحياة بأبهى وأسمى صورها شكراً لمن تجرد وتخلّى عنها في سبيله تعالى، لتكون هذه الهبة دائمة خالدة.

الرابعة: ورد لفظ (أَمْوات) بصيغة الجمع مع أنه بدء بلفظ (من) وإن إستعمل للمفرد، وورود الحياة بلفظ الجمع يدل على عظيم فضله تعالى وسعة رحمته ولتيسير مقومات الشهادة ونعتها ودرجات نيلها، والحياة وردت على نحو الإطلاق مما ينفي وجود فترة عدم في حياة الشهيد خصوصاً وأن نعت الإنسان بالموت يكون حال مغادرته الدنيا، فيسئل عنه فيجيب الناس أنه مات، أو أن القاتل يأتي بها إبتداء لهول الواقعة أو المصيبة فيشمل النهي الساعات الأولى لموته وكأنه حي في تلك اللحظات، ويؤيده معرفة

أسباب النزول وما فيها من النهي عن نعتهم بالأموات.

الخامسة : مضمون النهي أعم موضوعاً وزماناً من حال الموتى في عالم البرزخ، فالحياة في الآية خاصة بالشهيد ولا تشمل المؤمن والمسلم مطلقاً إلا أن يشاء الله سبحانه ، ولا تبدأ من دخوله القبر والحساب الأولي فيه من منكر ونكير ورومان إلا أن يشاء الله، وليس هناك فترة فلا إنقطاع عن الحياة كما هو ظاهر أسباب النزول في الرد على من قال عن الشهيد : مات فلان ، نعم يمكن اعتبار الشهيد من باب المثال الأمثل وأن الآية في عمومها تتعلق بعظيم منزلة المسلم في الآخرة إذا ورد دليل خاص في المقام.

السادسة : حياة الشهيد تعني أنه في عالم غير عالم القبر، وبما أن جسده يكون فعلاً في القبر فإن المدار على الروح والجسد المثالي الذي يكون على صورة بدنه في الدنيا لحين البعث والنشور، وحتى الجسد في القبر تغشاه الرحمة، لأن الله تعالى يعطي بالأوفى فيكون قبر الشهيد روضة من رياض الجنة.

السابعة : في حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد سئل "ما بال الشهيد لا يفتن في قبره فقال: كفى بالبارقة فوق رأسه فتنة"^(١) أي لمعان السيوف وشدة المعترك وفيه نوع تشريف للشهيد وهو مصداق لحياته بعد قتله وإكرام إضافي له ، وأن الشهداء إختاروا ضيافة الرحمن المستديمة والخالدة مما يجنبهم فتنة القبر وحساب منكر ونكير وتلك الحياة والضيافة تبدأ حال مغادرة الدنيا.

الثامنة : ان الأخبار عن حياة الشهيد سبب في تقوية النفوس والرغبة في الجهاد والإطمئنان لما بعد الموت.

التاسعة : في الآية رفع الرهبة وخوف الأعداء من النفوس، وبعد هذه الآية هل بقي عدم الشعور بحياتهم ام انه تغير، الجواب: ان الشعور هنا له

(١) الكافي الكليني ٨٢/٥.

معنيان، فالأول الإحساس بالحواس، والآخر الإدراك بالعقل، والآية غيرت الواقع في الأمرين لأن إخبار الله تعالى يخلق حالة مطلقة من الإدراك.

العاشرة : صيغة الإطلاق والتذكير فيمن يقتل في سبيل الله تدل على بقاء باب الشهادة وولوجه من قبل المؤمنين ما دامت أحكام القرآن نافذة شرعاً وعرفاً أي إلى يوم القيامة على التعريف بأن ما تكون آحاده غير موجودة دفعة وليس له ترتيب فهو من اللامتناهي، وما كانت آحاده موجودة دفعة فهو متناه لذا ترى الآية جاءت بصيغة المستقبل والعموم المستقراً بما في الفعل المبني للمجهول (يقتل) من السعة وتجدد الحدوث.

الحادية عشرة : في الآية بيان لفلسفة الترغيب في القرآن على نحو مركب إذ لا يتعلق الترغيب بما بعد الموت بل يتلقي عاشق الشهادة الموت وهو أشد أحوال الحياة مرارة فيكون سعادة بالذات والعرض ، فيشتاق المؤمن لذات القتل ويتلقاه وهو فرح مستبشر بما ينتظره من الخلود في النعيم وكأنه من مصاديق قانون العلة والمعلول والسبب والمسبب.

الثانية عشرة : هل الحياة ما بعد الموت وقبل البعث على نحو الحقيقة أي استعمال اللفظ لما وضع له، أو أنه على نحو المجاز أي إستعماله لغير ما وضع له بالأصل، الجواب إنه حقيقة للوعد الإلهي الكريم ولأصالة الحقيقة وظاهر النصوص ولأنه لا واسطة بين الحياة والموت.

وتبين الآية حقيقة وهي أن حس وشعور الإنسان قاصر عن الإحاطة بأسرار الخلق ووجوه الثواب العظيم الذي ينتظر المؤمنين، فمن المدركات العقلية التي يشير إليها القرآن عدم مخالطة ومصاحبة الموت للشهداء، فليس بين الناس وبين رؤيتهم في سعادة وبجوحة من العيش إلا أن تكشف عنهم حجة الغيب، ومنه هذه الآية التي وثيقة سماوية تشهد لهم بالحياة الأبدية.

قوله تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ الآية ١٥٥.

الإعراب واللغة

ولنبلونكم: الواو استئنافية وتصلح عاطفة، واللام: قيل انها موطئة للقسم وهي التي تدخل على اداة الشرط للدلالة على ان الجواب بعدها هو جواب قسم مقدر قبلها وليس جواباً للشرط، ومثل هذا الإعراب وان كان متعارفاً ومشهوراً وعليه اهل اللغة والتفسير الا انه لا يخلو من تكلف مركب من وجوه :

الأول: تقدير القسم.

الثاني: تحميل اللفظ معنى اكثر مما يعنيه.

الثالث: ترتيب احكام على هذا المذهب.

والأقوى ان اللام هنا لام الإبتداء وتسمى ايضاً لام التوكيد باعتبار انه معناها كما هو ظاهر الآية، وقد تكون ايضاً للعاقبة والصيرورة التي يكون ما بعدها نقيضاً لما قبلها كما قال النحويون، ولكن معناها اعم من ان ينحصر بالتناقض.

ولام الإبتداء تدخل:

الأول : على المبتدأ.

الثاني : على الخبر اذا تقدم في الكلام على المبتدأ.

الثالث : على الفعل الجامد وهو الذي يلزم هيئة واحدة فلا يزايلها .

الرابع : على الماضي سواء اقترن بقدا او لم يقترن بها.

الخامس : على المضارع كما هو في الآية الكريمة ، ومنهم من حصر وظيفة

لام الإبتداء بالدخول على المبتدأ دون الباقي الذي جعلوه جواباً لقسم مقدر والإطلاق هو الأصح والمدار على المعنى والمقاصد السامية في الآية وليس على قاعدة كلية في النحو تكون مصاديقها منقادة لها قهراً.

نبلونكم: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والمتعارف ان جملة (نبلونكم) لا محل لها باعتبار انها جواب قسم محذوف وطأت له اللام.

بشيء: جار ومجرور متعلقان بنبلونكم.

من الخوف: جار ومجرور متعلقان بصفة لشيء.

الجوع: عطف على الخوف.

ونقص: عطف على الخوف.

من الأموال: جار ومجرور، متعلقان بنقص لأنه مصدر نقص وبلحاظ كون (نقص) نكرة، فان الجار والمجرور في محل محذوف صفة لنقص.

والأنفس والثمرات: معطوفان على الأموال.

وبشر: الواو استئنافية، ويجوز ان تكون عاطفة، بشر: فعل أمر والفاعل مستتر تقديره أنت، الصابرين: مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم.

والإبتلاء: الإمتحان والإختبار، وقد يكون البلاء حسناً أو يكون سيئاً، وفي الحديث: "اللهم ربنا لا تبلىنا الا بالتي هي احسن"، ويقال: ابتلاه: أي امتحنه، والاسم البلاء.

الخوف: الخشية والظن بمحصول ضرر او فوات نفع في قادم الأيام وغم يعتري الانسان لتوقع مكروه، وبين الخوف والحزن عموم وخصوص من وجه، فمادة الالتقاء اصابة النفس بالغم والأذى، ومادة الافتراق الحزن على الواقع ونزول البلاء، أما الخوف فهو علة المتوقع.

الجوع: النقص البالغ في أكل الانسان وشربه وهو تقيض الشبع واسم للمخمصة، يقال: جاع يجوع جوعاً فهو جائع وجوعان، قال الشاعر:

أَجَاعَ اللَّهُ مَنْ أَشْبَعْتُمُوهُ

وَأَشْبَعَ مَنْ يَجُورُكُمْ أَجِيعًا^(١)

وأصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنون يحسون بجوع وإنجذاب لغذاء الإيمان، ويظهرون الثبات على العقيدة في حال الشدة والرخاء، والكافرون وإن شبعوا من الزاد إلا أن النقص العقائدي وتيه الضلالة يجعلهم في جوع وحاجة إلى الإيمان والارتواء من مشارب الشريعة السماوية السمحاء.

في سياق الآيات

بعد الدعوة إلى الصبر والترغيب فيه، وذكر الخصائص الكريمة لمرتبة الشهادة وما يتفرد به الشهيد من فيض وهبات ونعم ورفيع المنزلة جاءت هذه الآية لبيان أسباب ومقدمات الشهادة واحتمالها جنباً إلى جنب مع تغشي حالات الصبر لعموم المسلمين.

وتعتبر هذه الآيات مدرسة في الصبر والإسعانة بالله تعالى، وإخباراً عن الثواب العظيم الذي ينتظر المسلمين لما يعانون في سبيل الله.

صلة هذه الآية بالآيات المجاورة على شعبتين:

الأولى: صلة هذه الآية بالآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أَمْوَاتٌ﴾^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى: إتحاد لغة الخطاب في الآيتين، وتوجه كل منهما إلى المسلمين والمسلمات جميعاً.

الثانية: جاءت آية البحث بصيغة الجملة الإنشائية وإمضاء مشيئة الله،

(١) الأغاني ٤، ٣٨٦.

(٢) الآية ١٥٤.

وكذا آية السياق، ولغة النهي فيها تتضمن المدح والثناء.

الثالثة : يدل الجمع بين الآيتين على ما يلاقيه المسلمون من الأذى في جنب الله، لذا أختتمت الآية قبل السابقة بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١).

الرابعة : ذكرت آية السياق أن القتل الذي يلحق عدداً من المسلمين إنما هو ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

الخامسة : بين موضوعي الآيتين عموم وخصوص مطلق، فأية البحث أعم في موضوعها .

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه :

الأول : يا أيها الذين آمنوا لنبلونكم بشئ من الخوف والجوع .

الثاني : يا أيها الذين آمنوا لنبلونكم بنقص من الأموال والأنفس والثمرات.

الثالث : ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع استعينوا بالصبر والصلاة .

الرابع : استعينوا بالصبر والصلاة وبشر الصابرين .

الخامس : ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع إن الله مع الصابرين .

السادس : وبشر الصابرين إن الله مع الصابرين .

الثانية : آية البحث معطوفة على آية السياق، والضمير الكاف في (ولنبلونكم) يعود للذين آمنوا ليفيد الجمع بينهما أن الابتلاء يأتي بقيد الإيمان مما يدل على إنه ليس عقوبة لهم، إنما هو رحمة وتخفيف، وهذا

(١) الآية ١٥٣.

(٢) الآية ١٥٣.

المعنى ذاته تخفيف عن المسلمين ونيل الصبر تحمل للخوف والجوع وأسباب الإبتلاء الأخرى .

الثالثة : حالما بدأت الدعوة الإسلامية ونزول آيات القرآن جاء الأذى والحصار للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وأصحابه من كفار قريش ، وليس من حصر لضروب هذا الأذى .

وعندما هاجر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة المنورة لحقته قريش بجيوش عظيمة هي أضعاف جيش المسلمين من حيث العدد والعدة والمؤون ، وليس من سبب عقلائي لهذا الفعل فجاءت كل من آية البحث والسياق ليوافقه المسلمون الأذى بالصبر والدفاع عن بيضة الإسلام والرضا بالخسارة التي تلحق بهم لأنها واقية لهم في الدنيا والآخرة ومقدمة لسلامتهم وعقيدتهم (عن جارية عن علي رضي الله عنه قال: أصابنا من الليل طش من المطر يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر وبات رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ربه: "اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض!" فلما أن طلع الفجر، نادى: "الصلاة، عباد الله"، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحرّض على القتال)^(١).

وتتجلى في الحديث معاني الصبر والإستعانة بالصلاة ففي ساعة الشدة والتوجه إلى القتال يدعو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه إلى الصلاة لتكون حزراً ومدداً ذاتياً تتعقبه البشارة والمدد من السماء قال تعالى ﴿إِذ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ أَنِّي مُبِدِّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾^(٢).

(١) تفسير ابن كثير ٢٤/٤.

(٢) سورة الأنفال ٩.

الرابعة : أختتمت كل من آية البحث والسياق بالدعوة إلى الصبر والندب إليه ، وجاءت آية السياق بقانون كلي وهو أن الله عز وجل يكون مع الصابرين بما يخفف عنهم أثر الإبتلاء ، ويدفع عنهم صنوفاً منه وفي التنزيل ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾^(١).

وتضمنت آية البحث الأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن يشير الصابرين بالنصر والغلبة والثواب العظيم على تعاقد الإيمان مع توالي وجوه الإبتلاء .

وعن أبي بصير قال الإمام الصادق عليه السلام (لا بد أن يكون قدام القائم سنة يجوع فيها الناس ويصيبهم خوف شديد من القتل ونقص من الاموال والانفس والثمرات ، فإن ذلك في كتاب الله لين ، ثم تلا هذه الآية ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(٢) (٣).

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا﴾^(٤) ، وفيها مسائل :

- الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه :
- الأول : ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع فاذكروني .
- الثاني : ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع واشكروا لي .
- الثالث : ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ولا تكفروا .
- الرابع : فاذكروني أذكركم وبشر الصابرين .

(١) سورة البقرة ٢٨٦.

(٢) سورة البقرة ١٥٥.

(٣) النعماني / الغيبة ٢٠/٥ المتوفى سنة ٣٦٠ .

(٤) الآية ١٥٢.

الخامس : فاذكروني أذكركم وبشر الصابرين .

السادس : واشكروا لي ولا تكفرون وبشر الصابرين .

الثانية : تبين آية البحث أن الإبتلاء حق وهو واقع بالمسلمين ، وجاءت آية السياق ليتلقوه بالذكر والدعاء والثناء على الله بلحاظ أنه باب للأجر والثواب .

الثالثة : من الخصائص والشمائل الكريمة التي صارت ملكة عند المسلمين ملاقة الإبتلاء بذكر الله والشكر له والإقرار بنعمه عليهم ، وهو من خصال ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

الرابعة : الصبر الذي أختتمت به آية البحث واقية من الجحود وكفران النعم .

الخامسة : أخبرت آية البحث عن ضروب من الإبتلاء الذي يواجه المسلمون ، وجاءت آية السياق للسلامة من الجزع واليأس والقنوط والتفريط والجحود ، فالإنقطاع إلى الله عز وجل بالذكر يهون الإبتلاء ، ويزيد المسلم بصيرة بماهية الحياة الدنيا فيزهد فيها وينشغل بالذكر والشكر ويتحلى بالصبر .

ومن الإعجاز في هذه الآيات إختتام هذه الآية بقوله تعالى (بشر الصابرين) ثم مجيء الآية التالية بصفة الصابرين وأنهم الذين يسترجعون عند المصيبة لترغيب المسلمين بالإسترجاع وأنه مطلوب بذاته ، وهو وسيلة لنيل مرتبة سامية لم يفز بها إلا الأنبياء وعباد الله المخلصون وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢) ، وليبقى الصبر ملازماً للناس إلى يوم القيامة وعلى نحو ظاهر وبين في الحياة اليومية والشواهد

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

الواقعية بلحاظ أن الإسلام هو الديانة الباقية إلى يوم القيامة، وأن تحلي المسلمين بالصبر أمر يراه ويحس به الناس جميعاً، وفيه ترغيب بدخول الإسلام وتحبيب لمبادئه ودعوة للناس لعدم النفرة منها.

ترى لماذا لم تكن هذه الآية والآية التالية آية واحدة خصوصاً وأنها تبدأ باسم موصول (الذي) ويتعلق بخاتمة هذه الآية، والجواب أن الفصل بين الآيتين شاهد على إعجاز نظم القرآن وأن تقسيمه إلى آيات أمر توقيفي من عند الله عز وجل لأنه يتضمن وجهين:

الأول: بشارة الصابرين مطلقاً وجاء إختتام الآية به قرينة عليه، وفيه حث على إلتزام الصبر في حال الشدة والرخاء، وبيان لحقيقة وهي أن الحاجة إلى الصبر أعم من حال المصيبة والشدة، فتشمل حال الرخاء والسعة والجاه والسلطان، ومنع غلبة النفس الغضبية والشهوية.

الثاني: نيل مرتبة الصبر بقول ﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١)، والذي يدل عليه إتصال هذه الآية بالآية التي بعدها، وكأن الجمع بين الآيتين من عطف الخاص على العام، مع توكيد الخاص وبيان أهميته، وفيه نكتة عقائدية وهي أن الإسترجاع عند المصيبة سبيل للإحتراز من الغرور والإفتتان بزينة الدنيا عند إقبالها فلا بد من الرجوع إلى الله عز وجل .

لقد ذكرت هذه الآية وجوها متعددة من الإبتلاء ومقدماته، وجاءت الآية التالية بالحث على الإسترجاع، ثم جاءت الآية بعد التالية ببيان المنافع والغايات الحميدة للإسترجاع وأنها أكثر من أن تحصى من وجوه :

الأول: لغة الجمع في قوله تعالى (صلوات من ربهم)^(٢).

الثاني: الصلوات من الله عز وجل الذي يعطي الكثير بالقليل، ونسبتها الآية بأنها من ربهم في دلالة على فضل الله عز وجل على المسلمين، ورضاه

(١) الآية ١٥٦.

(٢) الآية ١٥٧.

عنهم بتقيدهم بأداب الإسلام عند المصيبة.

الثالث: البشارة بنزول رحمة الله على المسلمين عند الإسترجاع بصيغة العموم والخصوص، وهذه الرحمة أعم من أن تنحصر في موضوعها وزمانها بذات المصيبة، بل هي متصلة ومتجددة، وهل ينحصر موضوع ونزول الصلوات بالحياة الدنيا وذات المسلم الذين يسترجع أم هي أعم الجواب هو الثاني إذ أنها شاملة للنشأتين، ولا ينحصر موضوعها بذات المسترجع بل تتغشى ذريته ومن ينتفع منه، ومن أعانه وأرشده إلى الإسترجاع قبل المصيبة وعند نزولها، فقد يغفل الإنسان عن الإسترجاع ساعته ليهول الصدمة فيقوم بعضهم بإرشاده إليه مع الإتيان بالإسترجاع لتذكيره، وهو من عمومات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعمومات قوله تعالى ﴿وَتَجَاوَزْ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾^(١).

إعجاز الآية

الأولى : الآية توطئة وتمهيد لما سيلقي المسلمين من الأذى والكيد وبعث الإستعداد له في نفوسهم وأعمالهم.

الثانية : في الآية أخبار عن وقائع واحداث جسيمة يتعرض لها المسلمون.

الثالثة : من اعجاز الآية انها لم تذكر هذا الواقع المؤلم فقط بل تضمنت البشارة والوعد، وهو سلاح لتلقي وجوه الإبتلاء ويساهم في تنمية ملكة الصبر، وهو من لوازم الإيمان ومن مقدمات وشرائط النصر.

ونسبت الآية صدور إبتلاء المسلمين وأنه من عند الله عز وجل، وهو الذي بيده مقاليد الأمور، وهذا الإبتلاء من مصاديق الربوبية المطلقة له سبحانه، وإختباره للعباد وملكيته للأرض وأنها ملكية تدبير وتصرف فإن قلت لماذا يأتي الإبتلاء للمسلمين، الجواب لإرادة الثواب والجزاء الحسن

لهم قال تعالى ﴿وَلْتَبْلُوْنَكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِيْنَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِيْنَ وَنُبَلِّغَ أَخْبَارَكُمْ﴾^(١).

وتدل الآية أعلاه على تعدد وجوه الإبتلاء ، فمنها ما يخص باب الجهاد والقتال ، ومنها ما يتعلق بالصبر مطلقاً ، وبينهما عموم وخصوص مطلق إذ يشمل الصبر حياة المسلم في الحضر والسفر ، وجاءت آية البحث بالمعنى الأعم وهو الصبر في البأساء والضراء ، ومن إعجازها صيغ التخفيف فيها من وجوه:

الأول : إخبار الآية بأن البلاء الذي يصيب المسلمين من عند الله عز وجل للتسالم بأنه عز وجل هو الرؤوف الرحيم.

الثاني : لغة التبعض بقوله تعالى (بشيء من) وتقدير الآية بشيء من الخوف فلا ينزل الخوف على الأمة كلها ولا يصيب الفرد من المسلمين طيلة أيام حياته وكذا بالنسبة للجوع.

الثالث : تخفيف الخوف بالتوكل على الله واللجوء إليه سبحانه ، قال تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٢).

الرابع : تأكيد الآية على عدم تلف الأموال وزهوق الأرواح بل يصيب الأموال النقص ، مع قلة الربح وليس إنعدامه.

الخامس : جاءت الآية السابقة بالإخبار عن حياة الشهداء عند الله وعظيم منزلتهم في النشأتين ، فهم لم يتركوا الدنيا إلا بعد أن نالوا مرتبة الشهداء بين الناس.

السادس : التخفيف في وقع المصيبة ، والتقليل من الحزن والكدورة التي تصاحب البلاء وتتعبق المصيبة.

(١) سورة محمد ٣١.

(٢) سورة الرعد ٢٧.

السابع : إختتام الآية بالبشارة للمسلمين على صبرهم، وكأن خاتمة الآية تخبر عن زوال البلاء عن المسلمين وإنقطاعه بالنصر، والظفر للمسلمين، وإنحسار الخوف، وذهاب الجوع، وحصول الزيادة في الأموال، وسلامة المسلمين من القتل المتعدد في سوح المعارك، ووتبشر بكثرة الريع والثمار، وتتجلى هذه المعاني في هذا الزمان بظهور خزائن الأرض للمسلمين، وزيادة النعم عليهم وهو من مصاديق البشارة في دعاء إبراهيم كما ورد في التنزيل ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾^(١).

الثامن : الإبتلاء والأذى الذي يتعرض له المسلمون طريق ومادة لتثيت دعائم التوحيد وسنن العبادة في الأرض، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

التاسع : بيان المائز بين أهل الإيمان وغيرهم، فقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار إمتحان وإبتلاء ، والمؤمنون يصبرون فيها حبا لله وطلباً للأجر والثواب .

أما الكفار فأنهم يجزعون ولا يمتلكون القدرة على القيام من غير إنحناء بوجه المحن التي تواجههم، لذا ورد قوله تعالى ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾^(٣)، ليكون من الدلائل على ما حل بهم وعمارتهم من المحق والزوال أنهم كانوا قليلي الصبر، سريعي الجزع ، كثيري الخوف، ولم يصبروا على أذى الدنيا، وأصروا على التكذيب بالآيات فكانت عاقبتهم اللبث في حر جهنم، قال تعالى في ذم الكفار ﴿فَمَا

(١) سورة البقرة ١٢٦.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة آل عمران ١٣٧.

أَصْبِرْهُمْ عَلَى النَّارِ^(١).

العاشر: التعاون والتعاقد بين المؤمنين في تلقي المصيبة وعدم مغادرتهم لمنازل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحصى والسهر^(٢).

الحادي عشر: الثواب العظيم الذي ينتظر المسلمين على صبرهم، والأجر على حبهم لله بتلقيهم الأذى في سبيله من غير جزع، قال تعالى ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣).

ومع تعلق منطوق الآية بالإبتلاء وتعدد ضروبه فإنها تتضمن في ثناياها الوعد الكريم بالأمن والسلامة للمسلمين وزيادة ثرواتهم لأن لغة الجزئية والتذكير في الآية (بشيء من) تفيد معنى قلة أيام الإبتلاء في أفراد الزمان وتقدير الآية لنبلونكم في بعض الأيام.....) بالإضافة إلى حقيقة وهي أن هذا الإبتلاء حرز وواقية من تكرار طرؤ أسبابه لتغير الحال، وخروج المسلمين منه بعد هذه الآية بالصبر والتحمل والظفر، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤)، وتدل عليه خاتمة الآية، وما فيها من الوعد الكريم والأمر المنجز بالبشارة في خاتمة الآية.

ويمكن أن نسمي هذه الآية آية (ولنبلونكم) وورد هذا اللفظ في القرآن

(١) سورة البقرة ١٧٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٣١٩/١.

(٣) سورة النحل ٩٦.

(٤) سورة المنافقون ٨.

مرتين وفي ذات الموضوع^(١).

الآية سلاح

تساعد الآية المسلمين مساعدة عظيمة في تحمل ما يواجهون من المشاق والأذى سواء بما فيها من إخبار أو ما تتضمنه من الدعوة إلى الصبر والثبات على الإيمان.

والآية واقية من الفرع والخوف والحزن ، لما فيها من علم الغيب والإخبار عن حال المسلمين وما يلاقونه من الأذى في جنب الله.

ومن الإعجاز فيها انها ومع إخبارها عن الإبتلاء الشديد أختتمت بالبشارة بالفوز والظفر.

والآية حرز من شماتة الأعداء ، وسلامة من شكوك المنافقين ودعوة للمسلمين لعدم الإلتفات إليها وإلى جدالهم وما يثيرونه من أسباب الشك والريب ، وفيها تنقية لأداب المسلمين في باب الإنبعاث للدفاع عن الإسلام ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرُبَىٰ لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾^(٢).

والتوقي والحرز هنا لإدراك المسلمين أن الإبتلاء من عند الله وأنه يتضمن التخفيف والتيسير، وصيرورة الإبتلاء والأذى إلى زوال وهذه الآية مناسبة للدعاء والإستغفار وسؤال التخفيف ومحو الإبتلاء ، قال تعالى ﴿يَسْأَلُكَ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٣) ، وتتجلى موضوعية وأثر الدعاء في المقام من وجوه:

(١) سورة محمد ٣١.

(٢) سورة آل عمران ١٥٦.

(٣) سورة الرعد ٣٨.

الأول : نزول الإبتلاء من عند الله وهو الرؤوف الرحيم بالمؤمنين.
الثاني : مجيء الآية بصيغة الإكرام والإخبار الذي يفيد لزوم أخذ الحيلة والإستعداد وتلقي الإبتلاء بالقبول.
الثالث : صيغة التنكير في الآية من غير تعيين لنوع وماهية الخوف والجوع بلفظ (بشيء من...).

الرابع : لغة التبعض والجزئية التي يدل عليها حرف الجر (من) في قوله تعالى ﴿مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ...﴾ وعن أبي سعيد الخدري قال: قلنا يوم الخندق : يا رسول الله هل من شيء نقول: فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: نعم . قولوا : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، قال : فضرب الله وجوه أعدائه بالريح فهزمهم الله بالريح^(١).

الخامس : ورود البشارة في خاتمة الآية للصابرين بلغة الوعد الكريم من عند الله ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.

مفهوم الآية

جاءت الآية خطاباً للمسلمين، وإخباراً عن المشقة في دروب الجهاد، وما هو أعم من الجهاد فالإتماء للإسلام والتقيد بأحكامه باب للإبتلاء، مما يدل على توجه الأعداء لمحاربة الإسلام، والتضييق على المسلمين وذكرت الآية مواضيع متعددة للإبتلاء وهي:

الأول: الخوف مما يطرأ على المسلمين.

الثاني: الجوع وقلة الغذاء والمؤون.

الثالث: نقص الأموال.

الرابع: حدود القتل بالمسلمين.

الخامس: نقص الريع والثمار.

وتضمنت الآية التخفيف عن المسلمين من وجوه:

الأول: نسبة الإبتلاء الى الله تعالى، وأنه هو الذي يبتلي المسلمين، وفيه عز لهم، ودعوة لرجاء رحمته وإحراز رضاه، والفوز بالثواب، والآية حث على الفرار الى الله عز وجل.

الثاني: مجيء الآية بلغة التبعية "بشيء من" وهذا التبعية ومقدار الإبتلاء من الكلي المشكك الذي له مراتب متفاوتة شدة وضعفاً وكثرة وقلة، من وجوه:

أولاً: مقداره في كل فرد من أفراد الإبتلاء الخمسة في الآية.

ثانياً: ما له من كم وكيف عند كل جيل من المسلمين، بل كل يوم من أيامهم.

ثالثاً: أثر وقوع الإبتلاء عند كل مسلم ومسلمة.

الثالث: إستدامة لغة خطاب الى المسلمين كافة تتصف بالإيمان وقد مدح الله المسلمين بقوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ فيأتي الإبتلاء مصداقاً لحال التحمل والصبر عندهم.

الرابع: حصول الغلبة والظفر بالصبر.

إفادات الآية

الإيمان إرتباط بين عالم الشهادة وعالم الغيب، وأفضل إختيار يقدم عليه الإنسان، ويلزمه في حياته كلها لا يغادره وان تلقى الأذى بسببه، والإيمان يخفف هذا الأذى، ويجعله سياحة في عالم الملكوت.

وجاءت هذه الآية بدعوة المسلمين للإستعداد لتحمل الأذى في جنب الله مع إخبارها عن تحقيق الظفر والنصر بالصبر والجهاد والعزم على دفع الأذى بالإيمان، والآية انحلالية تنحل بعدد المسلمين والمسلمات، في تلقيهم لموارد الإبتلاء والعناء في سبيل الله، وتؤكد الآية بان الله عز وجل له الفعل

والتأثير المطلق على الخلائق وانه سبحانه يفعل الأحسن والأفضل، ومدرسة الإبتلاء تثبيت للإيمان في النفوس وفي الأرض الى يوم القيامة.

إن نسبة صدور الإبتلاء الذي يلحق المسلمين لله عز وجل وما يصيبهم من الأذى في مرضاته هو من عند الله لقوله تعالى (لنبلونكم) باعث للصبر في نفوسهم، وسبب لجعلهم يتلقون صنوف الأذى التي تأتي من الكفار بالرضا والثبات في مقامات الإيمان ، وتدل الآية بالدلالة الإلتزامية على الثناء على المسلمين من جهات:

الأولى : مجيء البلاء للمسلمين على نحو العموم الإستغراقي والمجموعي لأصالة الإطلاق في لغة الخطاب (ولنبلونكم).

الثانية : تشريف المسلمين بأن البلاء الذي يأتيهم هو من عند الله.

الثالثة : تجلي معاني الصبر والجهد في حياة المسلمين العامة ، قال تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَعْلٍ﴾^(١).

الرابعة : الثواب العظيم الذي ينتظر المسلمين على البلاء الذي ينزل بهم، وهذا الثواب من خصائص ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، فيتوجه لهم البلاء من عند الله ويمدهم سبحانه بمقدمات وأسباب الصبر والتوفيق ويأتيهم الثواب المتعدد على البلاء والصبر عليه، وتعاهد سنن الشريعة.

الآية لطف

من أسماء الله تعالى "الرحمن الرحيم" ويرددهما كل مسلم ومسلمة عدة مرات في الصلاة اليومية ورحمته تعالى تتغشى الناس جميعاً، وجاءت الآية بالإخبار عن ابتلاء المسلمين وهم أهل الإيمان والتقوى والأمة العدل ، قال

(١) سورة التوبة ١٦.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(١)، مما يدل على ان هذا الإبتلاء رحمة، وأنه من عند الله .

وتؤكد خاتمة الآية الكريمة البشارة للمسلمين التي تتضمن حثهم على الصبر والتحمل فقوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أعم في موضوعه من ضروب الإبتلاء التي تذكرها الآية ، فيدخل فيه الصبر على الطاعة وأداء الفرائض العبادية والصبر عن المعصية .

وهل الإبتلاء الذي يصيب المسلمين برزخ دون المعصية بلحاظ كبرى كلية وهي : من العصمة إمتناع المعصية، وأن الذي ينشغل بالإبتلاء يتنزه ويتجنب إرتكاب الذنوب لأنه في حال دائمة من الصبر والدعاء ورجاء السلامة في الدين، الجواب نعم ولكن هذا الإنشغال ليس علة تامة لهذا التنزه إنما هو فرع الإيمان.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى : تبعث الآية المسلمين على الوحدة والإتحاد بينهم استعداداً لتلقي البلاء.

الثانية : تحث الآية على الإعتصام بالله عز وجل والتمسك بالقرآن والسنة، وهي من مصاديق قوله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٢)، بلحاظ أن التمسك بأحكام الشريعة والأخوة الإيمانية في حال الرخاء والشدة، والسعة والضيقة.

الثالثة : تشيع الآية بينهم روح التعاون لمواجهة البلاء ودفع الخوف وأسبابه وطرده الجوع بالتقيد بأداء الزكاة الواجبة والمستحبة والصبر على

(١) الآية ١٤٣.

(٢) سورة آل عمران ١٠٣.

نقص الأموال الذي يأتي من الإنشغال بالجهاد في سبيل الله، ومن محاربة أعداء الإسلام للمسلمين، قال تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾^(١).

الرابعة : تنمي الآية ملكة الصبر عند كل مسلم ومسلمة، وعند المسلمين كأمة متحدة في تلقيها للأذى في جنب الله.

وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، فتتجلى معاني الصبر في جنب الله على المسلمين لتكون مادة لجذب الناس لسبيل الهداية والرشاد، وفيه نكتة وهي مع إبتلاء المسلمين بأسباب الأذى فإنهم يواظبون على الدعوة إلى الله، وفي ذات البلاء بيان لصدق الإيمان وطرده لأسباب الجهالة والغرر.

الخامسة : هناك تباين في تلقي البلاء وشدته بين حال الإستعداد له وبين نزوله فجأة ودفعة واحدة، وتدعو هذه الآية أهل الاختصاص في علوم الطب والنفس والإجتماع إلى بيان وجوه الاختلاف فيه، ومنافع ظن وقوعه. وقد جرت عادة الناس على تهيئة ذهن صاحب المصيبة لقبولها بالتلميح والإشارة والإتيان بالمقدمات.

فهل القرآن بذات السنخية والطريقة، الجواب إنه أعظم وأظهر لأن صبغة الإعجاز ظاهرة في كل سنن الهداية التي جاءت في نص وثنايا آياته ، ومنها آية البحث التي تتضمن إلى جانب تهيئة المسلمين لنزول المصيبة والبلاء وجوهاً:

الأول : الإخبار بأن البلاء آت ونازل من عند الله مما يدل بالدلالة التضمنية أنه موضوع للرحمة والعفو.

الثاني : البلاء الذي ينزل بالمسلمين من المقدمات الموضوعية لقوله

(١) سورة المائدة ٢.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾^(١)، وعن عطاء بن يسار قال: خرج إبراهيم عليه السلام بابنه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام ، فتمثل له الشيطان في صورة رجل ، فقال له : أين تذهب؟ فقال إبراهيم : عليه السلام ما لك ولذلك . . ! اذهب في حاجتي

قال : فإنك تزعم أنك تذهب بابنك فتدبجه قال : والله إن كان الله أمرني بذلك أني لحقيق أن أطيع ربي ، ثم ذهب إلى ابنه وهو وراءه يمشي ، فقال له : أين تذهب؟ قال : اذهب مع أبي فقال : إن أباك يزعم أن الله أمره بذبحك ، فقال له مثل ما قال إبراهيم ، ثم انطلق إبراهيم عليه السلام ، حتى إذا كانوا على جبل قال لابنه { يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى

قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين } ويا أبت أوثقني رباطاً ، لا ينتضح عليك من دمي ، فقام إليه إبراهيم بالشفرة ، فبرك عليه ، فجعل ما بين ليته إلى منحره نحاساً لا تحيك فيه الشفرة ، ثم إن إبراهيم التفت وراءه ، فإذا هو بالكبش فقال له : أي بني قم فإن الله فداك ، فذبح إبراهيم الكبش ، وترك ابنه ،

ثم إن إبراهيم عليه السلام قال : يا بني إن الله قد أعطاك بصبرك اليوم ، فسل ما شئت تعطى قال : فياني أسأل الله أن لا يلقاه له عبد مؤمن به ، يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إلا غفر له وأدخله الجنة^(٢).

الثالث : تقدير الآية: لنبلونكم أيها المؤمنون..... وهذا الخطاب دائم ومتصل ومتجدد ليدل على حقيقة وهي ثبات المسلمين في منازل الإيمان وعدم زلزلة الإيمان في النفوس بسبب هذا الابتلاء وفيه شاهد على

(١) سورة آل عمران ١٣٣.

(٢) الدر المنثور ٣٤٩/٨.

كونهم ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

الرابع : التصديق بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإتباعه يتضمن الإبتلاء وتلقي الأذى ليكون طريقاً إلى الخلود في النعيم ، فكما يتأذى الجندي في الميدان فكذا المسلم في ميادين الحياة اليومية وفي حله وترحاله فهو في معرض الإبتلاء ليتلقاه بالصبر والرضا طاعة ورجاء الثواب.

الخامس : إقتران نزول البلاء بالمسلم بعظيم الثواب من عند الله لينفرد القرآن بخصوصية في المقام وهي أن الإستعداد للبلاء لا ينحصر بتهيئة الإنسان لقبوله وعدم حدوث الصدمة وشدة الإنفعال عند رؤيته أو الإخبار عنه، بل يدرك المسلم ملازمة الثواب العظيم للبلاء والمصيبة وإن كانت شخصية كقصد حبيب فيخفف عنه الألم، ويتطلع إلى رحمة الله ورضوانه لذا ورد في الآية التالية التأكيد على الإسترجاع عند المصيبة.

السادس : قد تهيء مقدمات إخبار الإنسان على ما حلّ به من مصيبة ولكنه عندما يعلم حقيقة بوقوعها تتغشاها الحسرة والألم، ويهجم عليه الحزن دفعة واحدة أو تدريجياً ولا يفارقه إلا بعد طول مدة وتعاقب للأيام والأشهر، أما بالنسبة لسنن الهداية والإعجاز في تهيئة القرآن المسلم لقبول المصيبة فتتجلى بإدراكه بأن البلاء مكتوب عليه، وأن فيه الأجر بالإضافة إلى صيرورة البلاء مادة لتثبيت الإيمان في الأرض وإقامة الحجة على الناس.

مفهوم الآية

الآية توطئة ومقدمة لخلق ملكة الصبر في النفس واعداد المسلمين لمراحل الجهاد متعدد الجوانب والآثار، ولمنع التداعي العام وطرده روح اليأس عندما تمر على المسلمين أيام شداد وحالات اعتداء ويكونون قلة في العدد والعدة، وفيها إخبار عن اقتران النصر والظفر بالصبر وتحمل العناء في سبيله

(١)سورة آل عمران ١١٠.

تعالى، وجاءت البشارة في الآية على نحو الإطلاق أي من غير تقييد بأيام الحياة الدنيا أو الآخرة، أما في الآخرة فالبشارة هي عظيم الثواب، أما في الدنيا فهي النصر والظفر وتجاوز المحن وحصول الفرج بعد الشدة واليسر بعد العسر، والشواهد على ذلك كثيرة ومتعددة وفي كل زمان ومكان من بلاد المسلمي وعامة بقاع الأرض.

وبينما بدأت الآية بلغة الخطاب للمسلمين في أجيالهم المتعددة فانها انتهت بقاعدة كلية وبلغة الغائب مما يعني بالإضافة الى شمول القاعدة مضمون الخطاب اموراً:

الأولى : انها اعم من ان تنحصر بالمسلمين وزمان التنزيل فتشمل الصابرين من المسلمين منذ ان هبط آدم الى الأرض.

الثانية : لا تتعلق بالقتل في سبيل الله وحده فتشمل المسلمين الذين يعانون من قلة ما في اليد وسوء الأحوال المعاشية.

الثالثة : تخص الآية المستضعفين من المسلمين وما يلاقونه من الظلم .

الرابعة : تتعلق الآية بالأحوال الشخصية والحوادث فلغة الجمع في (ولنبلونكم) انحلالية تشمل ما يتعرض له الفرد المسلم من الأذى والضرر والإبتلاء وفقد الأحبة.

الخامسة : في الآية مواساة لأهل واحة واصحاب من يقتل في سبيل الله فبعد ان بينت الآية السابقة حالة الشهيد وانه حي عند الله عز وجل جاءت هذه الآية لمواساة اهله واحبته وهي في مفهومها تخبرهم عن نيلهم لمراتب عظيمة من الثواب لفقدانهم شخص الأب او الأخ او الابن شهيداً مع انهم لم يقوموا بأي عمل جهادي، وهذا من اعجاز الآية وفلسفة الشهادة والصبر في الإسلام اذ تترشح افاضات الشهيد على اهله واحبائه لذا ترى البركات

تنزل أحياناً على ابنائه وذريته من بعده ، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾^(١).

التفسير

قوله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾

الأولى : نسبة صدور البلاء اليه تعالى مدرسة في العلوم الإلهية.
الثانية : هذه النسبة تدل على نيل درجات الثواب في تحمل المشقة والعناء في جنب الله.

الثالثة : الآية دعوة لذكر الله عز وجل عند الشدة والألم وفيها نفي للجزع وطرو الخوف والطيرة.

الرابعة : الإختبار والإمتحان منه تعالى وان صدر التسبيب من المشركين والكافرين بقصد محاربة الإسلام.

الخامسة : الله عز وجل لم يحرضهم على إيذاء المسلمين ولكن أفعالهم هذه ما كانت تتم لو لم يأذن تعالى بحصولها.

السادسة : ترى لماذا هذا الإذن والمؤمنون أولياء الله؟ الجواب كي يثابوا على صبرهم وتحملهم العناء والأذى ويعاقب الكافرون بما اقترفوا من الذنوب والتعدي على المسلمين.

السابعة : انها سنة الله في الخلق وسبيل لتمحيص المؤمنين ونيلهم الدرجات العلى عن استحقاق ، قال تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾^(٢).

الثامنة : البلاء في الآية اعم من الذي يأتي من المشركين فانه يشمل

(١) سورة الطور ٢١.

(٢) سورة محمد ٣١.

الأسباب والكوارث الطبيعية والحوادث والوقائع الشخصية التي تدخل ضمن الإمتحان والإبتلاء.

التاسعة : خطاب الإبتلاء في الآية خاص بأصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما ذهب اليه عطاء والريبع، وكأنهما ذكرا قولاً يعتبر برزخاً بين اسباب النزول واطلاق الآية اذ يشمل كل المسلمين والى يوم القيامة وان تباينت درجات الإبتلاء من زمان الى آخر ومن شخص او جماعة الى غيرهم.

العاشرة : الخطاب في الآية يشمل بالأولوية النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لذا ورد عنه : "ما اؤذي نبي مثل ما اؤذيت"^(١).

الحادية عشرة : ولكن الخطاب منحصر بالمؤمنين الذين آمنوا بالرسالة الإسلامية بدليل الواو في ﴿لَتَبْلُوكُمْ﴾ ، وعطفها على قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ...﴾ بل ان موضوع هذه الآية والآيتين السابقتين واحد ويتعلق بكيفية التعامل مع الإبتلاء باعتماد سلاح الصبر، ولفظ جميع الخلق يشمل غير المسلمين واذا صبروا على الباطل ومعاقبة المسلمين لهم مثلاً فليس فيه بشارة لهم انما هو اذار ووعيد وغضب الهي، والابتلاء غير العقاب والاستدراج وصيغ الانتقام او الغضب الإلهي، نعم يمكن شمول موضوع الآية للناس جميعاً، فالمسلم يثاب على ابتلائه وصبره، والكافر يؤثم ويعذب الا ان الإبتلاء درس وباب للهداية لمن يستطيع الإلتفات اليه والولوج فيه.

وفي الإبتلاء الذي ذكرته هذه الآية كالخوف والجوع وجوه:

الأول : المراد أن الله عز وجل يعلم بها، وما يراد من المصائب على المسلمين بإذن الله وهو مكتوب عليهم ، وفي التنزيل ﴿قُلْ لَنِي يُصِيبُ مَا كُتِبَ

اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ﴿١﴾.

الثاني : هذا الإبتلاء وضروبه في سبيل الله.

الثالث : فيه تأديب للمسلمين.

الرابع : إنه نوع عقوبة عاجلة للتوقي من العقوبة الآجلة ومحوها.

الخامس : إنه واقية من الظلم والتعدي.

السادس : سنة الله في الخلق، وهو أن كل أمة تبتلى بالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات.

السابع : إرادة الثواب للمسلمين.

الثامن : رجاء سؤال المسلمين العفو والتخفيف لذا جاءت آية البحث بصيغة التنكير والتبعض (بشيء من) قال تعالى ﴿يُحُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُثِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٢).

التاسع : بيان قانون كلي في حياة الإنسان في الأرض وهو عدم التعارض بين ورود عظيم النعم على المسلمين ونزول الإبتلاء بهم مجتمعين ومتفرقين.

العاشر : الإبتلاء مقدمة للثبات على الإيمان.

الحادي عشر : من خصائص ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٣)، تلقي صنوف الإبتلاء وصبرهم عليها.

الثاني عشر : في الإبتلاء تنمية للملكة الصبر عند المسلمين لتكون مصاحبة لمراتب التقوى عندهم ومادة لتعاهدتها.

الثالث عشر : تفقه المسلمين في الدين ومعرفة حقيقة أن الإبتلاء مصاحب للدنيا.

(١) سورة التوبة ٥١.

(٢) سورة الرعد ٣٩.

(٣) سورة آل عمران ١١٠.

الرابع عشر : إرادة الأجر والثواب للمسلمين والمسلمات، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما يُصيب المسلم من وَصَبٍ، ولا نَصَبٍ، ولا سقم، ولا حَزَنٍ، حتى الهم يَهْمُهُ، إلا كَفَّرَ به من سيئاته^(١).
وباستثناء الوجه الرابع أعلاه فإن الوجوه الأخرى كلها من مصاديق الآية.

قوله تعالى ﴿بَشِيْرٌ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾

الأولى : الشيء هنا للتبويض والطائفة وليس مطلقاً، وورود الجزئية يحمل على التبويض في الزمان والمكان بما في ذلك سوح القتال.

الثانية : الخوف ينجم عن تهديد المشركين وعداوتهم للمسلمين وخوض المعارك معهم ومحاولتهم التعدي على الإسلام والحاق الأذى بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين.

الثالثة : الخوف على مراتب تشكيكية متفاوتة فقد يكون في حال أشد وأظهر من حال ففي الحرب والمعركة أشد منه في حال السلم والحضر، ويكون عند شخص أبين من شخص، وإن كانت الحال واحدة بسبب التركيبة النفسية للأشخاص والقدرة على التحمل ودرجة الإيمان والتجرد عن الدنيا ونحوه، والآية تنفع في التقليل منه نوعاً وعند الأفراد فقد يكون أحد المسلمين أكثر من غيره خوفاً من العدو ولكن وبهذه الآية يتضاءل أو ينعدم عنده الخوف.

الرابعة : الآية وثيقة سماوية تظهر بجلاء ما عاناه الصحابة والمسلمون الأوائل ، والأجر الذي اعد للصابرين منهم.

الخامسة : التبويض في الآية يحمل على الإطلاق فلا ينحصر بالكم بل يشمل الزمان والمكان ، ومفهومه ان الإبتلاء مقيد زماناً ومكاناً مما يعني انه ليس مؤبداً.

(١) صحيح مسلم ١٦/٨.

السادسة : دعوة المسلمين للتعاقد والتعاون بينهم لدفع الضرر وتخفيف الأثر، قال تعالى ﴿وَاغْتَصِبُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١).

السابعة : الخوف أمر عرضي وكيفية نفسانية زائلة لذا جاء تبغيضه في الآية للإخبار بانه عرض مؤقت، فالآية تتضمن ايضاً البشارة بزواله الأمر الذي يدل بالدلالة الإلتزامية على حصول النصر والفرج وانتفاء اسباب الفزع.

الثامنة : الخوف من اهم وجوه الإختبار لأنه يصاحب اخطر مراحل تثبيت الحكم الإسلامي وله وجوداً او عدماً تأثير في استمرار الجهاد او تقييده.

التاسعة : جاءت هذه الآية لمنع تسرب اليأس والقنوط الى النفوس ودفع تأثير شكوك وافتراءات الأعداء على المسلمين الذين يستغلون بعض الوقائع والأحداث ويتحدون المسلمين ويقولون لو كنتم على حق لأنتصرتم في كل واقعة ومن غير خسارة او تقديم الشهداء.

العاشرة : جاءت الآية لقطع الطريق عليهم ولتهيئة المسلمين لحالات الفزع والخوف وللإخبار بانها طريق الى الجنة وعظيم الثواب وان المؤمن لن يخسر شيئاً ما دام عمله في سبيل الله، يخاف قليلاً ليفرح في الجنة على نحو دائم مستديم.

الحادية عشرة : اما بالنسبة للجوع الذي يصيب المسلمين فهو ايضاً على نحو السالبة الجزئية ، والمراد منه على وجوه:

الأول : حالات القحط والجفاف والجذب بسبب الأحوال المناخية والطبيعية.

الثاني : الضيق وحالات الحرب الإقتصادية ومحاربة المسلمين في ارزاقهم على نحو عام او شخصي كما في تعرض النبي واهل البيت للحصار في شعب ابي طالب، ومن الشخصي محاربة المؤمن من ذويه الكفار.

(١) سورة آل عمران ١٠٣.

الثالث : انشغال المسلمين في معارك الجهاد واضطرارهم الى ترك طلب المعاش.

والأقوى ان الوجوه الثلاثة مشمولة بمضمون الآية الكريمة لأنها من عند الله وان اختلفت في الكيفية.

الثانية عشرة : جاءت الآية لمنع تسرب الشك الى النفوس ولأجل منفعتهم الأخروية مع وجود مصالح ومنافع دنيوية أخرى محسوسة او مدركة عقلاً او ان او هام البشر لا تصل اليها.

الثالثة عشرة : الآية حجة وسلاح ودليل وحصانة ضد اهل الريب الذين يحاولون استغلال أي مناسبة للهجوم على الإسلام فاذا ابتلي المسلمون بشيء بسبب العقيدة او الدين او بسبب الأحوال الطبيعية يقولون: لو كنتم على الحق لما حدث هذا ولما اصابكم هذا البلاء ، فكشفت الآية الكريمة على ان البلاء للمؤمن رحمة وموعظة وامتحان، وللكافر عذاب وعقاب ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾^(١).

الرابعة عشرة : ان البلاء تمحيص واختبار وكشف لحقيقة الإيمان ومقدمة للإنتقال الى ما هو اهم ولمواصلة الجهاد.

الخامسة عشرة : قد يأتي الجوع والفاقة وتظهر الحاجة بسبب الانشغال بالدفاع والجهاد والمرابطة في الثغور، وقد يعتمد العدو مواصلة التهديد لإشغال المسلمين ومنعهم عن مزاولة الحياة اليومية.

السادسة عشرة : الآية دعوة للصبر والتحمل وعدم المفاجأة او حصول الصدمة.

السابعة عشرة : فيها تنبيه كريم ونفي لآثار مباغته العدو.

الثامنة عشرة : انها دعوة لعدم الإلتفات الى هذا الإبتلاء.

التاسعة عشرة : في الآية حث على طاعة الله ورسوله والإستمرار في الجهاد.

العشرون : تتضمن الآية الترغيب بالخروج مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الكتائب ومواصلة المسلمين الجهاد والدفاع والفتوحات من بعده.
الحادية والعشرون : في الآية توطئة نفسية واخبار اجمالي عما هو متوقع الحصول.

الثانية والعشرون : فيها تقوية لنفوس المسلمين، كما انها تساهم في التقليل من أثر الخوف، والاخبار التي ترد في تهويل قوة العدو.

الثالثة والعشرون : الإخبار الوارد في الآية لا يمنع من أخذ الاستعدادات التعبوية والاعلامية والنفسية للتقليل من أثر الخوف والجوع.

الرابعة والعشرون : لعل الخوف والجوع جاء من باب المثال الغالب والاهم وليس الحصر، فالآية تحث المؤمنين على مواجهة وجوه البلاء المختلفة.

الخامسة والعشرون : الآية دعوة الى الصبر بذكر اهم مصاديقه.

السادسة والعشرون : في الآية توطين للنفس على الشكر لله تعالى وعدم الجزع، لذا ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : "الإيمان نصفان، نصف صبر، ونصف شكر"^(١).

السابعة والعشرون : الشيء اسم جنس وورد على نحو الافراد في اشارة الى التخفيف وان في ثناياه رحمة منه تعالى.

الثامنة والعشرون : تخبر الآية عن عدم التعارض بين الوعد بالنصر وبين الابتلاء ببعض المشاق.

التاسعة والعشرون : ان الامتحان وتحمل الأذى طريق للنصر ونيل

الثواب.

الثلاثون : موضوع الآية تمييز بين المؤمن والمنافق، فالأخير لا يستطيع مواجهة الغد ووجوه الاختبار ولا يطبق الإقامة عليها، مما يجعلها مناسبة لكشفه ومعرفته.

الحادية والثلاثون : الآية حصانة مما ييثر الكافرون والمنافقون واهل الطمع والريب.

الثانية والثلاثون : في الآية قوة للمسلمين ومانع من تفككهم وتأثرهم بتخاذل المنافقين والذين في قلوبهم مرض عند مواجهة صنوف المحن، وهي حصانة للمسلمين وبالدلالات الثلاثة المطابقة والتضمنية والالتزامية.

الثالثة والثلاثون : تدعو الآية المسلمين لاتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في البأساء والضراء وعدم التخلي عن نصرته في أقسى الاحوال، ومعارك المسلمين كأحد وحنين وغيرها شواهد على بركات هذه الآية ونحوها وكأنها مدد وعون في سوح الجهاد ومواطن الصبر وتحمل العناء.

الرابعة والثلاثون : المضامين الشريفة في الآية مستمرة الى يوم القيامة ولا تنحصر بميادين المعارك بل ان افرادها تواجه المسلم كل يوم، لذا فهي حرز وحصانة وسلاح ووقاية على نحو مركب فمن لم يلاق الإبتلاء فانه يتوقعه ويحذر منه ويتصدى لدفعه بالتقوى والذكر والعمل الصالح والصدقة ونحوها.

بحث اخلاقي (فلسفة الإبتلاء)

الإبتلاء في الدنيا على قسمين:

القسم الأول: عام ينبثق من الحقيقة النوعية للحياة الدنيا باعتبار انها دار امتحان وابتلاء.

الأولى : كل انسان يصيبه قسط من هذا الإبتلاء تمحيصاً واختباراً وتوظيفاً كعنصر للإختيار المتقدم زماناً لتحديد منزله في الآخرة فيصيبه البلاء

كفرد من المجتمع والجماعة والأمة وبصفة الانتماء لها فيبتلى بما هو مسلم او بما هو من القبيلة الفلانية او بلحاظ المهنة والبلدة ونحوها.

الثانية : في الدنيا الغنى والفقر وما بينهما، وفيها المباحج والملاذات والنعم واسباب الإنشغال بزيتها والإقامة على مفاتها او الزهد فيها او الحرمان منها، ومن فلسفة الثواب والعقاب ان الغنى والفقر مع انهما متضادان الا ان كلا منهما عنوان مستقل للإبتلاء.

الثالثة : اسباب الانقطاع الى الله عز وجل تتجلى بالتدبر في بديع صنعه وآياته التي تلازم الإنسان في خلقه وصورته وتواجهه في كل مناحي الحياة وجميع أنات الليل والنهار سواء كان في الأرض او في السماء.

الرابعة : الحياة الدنيا ساحة الصراع المستديم بين قوى الخير والشر، وصيغ الهداية سلاح مبارك ازاحة اغواء الشيطان ووساوسه.

أما القسم الثاني : فهو خاص يبتلى به بعض الناس دون البعض الآخر، وهو ايضاً اقسام:

الأول : إمتحان تمحيص وباب تيسير لتثبيت الإيمان وتوكيد استحقاق الثواب وان كان اصل الثواب فضلاً منه تعالى.

الثاني : الإستدراج واظهار حقائق لم تكن ظاهرة يأتي الإبتلاء لإقامة الحجة على العبد وللكشف عما يضمرة في نفسه.

الثالث : الإبتلاء الذي يأتي عقوبة عاجلة في الدنيا سواء كان على نحو القضية الشخصية او القضية النوعية والقاعدة السماوية الكلية كما ورد في الدعاء: "اعوذ بك من الذنوب التي تنزل البلاء" وهي كما جاء عن الإمام زين العابدين عليه السلام: "ترك اغاثة الملهوف، وترك اعانة المظلوم، وتضييع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"^(١).

وكان اعانة الغير في دينه ودنياه حاجب وواقية من البلاء لما فيه من الرحمة

ويمكن تقسيم الإبتلاء تقسيماً آخر بلحاظ نوعه وماهيته الى قسمين:

الأول: البلاء الحسن وهو الإبتلاء بالخير وتوالي النعم والصحة وكثرة الأولاد وتيسير الحوائج وتحقيق المطالب ومنه الدعاء: "لا تبلىنا الا بالتي هي احسن"، فتكون هذه النعم اختباراً وامتحاناً للعبد في كيفية استعماله لها ومدى خضوعه لأحكام الشريعة فيها.

الثاني: البلوى، وهو الإبتلاء بالنقم والشر والأذى، ومنه المرض والسقم والفقر والجوع وفي الدعاء: "الحمد لله على ما ابلى من النعم وابتلى من النقم".

الأولى: أقسام ابتلاءات الدنيا من الكليات التشكيكية، أي انها على مراتب سواء كانت افراد التقسيم الأول او الثاني، ففي كل قسم مراتب متعددة من وجوه الإبتلاء.

الثانية: من الآيات الإعجازية في موضوع الإبتلاء ان كل قسم منه: عام في الجملة ويصيب المؤمن والكافر، فقد يتلى الكافر بالغنى، والمؤمن بالفقر، وقد يحصل العكس، وكل ذلك باذن منه تعالى ووفق حكمته في الخلق وسنن الشرائع واصل النشأة.

الثالثة: يتضمن الإبتلاء رافة بالمؤمن من جهة نوع الإبتلاء وموضوعه ومقداره وأوانه وشدته وضعفه وقصر مدته او طولها، فقد يتلى بما يدفع عنه بلاء اشد، او يصرف عنه بلية ومصيبة لا يطيق تحملها او للثواب المحض أي من غير استحقاق للبلاء عن ذنب اقترفه.

وحتى ابتلائه باسباب الضيق والفقر والشدة يدخل ضمن رحمته تعالى به وفق الكبرى الكلية وهي تغشي رحمته تعالى للمؤمن في الحياة الدنيا والآخرة وبها يفسر قوله تعالى ﴿الرَّحِيمِ﴾ في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فقد لا يصلح المسلم الا الفقر فيقيه الله فقيراً، وقد لا يصلحه الا المرض

فيقيه مريضاً، وقد يكون العكس، أي لا يصلحه الا الغنى والعافية فيكون في مجبوحة من العيش.

الرابعة : الآية الكريمة من مصاديق الكبرى الكلية وهي ان ابتلاء المسلمين بالخوف والجوع انما هو رحمة منه تعالى وتخفيف ومناسبة لنيل الثواب العظيم وفيه تثبيت لدعائم الإسلام وتخفيف عن التابعين ومن يأتي بعدهم، ويظهر ذلك جلياً بدراسة حال الصحابة والتابعين فقد يصيب الخوف الصحابة اجمالاً لخطر يهدد كيان الإسلام كما في معركة بدر وأحد والخندق، الى جانب الأراجيف التي ييثرها المشركون والمنافقون آنذاك كما ورد في التنزيل ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾^(١) تهديداً للمهاجرين والصحابة عامة.

الخامسة : مما تتصف به الآيات القرآنية ان منافعها تظهر ابتداء من ساعة نزولها، لذا ترى الآية تنتشر بين المسلمين بسرعة وكل واحد منهم يبلغ جماعته بما نزل ذلك اليوم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم من القرآن، وهذا التبليغ لا بد ان ينعكس ويبرز بصورة عمل وامثال لأنه لا ينتشر بعنوان الخبر المجرد للعلم الإجمالي المنجز بعناوين التكليف والأمر المولوي، والكل يعلم ان كل آية جزء من البناء العام للإسلام.

السادسة : ليس من زمان مخصوص لموضوع هذه الآية وآثارها فهي تتغشى كل زمان ومكان ونحتاج الى استحضارها في السراء والضراء، والنعمة والبلاء للتوقي من اسباب الخوف المتوقع وشبح الجوع والنقص.

السابعة : الدعاء مدرسة ملكوتية تنبسط افاضاتها على جميع احوال المسلمين، وموضوع هذه الآية لا يخرج عنها تخصصاً او تخصيصاً، لحكومة ﴿

(١) سورة المنافقون ٨.

يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ^(١) لَأَن فَضْلَهُ تَعَالَى واستجابته للدعاء تشمل حالات الإبتلاء وان كان مكتوباً سواء على نحو القضية الشخصية او النوعية ويتعلق بالذات ام بالغير.

ويمحو الله البلاء بالدعاء ويكتب له اجر الدعاء والبلاء ، وقد يبقى الإبتلاء مع الدعاء والإلحاح فيه وسؤال الغير للدعاء لك الذي يأتي من لسان لم تعص الله به ، فلا يعني هذا ان الدعاء لم يستجب له ، ولكن الله عز وجل يرى النفع والمصلحة بتحقيق الإبتلاء مع الثواب ، والإستجابة للدعاء في ابواب اخرى من نواحي الحياة والجزاء في الآخرة.

بحث عقائدي

يشعر الإنسان بالألم من الجوع عند خلو المعدة من الغذاء والطعام ويدرك اثناء غربته ونبذ الدنيا او اعراضها عنه مع ما فيها من النعم والإبتلاء بالجوع على قسمين:

الأول: سلبي، وفيه يكون هم الإنسان بنفسه وحاجته وينشغل عن ذكر الله وطاعته ويشبط اعماله ويجعله يقصر قهراً واختياراً عن طاعة الله، لذا ورد في الدعاء: "واعوذ بك من الجوع فانه بثس الضجيع"^(٢).

الثاني: إيجابي، وهو الذي يساعد على اداء الطاعات وكسر الشهوات وهو حسن غير مذموم، لذا ورد في الخبر انه سيد الأعمال لما فيه من التخلص من شوائب الدنيا وهمومها وشره البطن والفرج واسباب الغرور والكبرياء، وفيه تخفيف للمؤونة وسلامة من الأمراض ورقة القلب ونفاذ

(١) سورة الرعد ٣٩.

(٢) المستدرک ٥٩/٩.

البصيرة وقوة الفراسة وكثرة الإلتفات وقلة الغفلة.

وهو سياحة في عالم الملكوت ومناسبة للتفكير والتدبر.

والجوع المذكور في الآية الكريمة من القسم الثاني هذا بالإضافة الى الثواب عليه كموضوع للإبتلاء، أي ان الثواب فيه مركب من:

الأول : الثواب عليه بالذات.

الثاني : الثواب المترتب على ما يتعقبه ويتفرع عنه من العمل الصالح وصدق التوجه الى الله عز وجل في الخروج والنجاة من قيود الإبتلاء.

الثالث : الإستعداد للإبتلاء باخبار هذه الآية الشريفة وخوض غمار ما يتوقع منه فتح ابواب الخوف والجوع.

وتخبر الآية عن حصول الإبتلاء المتحد والمتعدد، سواء على القول بافادة الواو في قوله تعالى ﴿بَشِيْرٌ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ مطلق الجمع او الترتيب، فان الإبتلاء يأتي مركباً من الخوف والجوع، او يأتيان متفرقين فتارة يكون بالخوف والإشفاق واخرى يكون بالجوع، وظاهر الآية تحقق الصور الثلاث وقد تنطبق على شخص وجماعة معينة مع التباين الزماني او المكاني، فتجده يوماً مبتلى بالخوف وآخر بالجوع، او انه يبتلى في الحضر باحدهما وفي السفر بالآخر، او يحلان معاً في حال السفر وبعض حالات الدفاع.

قوله تعالى ﴿وَنَصِّ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾

الأولى : الإبتلاء بالمال لأنه زينة الدنيا فيكون موضوعاً لإختبار الإيمان.

الثانية : هذا الإبتلاء يكون احياناً بالإختيار، او بالإضطراب الذي سببه الإختيار، وهو لايتعارض مع الإختيار المحض اذ انه لا ينافي الإختيار ولو باسقاط الوسائط وقد يأتي الإبتلاء قهراً.

الثالثة : الإنشغال بالجهاد ومقدماته ايضاً يسبب تعطيل بعض الأعمال

وقد يقال ان الدفاع يؤدي احياناً الى مغام كثيرة ومنافع تفوق الكسب اليومي، قلت: نعم، ولكنه قد ينحصر بالمنافع المعنوية والمستقبلية والأخروية، لذا ذكر الإبتلاء في الآية على نحو التبويض.

الرابعة : لا تنحصر الآية بالجهاد وان كان احد مصاديقها، وفيها إخبار عن احتمال خسارة المال في المعارك.

الخامسة : الأموال أعم من ان تنحصر بالنقدين فتشمل المواشي والدواجن ومنها ما يتضرر بغياب المسلمين في الجهاد لوجود من يقوم بامرها في الغالب.

السادسة : لا بد ان للإبتلاء اسباباً اخرى منها الكوارث والأمراض والوقائع الشخصية.

السابعة : قد يتعلق الإبتلاء بعلم الغيب وعالم ما وراء الطبيعة من غير ان يخرج عن قدرة وامر واذن الله تعالى.

الثامنة : تنفي الآية الملازمة بين الإيمان والسعادة في الدنيا، وهي تأكيد لنيل المؤمن الحسنات بالتعرض للإبتلاء.

التاسعة : مع الإيمان يأتي البلاء ومنها صيغ العداء المتعددة ومحاربة المسلمين في الأرزاق.

العاشرة : تظهر الآية شدة الامتحان من خلال موضوعه، فان المال يحتل منزلة متقدمة في تفكير وكيفية عمل الانسان ويتوقف عليه الكثير من الاعمال والاختيارات والآمال.

الحادية عشرة : ان نفاذ أشعة الإيمان في قلب المسلم يجعل الإبتلاء في المال وما يصيبه من النقص والضياع سهلاً هيناً، ويجعله زاداً للآخرة.

الثانية عشرة : هذه الآية الكريمة عون على ترسيخ مستلزمات التقوى وسنن التوحيد وسلامة الاعتقاد في قلب المؤمن.

الثالثة عشرة : حسن تلقي المسلم أفراد الإبتلاء سلاح ومادة وعون ،

ويترشح منه فزع يقذف في قلوب الكافرين بسبب القدرة الاضافية عند المسلم التي تتولد من هذه الآية الكريمة.

الرابعة عشرة : الابتلاء المتعدد الوجوه لم ينحصر بأحوال القتال والحرب او بزمان ومكان دون آخر، فقد دب مع بدايات البعثة النبوية وظهر جلياً متلاحقاً مع الأيام الأولى للهجرة النبوية الى المدينة، وفي الحديث : "ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يشد الحجر على بطنه"^(١)، وسورة الدهر شاهد قرآني خالد على ما كان يعانيه أهل البيت من الجوع والحاجة من غير ان يفراطوا بالقيم الاخلاقية ومقام الريادة والزعامة في الاحسان والصدقة ، قال تعالى ﴿وَيُطْعَمُونََ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾^(٢).

وعن الإمام الشافعي: الخوف: خوف الله، والجوع: صيام شهر رمضان، والنقص من الأموال: الزكوات والصدقات، ومن الأنفس: الأمراض، ومن الثمرات: موت الأولاد^(٣).

ولكن الآية تتعلق بالابتلاء والإمتحان في موارد البأساء والشدة، وقد أصاب المسلمين في بدايات الهجرة إلى المدينة المنورة حال من الجوع كما في أهل الصفة ، ولا يصدق على شهر رمضان أنه بلاء بالجوع بل هو رحمة وصحة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصوم صوم الوصال بالإمتناع عن المفطرات يومين مع الليلة التي بينهما، والثلاثة أيام مع الليلتين اللتين بينهما وقد أصاب المسلمين في بدايات الهجرة إلى المدينة المنورة حال من الجوع كما في أهل الصفة .

والزكوات ثناء للمال وزيادة فيه، وهي شاهد على الوفرة فيه لأنها لا تخرج إلا عن نصاب، والنقص في الأنفس بالأجل المنخرم وحصول الحروب

(١) تفسير القرطبي ٢١٩/١٠.

(٢) سورة الإنسان ٧.

(٣) تفسير الرازي ٤٤٨/٢، تفسير الكشاف ١٤٦/١.

والمعارك وإستشهاد بعض المسلمين، ويحمل نقص الثمرات على الظاهر والمعنى الحقيقي وإن المراد هو قلة الريع وتعطل الأعمال عند الإنشغال بالقتال والدفاع ولا مانع من إلحاق موت الأولاد به.

وفي معركة الأحزاب حاصر كفار قريش وغطفان المدينة المنورة ونزل قوله تعالى ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَطَئِنُونِ بِاللَّهِ الظُّنُونُ﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلَالًا شَدِيدًا ﴿١﴾.

وأخرج الفريراني وابن عساكر عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: قال رجل: لو أدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم لحملته ولفعلت، فقال حذيفة: لقد رأيتني ليلة الأحزاب ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي من الليل في ليلة باردة ما قبله ولا بعده برد كان أشد منه، فحانت مني التفاتة، فقال ألا رجل يذهب إلى هؤلاء فيأتينا بخبرهم جعله الله معي يوم القيامة قال: فما قام منهم انسان قال: فسكتوا، ثم عاد ... فسكتوا، ثم قال: يا أبا بكر، ثم قال: استغفر الله ورسوله، ثم قال: إن شئت ذهبت فقال: يا عمر فقال: استغفر الله ورسوله، ثم قال: يا حذيفة فقلت: لبيك فقامت حتى أتيت، وإن جنبي ليضربان من البرد، فمسح رأسي ووجهي، ثم قال: ائت هؤلاء القوم حتى تأتينا بخبرهم، ولا تحدث حدثاً حتى ترجع، ثم قال: اللهم احفظه من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، ومن فوقه، ومن تحته، حتى يرجع.

قال فلان: يكون أرسلها كان أحب إلي من الدنيا وما فيها قال: فانطلقت، فأخذت أمشي نحوهم كأنني أمشي في حمام قال: فوجدتهم قد أرسل الله عليهم ريحاً، فقطعت أطنابهم، وذهبت بخيولهم، ولم تدع شيئاً

إلا أهلكته، قال: وأبو سفيان قاعد يصطلي عند نار له، قال فنظرت إليه، فأخذت سهماً، فوضعت في كبد قوسي قال: وكان حذيفة رامياً فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحدثن حدثاً حتى ترجع قال: فرددت سهمي في كنانتي قال: فقال رجل من القوم: الا فيكم عين للقوم؟ فأخذ كل بيد جلسه، فأخذت بيد جليسي فقلت: من أنت؟ قال: سبحان الله! أما تعرفني؟ أنا فلان ابن فلان فإذا رجل من هوازن، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته الخبر، فلما أخبرته ضحك حتى بدت أنيابه في سواد الليل، وذهب عني الدفء فأدنانني رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنامني عند رجله، وألقى علي طرف ثوبه، فإن كنت لألثق بطني وصدري بطن قدميه، فلما أصبحوا هزم الله الأحزاب، وهو قول {فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها} (١).

لقد أراد الله عز وجل للمسلمين الإرتقاء في هذه الآية إلى أسمى المراتب بتهيئة أذهانهم إلى ما يصاحب الدعوة إلى الله والدفاع عن الإسلام من تعطيل الأعمال وكساد التجارات، وحصول الشهادة بينهم، كيلا يقعدوا عن الدفاع، ولا يدب الكسل والفتنة بينهم.

قوله تعالى ﴿وَالْأَنْفُسُ﴾

النقص بالشهادة في سبيل الله عز وجل، وهل المقصود المعنى الأعم وهو الموت كما ذهب إليه جمع من المفسرين، الجواب: نعم وإن جاء النقص المذكور كابتلاء وليس كأمر طبعي في الخلق وحلول الأجل، فلا بد أنه يحصل في امر طارئ وخلاف العادة في الغالب وقد تكون له مصاديق أخرى غير الشهادة تتعلق بانحرام العمر والآفات والكوارث والزلازل، وموت الفجأة، والنقص في الأنفس أهم افراد هذه الآية فلماذا جاء متأخراً:
الأولى: لأن التقديم لا يدل على الأهمية دائماً.

الثانية : لنسق الكلمات والبلاغة.

الثالثة : للتخفيف عن المؤمنين لاسيما وان الآية تتعلق بالصبر.

الرابعة : القلة في الإبتلاء بهذه الحصة، أي ان النقص في الأنفس أقل كما وعدداً من وجوه النقص الاخرى.

الخامسة : لعل في الترتيب اعجازاً ويدل على التدرج في مقدار الإبتلاء وبحسب التقدم، كل فرد من افراده يتأخر عن الآخر يكون اقل منه في مقدار ما يرد عليه من البلاء.

السادسة : ان الترتيب بحسب مقدار التخفيف والعفو، أي ان مقدار استحقاق الإبتلاء والإختبار يطراً عليه بفضل الله محو وتخفيف وان تأخر لما يصيبه من العفو الذي يؤدي الى قلة الإبتلاء بنقص الأنفس دون ان ينعدم موضوعه.

السابعة : ان الأولوية ليست للنقص في الأنفس لا لقلة اهمية موضوعه فالنفس الإنسانية وخصوصاً المتلبسة بالإيمان هي الأكثر شأناً واهمية عند الله وفي القرآن، بل لأن الشهادة لمن يقتل في سبيل الله فهي ربح معنوي واخلاقي وتجارة لن تبور.

الثامنة : أهمية فقد النفوس والخسارة في الموت الطارئ وان كانت نفساً مؤمنة واحدة تعتبر قرينة على ان التقديم والتأخير لا يدل على الأهمية وعدمها، وان النقص في النفوس هو الأهم وجاء متأخراً لأن وجوه الابتلاء الاخرى مقدمة وتوطئة وتهيئة لقبوله.

التاسعة : يمكن استقراء مسألة في التعبئة العسكرية والقتالية من الآية وهي لزوم اتخاذ الإحتياط وتوقع حصول نقص مفاجئ في عدد الرجال والمقاتلين او في المجتمع عامة ذكوراً او اناثاً وتبرز الحاجة الى مثل هذا الإحتمال عند الحروب وحصول مقدماتها واسبابها.

العاشرة : تمنع الآية من الغرور والزهو والإعتداد بكثرة الرجال في عدد

افراد الأمة او الدولة او المؤسسة او القبيلة او الحزب او الجماعة.

بحث اجتماعي

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا مبنية على الإثنية لتكون المفاعلة سبيلاً للتكاثر ودوام الحياة ودعوة للإعتبار والتدبر في أصل الخلق والحاجة المتصلة لواجب الوجود الواحد الجبار ولزوم عبادته، ومن الآيات المباركات ان الإسلام وفي كل زمان يحتاج الى الرجال والكثرة لأنه في جهاد وابتلاء متصل وتلك سنة الحياة كدار للاختبار، وقد تمر على المسلمين فترات تشتد الحاجة معها الى العدد والعدة سواء في حال الحروب والفتن والكوارث او في ايام الرخاء والسلم كما هو الحال في ايام العولة والثورة الصناعية المتتالية وحال ازدياد الأطماع في ثروات وبلاد المسلمين، مما يملئ عليهم المبادرة الى كثرة الإنجاب وقد ذهب جمع من قدماء الفقهاء الى حرمة العزل وهو اخراج الآلة عند الإنزال وافرغ المنى خارج الفرج وتتعدد مصاديقه في هذا الزمان بوسائل منع الحمل.

إن كثرة الإنجاب باب للرزق ودرء للمفاسد وسبيل الى إحراز الدعاء والإستغفار من الأبناء، ولا اعتبار للدراسات والأقوال التي تبعث الرعب من كثرة الإنجاب للتباين الموضوعي بين المجتمعات والأولويات، وللفيض الإلهي والمدد الغيبي للمسلمين والناس والسعة في ارزاقهم المنظورة وغيرها، كما ندعو الى الزواج المبكر للشباب المسلم مطلقاً والتخفيف في مؤونة الزواج من الأكفاء بالإسلام والإيمان، وفي المرسل قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: ان الأبقار بمنزلة الثمر على الشجر، اذا ادرك ثمرها فلم تجتن افسدته الشمس ونشرته الرياح وكذلك الأبقار اذا ادركن ما يدرك النساء فليس لهن دواء الا البعولة.

قوله تعالى ﴿وَالْمَرَاتِ﴾

الإبتلاء بقلة الربح ونقص الفواكه وحمل الأشجار وقلة الأمطار.
وقيل : "وارتفاع البركات"^(١)، ولكن موضوع البركة اجنبي عن الآية
منطوقاً ومفهوماً فالبركات باقية ، وهي تزداد مع تلك القلة والنقص،
والقدر المتيقن من النقص هو الذي يطرأ ظاهراً على الثمار والحبوب
والخضروات.

ومن اعجاز الآية التداخل والملازمة بين افرادها وموضوعاتها فالجوع فرع
نقص الثمرات، ونقص الأموال من اهم اسبابه المباشرة نقص الثمرات
واسباب نقص الثمرات متعددة، وقد تجتمع في حال واحدة واهمها:

الأولى : الإنشغال بالدفاع عن شخص النبي محمد صلى الله عليه وآله
وسلم والتزليل يحول في الجملة دون ملامسة النساء، ودوام الاشتراك في
المعارك، والإرتقاء العقائدي يقلل من التوجه الى البساتين وشؤون الزراعة.

الثانية : منهم من فسر الثمرات هنا بالأولاد لأن الولد ثمرة القلب وعدم
المواظبة على الإقتراب من الأزواج يقلل نسبة الحمل، ولكن اطلاق اسم
الثمرة على الولد على نحو المجاز ويعرف بالقرينة بل وبالتقييد بانه ثمرة القلب
وليس على نحو الإطلاق، فالمراد من الآية الحاصلات والفواكه والتمور
ونحوها ولا يمنع من الحاق الولد بها، وان كان مصاديق الأنفس والنقص
فيها.

وكثرة الأولاد مادة وعون على الجهاد، فحينما ندب سبحانه الله الى
القتل في سبيله فمن لطفه تعالى زيادة النسل.

وهل الإبتلاء عام على جميع افراد الزمان الطولية ام انه خاص ببعض
الأزمنة ام يتعلق باصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، الجواب: انه
عام، وكذا موضوعات جميع آيات القرآن اذ ان الآية لم تنزل لزمان دون
آخر، وظاهر موضوعها والقرائن تدل على العموم، ومنها اتصال واستمرار

الإبتلاء على الإسلام والمسلمين وعدم انقطاع الخطر وهذا كله فضل منه تعالى لأنه طريق الى الجنة، بل ان اللطف والرفقة لا ينحصران باصل الموضوع فيشملان الكيفية والتفصيل، وهذه الآية تؤكد بان الإبتلاء ليس للإمتهان او لنقص في الإيمان او قلة المرتبة انما هو سبيل للرفعة والقرب الى الله عز وجل الذي لا ينال الا بالجهد وحسن التعبد والغخلاص في الإمتثال.

وكما يجوز لبس الحرير في الحرب وساحة المعركة كي يبدو المسلمون في قوة وعز بالاضافة الى ما يتضمنه من دعوة للكفار لدخول الإسلام وما يدل عليه لبس الحرير من التتعم، فان الصبر وتحمل وجوه الإبتلاء مع تعددها وتباين موضوعاتها امر يدخل اليأس في قلوب الكفار من المسلمين ويجعلهم يفكرون بدخول الإسلام.

لقد ذكرت الآية خمسة وجوه يتلى بها المسلمون وهي:

الأول : الخوف من العدو والأوبئة .

الثاني : الجوع.

الثالث : نقص الأموال ، وقيمة الدينار .

الرابع : نقص الأنفس ، وكثرة الموت والقتل ، والنسبة بين الموت والقتل عموم وخصوص مطلق ، فالموت أعم .

الخامس : القحط وقلة الثمرات والريع .

وجاءت الآية على نحو التبويض (بشيء من) ويحتمل وجوهاً:

الأول : إرادة القلة والسالبة الجزئية في أفراد الخوف والجوع ووجوه الإبتلاء الأخرى ، تخفيفاً ورحمة من الله عز وجل .

الثاني : حصول الإبتلاء على فترات متقطعة ومتباعدة.

الثالث : إصابة فريق وطائفة من المسلمين ، ووقوع الإبتلاء في بعض المدن والأمصار الإسلامية دون الجميع.

ولا تعارض بين هذه الوجوه، وكلها من مصاديق الآية وفيه دعوة للمسلمين للصبر والدعاء والإنقطاع إلى ذكر الله وأداء الفرائض العبادية، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتكون مجتمعة ومتفرقة واقية من الإبتلاء وشدته وبرزخاً دون طول مدته ومن مصاديق الوعد واللفظ من الله قوله تعالى ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١).

قوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾

وعد وبشارة واخبار عن خاتمة مواجهة وتحمل هذه المشاق، كما انها دعوة لتلقيها برضا وعدم الإنشغال بها عن الجهاد واداء الفرائض والبشارة على الصبر اعم من ان تنحصر بالآخرة فتشمل الدنيا لحمل اللفظ القرآني على الإطلاق ولسعة رحمته تعالى، وتجد البشارات مصاحبة للإبتلاء حين حدوثه وتكون عوناً على تحمله، فما دام الإبتلاء منه تعالى فالمدد متصل ومستمر وملازم للإبتلاء من ساعة حصوله من غير ان يصيب عظيم الأجر والثواب في الآخرة نقص، اذ ان البشارة تتجلى بأحسن صورها بالوعد بدخول الجنة وهي امل كل مؤمن وغاية كل مسلم.

وجاءت خاتمة الآية بصيغة الجمع الصابرين، وفيها مسائل:

الأولى: إرادة عموم المسلمين والمسلمات.

الثانية: الإشارة إلى نزول المصائب بالمسلمين.

الثالثة: تشمل لغة الجمع المصائب الفردية والشخصية أيضاً.

الرابعة: بيان عظيم منزلة النبي عند المسلمين.

الخامسة: وصول بشارة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المسلمين والمسلمات عموماً وفي مختلف أفراد الزمان الطولية لتكون هذه الآية صلة متجددة بينه وبين المسلمين، إذ تنقل لهم بشارة النبي محمد صلى الله عليه

وآله وسلم.

السادسة: البشارة وعد كريم من عند الله عز وجل، ويدل بالدلالة التضمنية على إكرام المسلمين، وترغيبهم بالصبر، والآية من عمومات قوله تعالى ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾^(١)، بلحاظ أن الصبر في ذات الله وطاعة الله، فإن قلت من المصائب ما هو شخصي كموت قريب، والجواب من وجوه:

الأول: هذا القريب مسلم.

الثاني: الصبر مقدمة للمواظبة على الوظائف العبادية.

الثالث: المصيبة مناسبة للإسترجاع، والإقرار باليوم الآخر.

وجاءت الآية بصيغة الأمر (وبشر) والخطاب موجه للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفيه إعجاز متجدد إلى يوم القيامة بلحاظ أن كلاً من الأمر ومصاديق البشارة إنحلالية بعدد المسلمين والمسلمات، وفيها دعوة لأجيال المسلمين للتحلي بالصبر عند الإبتلاء ومواجهة الشدائد، ومن وجوه الإعجاز في الآية التحدي بتجلي منافع وبركات الصبر في الحياة اليومية للمسلمين بلحاظ أنه مرآة اليقين.

وليس من آيات تفصل بين الإبتلاء والبشارة، بل جاء معاً في ذات الآية لتكون خاتمة الآية عوناً على الإبتلاء، وفيها وعد كريم من عند الله تظهر مصاديقه في كل زمان، وإبتدأت في هجرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ونجاتهم من أذى قريش، ثم إنتصار المسلمين في معارك الإسلام الأولى مع أن قريشاً كانت أكثر عدداً وقوة، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدُرِّ وَاتُّمَّ أَذِلَّةً فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾^(٢).

(١) سورة التغابن ١٧.

(٢) سورة آل عمران ١٢٣.

ليكون من مصاديق التقوى في المقام تعاهد الصبر الذي تغلبوا به على الكفار، وهم بحاجة إليه في حال السلم والحرب، والحضر والسفر، وفي الأمور الخاصة والعامة بما يساعد في تعظيم شعائر الله، وقد ورد لفظ (الصابرين) خمس عشرة مرة في القرآن ليس فيها بشر الصابرين إلا في هذه الآية .

وهل البشارة خاصة بالذين يقولون إنا لله وإنا إليه راجعون أم أنها عامة الجواب هي عامة لكل الذين صبروا في جنب الله .

ويأتي قول ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١) شاهداً لسانياً وإعلاناً عن قبول المسلمين بالإبتلاء طاعة لله عز وجل وتسليماً بقضائه، وخضوعاً لمشيئته .

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار التكاليف، ويصاحبها إنطباقاً الصبر إذ أنه من لوازم التكليف والإقامة على الطاعة ، وهذا النوع من الصبر تميل له النفس بالفطرة، خصوصاً عندما تكون المصيبة قاهرة وخارج سيطرة الإنسان ، وفيه سكينه وطمأنية لذا ورد قوله تعالى ﴿لَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٢).

فجاءت آية البحث بنوع آخر من الصبر وهو الذي تستقبل به المصيبة والفاجعة، فلا يغادره المؤمن أنا ما مع شدة ما وقع عليه لإنقطاعه إلى الله عز وجل ورضاه بقسمه وشوقه لما إدخره له من ضروب السعادة بالذكر والإسترجاع عند المصيبة (وعن أم سلمة قالت : ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها إلا أجره الله في مصيبيته وأخلف له خيراً منها . قالت : فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخلف الله لي

(١) سورة البقرة ١٥٦.

(٢) سورة الرعد ٢٨.

خيراً منه ، رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١).

ومن الإعجاز في هذه الآيات أن موضوع الصبر الذي تتعلق به البشارة لا يختص بمضامينها وأفراد البلاء الخمسة المذكورة فيها وهي:
الأول : نوع من الخوف.

الثاني : مرتبة وحال من الجوع.

الثالث : النقص في الأموال، وهل منه غلاء الأسعار، وقلة قيمة صرف الدينار، والعملة، وكساد التجارات الجواب نعم ، لتعدد المصاديق بلحاظ التباين في الحال والزمان والمكان.

الرابع : حدوث القتل وموت الفجأة، وظهور الأمراض المهلكة.

الخامس : نقص الثمرات وقلة الربح.

وقوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا هَذَا الَّذِي كُنَّا نَعْتَقِدُ﴾ حال وشاهد على بلوغ كل واحد منهم مرتبة الصابر، وصفة يعرفون بها، إنما قوله تعالى (وبشر الصابرين) أعم وأشمل ، والمراد نيلهم ملكة الصبر في حال الشدة والرخاء، وفي العبادات والمعاملات ، وفي الثناء على المتقين ، قال تعالى ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾^(٢).

وتقدير الآية: يا محمد بشر الصابرين من أمتك عند الإبتلاء بوجه أو وجوه من الإبتلاء المذكور في هذه الآية، وفي الشدائد والمحن وكذا في أداء الفرائض والعبادات والصبر على الأذى من الناس، قال تعالى ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(٣).

(١) الدر المنثور ١/٣١٣.

(٢) سورة البقرة ١٧٧.

(٣) سورة آل عمران ١١١.

ترى ما هو مصداق وموضوع البشارة ، فيه وجوه:

الأول : ما ورد في الآيتين التاليتين من الصلوات والرحمة من الله وتأكيده صبغة الهداية للذين يقولون إنا لله وإنا إليه راجعون عند نزول البلاء والمصيبة.

الثاني : تجلي مصاديق صلاة الله على المسلمين في حياتهم اليومية بما يقربهم إلى منازل الطاعة، وفي قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَخِيرِينَ﴾^(١) وجوه عديدة منها أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن الله و ملائكته يصلون على الصف المتقدم فازدحم الناس وكانت دور بني عذرة بعيدة عن المسجد فقالوا لنبيعن دورنا ولنشتري دوراً قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدم فنزلت هذه الآية ، عن الربيع بن أنس^(٢).

الثالث : وبشر الصابرين بتوالي فضل الله سبحانه عليهم في الدنيا، فالآية الكريمة وعد من الله عز وجل ، والتذكير في الوعد الإلهي وعدم تعيين موضوعه باب للسعة فيه موضوعاً وأفراداً وكماً وكيفاً .
(قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر)^(٣).

الرابع : بشر الصابرين بالتخفيف عنهم في هول ووقع وآثار المصيبة، وفي قادم الأيام بالمحو فيما كتب عليهم من البلاء.

الخامس : البشارة بنزول المدد والتوفيق من عند الله للصابرين ، قال

(١) سورة الحجر ٢٤.

(٢) مجمع البيان ٩٧/٦.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي ٨/٨.

تعالى ﴿وَاصْبِرْ وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١).

السادس : من أعظم ثمرات الصبر الفوز بحب الله، قال سبحانه ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(٢)، ليكون الصبر عند المصيبة عروجا في عالم الملكوت، وجذبا قهريا لمراتب الكمالات الإنسانية وأداء الوظائف العبادية بشوق.

السابع : بشر الصابرين بنور يقذفه الله في قلوبهم وتزكية وتطهير لأعمالهم، ورفع للغشاوة عن أبصارهم، فالإسترجاع طرد للأهوال التي تصاحب المصيبة دفعة واحدة ويجعل المؤمن يدرك أن الأمر الأهم والحتمي هو الرجوع إلى الله عز وجل والحاجة إلى عفوه ومغفرته وإحسانه.

الثامن : بشر الصابرين بإبدال الضراء بالسراء ، والشدة بالرخاء .

التاسع : إعانة المسلمين والمسلمات بالصبر في أداء العبادات وفي الشعر المنسوب للإمام علي عليه السلام:

اصبر على مضض الإدلاج بالسحر

وبالرواح على الحاجات بالبركر

لا يعجزنك ولا يضجرك مطلبه

فالحجج تتلف بين العجز والضرجر

إني رأيت وفي الأيام تجربة

للصبر عاقبة محمودة الأثر

فقل من جد في شيء يطالبه

فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر^(٣).

العاشر : وبشر الصابرين بالثواب العظيم في الآخرة، ولما أسلم عمار بن

(١) سورة الأنفال ٤٦.

(٢) سورة آل عمران ١٤٦.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي ٥٨/٢١.

ياسر وأبوه وأمه سمية أخذهم الكفار جميعاً وقاموا بتعذيبهم أشد العذاب ولما مرّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لهم صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة) ومات ياسر وسمية تحت وطأة العذاب وأستشهد عمار في صفين.

بحث بلاغي

من المواطن التي لا يجوز فيها الوقف ما بين الصفة وموصوفها. ومنهم من قال بالتفصيل فيجوز الوقف عندما يكون الوصف للمدح واستدل عليه بقوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ لأن العامل في الوصف غير عامل الموصوف.

اما اذا كانت الصفة للإختصاص فلا يجوز الوقف على موصوفها، لأن عامل الصفة هو نفسه عامل الموصوف ويمكن ان يستقرأ جواز الوقف بلحاظ ان كلا منهما يصلح ان يكون كلاماً مستقلاً وقاعدة كلامية كلية.

ومثله الوقوف على الموصوف بقوله تعالى ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾^(١) والإبتداء بـ ﴿الَّذِي يُوسَّسُ﴾^(٢) ومال اليه الزمخشري^(٣) ومنهم من منع الوقف في هذه المواضع لأن ما بعده حكاية القول.

بحث كلامي

قوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ لا يتعلق بموضوع الآية وفروعها الخمسة فحسب بل هو قاعدة كلية تشمل كافة احوال المسلم، والصبر في الإصطلاح قدرة النفس على تحمل المشاق وعدم الإنقياد للهوى والشهوات، أي انه

(١) سورة الناس ٤.

(٢) سورة الناس ٥.

(٣) الكشف ٣٠٣/٤.

مركب لذا جاء في الحديث عن الأمام علي عليه السلام قال: "الصبر صبران صبر على ما تكره و صبر عما تحب"^(١).

ومن الأول تلقي الشدائد من غير جزع او هلع، ويترجل الصبر حيثئذ بعدم غياب ذكره تعالى عن البال .

أما الثاني فهو تحصين للنفس من اتباع الهوى والتردي في الهلكة، وواقية وحرز من اغواء الشيطان.

والصابرون جمع صابر وهو الذي يحبس نفسه عن الجزع والفرع عند المصيبة والإبتلاء طاعة لله عز وجل، لذا ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "الإيمان شطران، شطر صبر، و شطر شكر"^(٢).

والصبر سلاح ضروري وملكة نفسية ملازمة للمسلم وآلة مباركة وعون على اداء الفرائض والعبادات وسميت تكليفاً لما فيها من البلاء والشدّة، وقد يحتاج العبد الصبر المركب في آن واحد، كما لو لم يغفل عن الصلاة وهو في مواجهة الكفار ويحرص على أدائها ولو في ساحة المعركة.

والاخبار القرآني بحصول البلاء وتعقبه بالبشارة والسعادة للصابرين يدل على انه ليس عقوبة شخصية او نوعية.

بحث فقهي

مما هو متسالم في الشريعة عدم ترك الصلاة بحال، بما في ذلك حالات الخوف والفرع ودخول المعركة، وقد يكون المكلف اكثر حاجة للصلاة في مثل هذه الأوقات من غيرها، وبإدائها تفتح عليه ابواب من فضل الله تعالى، لذا شرعت "صلاة الخوف والمطاردة" وعليها الكتاب والسنة والإجماع بلحاظ كونها واجباً عينياً منجزاً لا يسقط بحال ويؤدي بالميسور

(١) مجمع البيان ٣٩٦/١.

(٢) المستدرک ٢٦١/١١.

ولقاعدة تقديم الأهم على المهم.

قال تعالى ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يُفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١).

والخوف الذي يكون فيه التقصير وتحقيق الصلاة هو الخوف الظاهر والمتوقع سواء كان من عدو أو لص أو سبع أو ظالم كالأسير عند المشركين وليس مسمى الخوف أو الذي يحتمل ارتفاعه وزواله.

الأولى : صلاة الخوف مقصورة سفرأ وحضرأ، جماعة وفرادى وتبقى صلاة الصبح والمغرب على حالهما.

الثانية : المراد بالخوف خصوص الخوف الذي يكون مقتضياً لتخفيف الصلاة وتحول اسبابه دون اتمامها بالكيفية الإختيارية، كالخوف من عدو أو لص أو سبع، فاذا كان الخوف لا يقتضي ذلك لا تنتقل وظيفة المكلف الى صلاة الخوف.

الثالثة : يستحب ان تؤدي صلاة الخوف جماعة، ولها كيفيات ثلاث يتخيرون واحدة منها وهي:

الرابعة : ان يصلي الإمام بطائفة ثم يعيد الصلاة بطائفة اخرى.

ما اصطلح عليه بصلاة الرقاع، واسمها مستل من احدى كتائب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان بينها وبين الهجرة اربع سنين وثمانية ايام، وكيفيتها ان يفرق القوم فرقتين ويصلي الإمام بالفرقة الأولى ركعة، اما الفرقة الثانية فتقف اثناء ذلك بازاء العدو وتحرس الذين يصلون، ثم يقوم الإمام ومن خلفه الى الركعة الثانية فينفرد كل مصلي من المأمومين ويقرأ لنفسه في الركعة الثانية، اما الإمام فيتأني في قراءته بقدر ما يتم الذين خلفه وينصرفون الى موقف اصحابهم .

وتأتي الفرقة الأخرى وتدخل مع الإمام فيكبرون ثم يركع الإمام بهم ويسجد، ثم تقوم هذه الجماعة وهي الثانية وينفرد كل منهم في الركعة الثانية، ويطيل الإمام تشهده ويتمون ويسلم بهم الإمام، أي ان جماعة منهم تكبر مع الإمام تكبيرة الإفتتاح، والأخرى تحتم معه الصلاة بالتسليم، وفي الثلاثية يتخير الإمام بين ان يصلي بالجماعة الأولى ركعة وبالثانية ركعتين او بالعكس، وسيأتي مزيد كلام في سورة النساء ان شاء الله.

بحث أصولي

الشرائط العامة للتكليف هي البلوغ والعقل والاختيار فلا تكليف على الصبي او المجنون او المكره، ومنهم من اضاف اليها الإلتفات أي عدم الغفلة ولكنه امر ثانوي يتعلق به رفع العقاب كما ان موضوعه المكلف وليس المكلف به.

ومن بين الأحكام التكليفية الخمسة، اضيف في باب التكليف التحريمي شرط آخر وهو الإبتلاء وان النهي يكون فعلياً على المكلف الا اذا أصبح محل ابتلائه، فلو كان فعل الحرام كالربا مثلاً متعذراً في بلاده او بالنسبة له أخذاً او معطياً او شاهداً او كاتباً فان النهي بخصوصه لا يكون فعلياً لأن الداعي الى اتيان الربا لا ينقدح في نفسه ولو من بعيد ولترتب العقاب على اتيان الذنب دون النية المجردة.

قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ الآية ١٥٦.

الذين: صفة للصابرين، إذا: ظرف لما يستقبل من الزمان ومن أحكامها الإضافة إلى الجملة الفعلية، وهي في هذه الآية جملة ﴿أَصَابَتْهُمْ﴾.

أصابتهن: فعل ماضٍ، والضمير "هم" مفعول به. مصيبة: فاعل مرفوع، وجملة الشرط وجوابه لا محل لها لأنها صلة الموصول.

قالوا: فعل ماضٍ، الواو: فاعل، والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم.

إنا: ان وإسمها، لله: جار ومجرور متعلقهما (راجعون). وإنا إليه: عطف على جملة إنا.

راجعون: خبر إن.

المصيبة: البلية التي تحل بالعبد بالذات أو العرض وما ينزل به من المكروه، والجمع مصائب على غير قياس، ونعته الزجاج بأنه شاذ مع إقراره على إجماع النحويين عليه^(١).

والمصيبة واحدة المصائب، يقال مصيبة ومصابة (والمصوبة بضم الصاد مثل المصيبة)^(٢).

والمصيبة هي النائبة والنكبة والشديدة من شدائد الدهر ودواهي الأيام، وقيل المصيبة كل ما يؤذي الإنسان .

في سياق الآيات

وحدة الموضوع بين هذه الآيات ظاهرة فبعد الأمر بالإستعانة بالصبر والصلاة والصوم وبيان المنزلة الرفيعة للشهيد ووجوه الإبتلاء الذي يصاحبه الإيمان والبشارة بما أعد الله للصابرين، جاءت هذه الآية الكريمة تعليماً

(١) أنظر لسان العرب ١/٥٣٥ .

(٢) الصحاح في اللغة ١/٣٩٩ .

ومواساة وإرتقاء في منازل التقوى ومراتب الكمال.

الأول: الصلة بين (كما أرسلنا) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: الآية محل البحث وما فيها من الأمر بالإسترجاع من العلم الذي ذكرته الآية أعلاه من وجوه:

الأول: إنها من الآيات التي يتلوها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على المسلمين.

الثاني: هي من الكتاب الذي نزل به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله.

الثالث: الإسترجاع من مصاديق الحكمة وتجلي النفس الناطقة وبرزخ دون غلبة النفس الغضبية واليأس والجزع على المسلم.

الرابع: الإسترجاع علم رزقه الله عز وجل المسلمين، لم يكن عند أهل الملل الأخرى، ومع أن المسلمين إتخذوه سلاحاً ومنافعه ظاهرة فإن غير المسلمين لم يأخذوه ولم ينتفعوا منه، وهو من مصاديق قوله تعالى في الآية أعلاه (ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون)، وليبقى الإسترجاع شاهداً على تفضيل المسلمين وترغيب الناس بدخول الإسلام، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ^(٢).

الثانية: دعوة المسلمين لتلقي الآيات التي يتلوها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقبول وما فيها من الأوامر بالإمتثال.

الثالثة: الإسترجاع تزكية وتطهير للمسلمين.

الرابعة: بيان المنافع العظيمة لما يعلمه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين.

(١) الآية ١٥١.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

الخامسة: مجيء الآية محل البحث بصيغة الجملة الخبرية تأكيداً لإرتقاء المسلمين، وحصول التعليم والنفع من آيات القرآن ونظمها.

الثاني: الصلة بين آية (فاذكروني)^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: الإسترجاع من عمومات قوله تعالى (فاذكروني).

الثانية: مع الإسترجاع تأتي الرحمة الإلهية وهو من مصاديق قوله تعالى (أذكركم).

الثالثة: الإسترجاع شكر الله عز وجل لأنه إقرار بالرجوع إلى الله، وإستبشار بفضل الله تعالى وما أعد للمؤمنين في عالم الآخرة.

الرابعة: الإسترجاع واقية من الكفر بالنعمة، وهو تسليم بأمر الله وقضائه.

الثالث: الصلة بين آية (استعينوا بالصبر)^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: تأكيد حاجة الإنسان للصبر عند المصيبة.

الثانية: فوز المسلمين بملكة الصبر عند المصيبة، وهو من خصائص ﴿كُنُفُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٣).

الثالثة: الإسترجاع من الصبر والإستعانة به، وفي الجمع بين الآيتين معجزة تبين لطف الله عز وجل بالمسلمين، فهو سبحانه يأمر المسلمين بالإسترجاع، والإستعانة بالصبر ليكون كل فرد منهما مقدمة وطريقاً للثاني، ويجمعان معاً ليكونا سلاحاً وواقية من الآثار العرضية للمصيبة.

الرابعة: الإستعانة بالصلاة خير عزاء ووسيلة مباركة لتحمل المصيبة.

(١) الآية ١٥٢.

(٢) الآية ١٥٣.

(٣) سورة آل عمران ١١٠.

الخامسة: الإسترجاع عند المصيبة واقية من الإنشغال عن الصلاة، وسلاح كريم لأداء الصلاة في أوقاتها.

السادسة: المواظبة على الصلاة طريق للسلامة والأمن من أضرار المصيبة، وسبب لجلب الخير والنفع، وأختتمت الآية أعلاه بقوله تعالى (أن الله مع الصابرين).

وجاءت الآية محل البحث بحث المسلمين على الإسترجاع، ليكون المسلمون هم الصابرون، وأن الله عز وجل معهم، وهو ناصرهم.

السابعة: إبتدأت الآية أعلاه بالخطاب للذين آمنوا وأمرهم بالصبر والصلاة، وجاءت هذه الآية بالندب إلى الإسترجاع عند المصيبة، ليكون الإسترجاع صفة ملازمة للمسلمين.

الرابع: الصلة بين آية (بل أحياء)^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:
الأولى: جاءت الآية أعلاه نهياً عن قول، وجاءت الآية محل البحث بالأمر بقول مخصوص، ويجتمع النهي والأمر في إصلاح المنطق، وتهذيب الأفعال.
الثانية: قتل المؤمن في سبيل الله مصيبة عامة وخاصة، عامة عند المسلمين، وخاصة عند ذوي الشهيد، فيأتي إسترجاع أحدهم مواساة لنفسه وللآخرين.

الثالثة: من مصاديق حياة الشهيد رجوعه إلى الله عز وجل.
الرابعة: الإسترجاع مقدمة وتذكير بمضامين الآية أعلاه ووصف الذي قتل في سبيل الله بأنه شهيد.

الخامس: الصلة بين الآية (ولنبلونكم)^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:
الأولى: بيان كثرة الإبتلاءات والمصائب التي تصيب المسلمين، والحاجة معها إلى الإسترجاع.

(١) الآية ١٥٤.

(٢) الآية ١٥٥.

الثانية: الإسترجاع مواساة وسبيل هداية وصلاح.

الثالثة: البشارة والوعد الكريم للذين يذكرون الله ويسترجعون عند المصيبة.

الرابعة: من موارد الإسترجاع بلحاظ الجمع بين الآيتين أمور:

الأول: حصول الخوف عند بعض المسلمين ويدل عليه التبعض الفرادي والزماني في الخوف ، قال تعالى في الآية أعلاه (بشيء من الخوف)، وفيه حث على إتخاذ الإسترجاع سلاحاً إلى حين زوال الخوف توقع الضرر.

الثاني: الإبتلاء بالجوع بسبب الإنشغال بالجهاد ومقدمات القتال، والتخلف عن الزراعة والتجارة.

الثالث: النقص في الأموال والإنفاق في القتال، وهلاك المواشي والنقص في الزراعات.

الرابع: حصول القتل والشهادة في سوح المعارك دفاعاً عن الإسلام.

الخامس: قلة الربيع والثمار وإصابة النباتات بالآفات، وهذا التعدد في وجوه الإبتلاء من الحكمة الإلهية لنيل المسلمين المراتب العالية، وفوزهم بالعوض والثواب العظيم، وجاءت الدعوة للإسترجاع في هذه الآية من الشواهد عليه، لأن اللجوء إلى الله عز وجل عند المصيبة تنمية للملكة الصبر، وسعي في منازل اليقين، وحث للناس على دخول الإسلام، وبعث للخوف في قلوب الكفار، وزجر لهم عن التعدي على الإسلام والمسلمين، والنقص في النسل بسبب قلة مناكحة النسوان للمرابطة في الثغور والخروج في السرايا في سبيل الله.

الخامسة: جاءت الآية أعلاه بصيغة الخطاب، لبيان أن الإبتلاء لطف وعون للمسلمين في دار الإمتحان والاختبار، وجاءت هذه الآية بصيغة الجملة الخبرية لترغيب المسلمين بالإسترجاع عند كل إبتلاء.

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين هذه الآية والآية التالية آية (أولئك عليهم صلوات) ^(١)، وفيها مسائل:

الأولى: بيان المنافع العظيمة في الإسترجاع.

الثانية: ترغيب المسلمين والمسلمات بالإسترجاع.

الثالثة: التخفيف عن المسلمين عند وقوع المصيبة، ويتجلى التخفيف بإستحضار الثواب العظيم للصبر والإسترجاع.

الرابعة: ينتهي أثر المصيبة في أوانها، أما الثواب على الإسترجاع والصبر فهو متصل في الدنيا والآخرة.

الخامسة: بيان فضل قول ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، وتغشي الأمة بسببه بالأمن والبركة.

السادسة: الإسترجاع واقية من تجدد وكثرة الإبتلاءات التي ذكرتها الآية السابقة.

ليفيد الجمع بين هذه الآية والآية التي قبلها والتي بعدها بيان كيفية السلامة من كثرة الإبتلاء والمصائب من غير تخلف عن ميادين الجهاد، وأهلية المسلمين للجمع بين حياة الحضر والعمران وبين الجهاد، وتتجلى شواهد كثيرة عليه منذ الأيام الأولى للإسلام بدخول القبائل وشر من عموم الناس الإسلام ليصبح الجهاد واجباً كفاً وتكون مدن المسلمين في أمن قال تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ♦ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ♦﴾ ^(٢).

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية (الصفة والمروة) ^(٣)، وفيها مسائل:

(١) الآية ١٥٧.

(٢) سورة النصر ١-٢.

(٣) الآية ١٥٨.

الأولى: التقيد بإتيان الفرائض تخفيف من أثر المصيبة.

الثانية: أداء المسلمين المناسك تأكيد على تعاهد العبادات في حال الشدة والرخاء، وعند الإبتلاء.

الثالثة: مع قول ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، يأتي أداء الفرائض الموقوتة بأوان مخصوص، وفيه مواساة للمسلمين ودعوة للصبر.
الرابعة: لزوم تعاهد شعائر الله على كل حال.

الخامسة: أختتمت الآية أعلاه بقوله تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، وفيه ترغيب بالإسترجاع ونيل الثواب عليه لما فيه من التسليم بأمر وقضاء الله، والإمثال لما فيه هذه الآية من النذب والحث على الإسترجاع.

الثالث: الصلة بين هذه الآية وآية (إِنَّ الَّذِينَ يَكْمُنُونَ) ^(١)، وفيه مسائل:

الأولى: دعوة المسلمين للصبر على كتمان وإخفاء فريق من أهل الكتاب البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإذ أن الله عز وجل يتفضل بالآيات والمعجزات على يديه.

الثانية: الإنقطاع إلى الإسترجاع مناسبة كريمة لرؤية الإبتلاء الذي يصيب الكفار والذي يدل عليه قوله تعالى في الآية أعلاه (يلعنهم الله).

الثالثة: كتمان الآيات مصيبة نوعية عامة، لما فيه من الضرر والإضرار، فجاء الإسترجاع دعوة للصبر حتى تتجلى البراهين الساطعة بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتقوى شوكة الإسلام، ويدخل الناس فيه، قال تعالى ﴿يُظْهِرُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ^(٢).

(١) الآية ١٥٩.

(٢) سورة الصف ٩.

إعجاز الآية

تحت الآية على مواجهة الإبتلاء وفقد الأحبة وما يصيب المسلمين من الأذى بكيفية إيمانية ذات صفات كمال وتسليم للباري عز وجل والآية مدرسة في المعرفة الإلهية، وورود الآية بصيغة الجمع يعطي موضوعية للبعد الزمني والذي يسمى بالبعد الرابع بتوقع الوجود من المسلمين حصول إبتلاء وأذى ومصائب والإستعداد لها.

ومن إعجاز الآية أن العقول البشرية والنظم الإجتماعية والسياسية والتربوية والعلاج الطبي والنفسي والقواعد الخاصة بتنظيم المجتمعات لم تستطع بلوغ معشار ما يحققه الإسترجاع عند المصيبة.

إن إلزام المسلمين بالإسترجاع عند المصيبة دليل على التوظيف العملي للقرآن في الحياة اليومية في الجملة، مع إعتبار الأولوية بالنسبة لغيرها، فما دام المسلمون يلتزمون بالواجب والمستحب في الرخاء واليسر وحال العسر فان الرحمة الإلهية تتغشاهم أفراداً وجماعات.

ونظم هذه الآية ذاته إعجاز إذ جاءت هذه الآية بعد آية تبين وجوه الإبتلاء الكثير والتي يتعرض لها المسلمون، لتأتي بعدها آية تبين عظيم النفع والأجر على الإسترجاع لما فيه من الأمثال لمضامين هذه الآية والتسليم بأمر الله عز وجل.

والآية مدرسة في الصبر بإتيان ما يتقوم به الصبر، بلحاظ أن الإسترجاع موضوع إنحلالي ينقسم إلى وجوه:

الأول: إنه ذكر لله عز وجل.

الثاني: فيه إقرار بعظيم قدرة الله.

الثالث: الإسترجاع تفويض للأمر إلى الله عز وجل.

الرابع: الإسترجاع سفر إلى الله حال الشدة والأذى.

الخامس: الإسترجاع برزخ دون شماتة الأعداء بالمسلمين،

ودعوة للمسلمين لمواصلة الجهاد وعدم الإنقطاع عنه بسبب نزول المصيبة ، قال تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾^(١).

السادس: الإسترجاع نوع توكل على الله عز وجل.

ويمكن أن نسمي هذه الآية آية (الذين إذا أصابتهم) وورد هذا اللفظ في القرآن مرتين وفي ذات الموضوع ، وهو المصيبة^(٢).

كما يمكن أن نسميها آية الإسترجاع لأنها مدرسة سماوية أسست صرح الإسترجاع وما فيه من المنافع العظيمة في النشاطين.

الآية سلاح

في الآية تخفيف وتأديب وإرشاد وتوطين لنفوس المسلمين على توقع المكروه في طاعة الله.

والآية سلاح لمواجهة الخسارة والنكبة وحائل دون إستغلال الأعداء لهما وإنتفاعهم من الثغرات التي تحدثها المصائب وما تسببه من الوهن والقنوط وهي علاج نفسي لمواجهة الجزع، ومانع من ترتب الآثار الضارة على الحزن عند المصيبة.

ولا تتعارض الآية مع اللجوء إلى الأسباب في التغلب على آثار المصيبة وتداركها، فالقدر المتيقن من الآية هو اللجوء إلى الله عز وجل عند وقوعها وعدم الجزع والقنوط.

(١) سورة النساء ١٠٤.

(٢) أنظر سورة النساء ٦٢.

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار إمتحان وإختبار ومن الأسرار فيها عموم الإبتلاء فيها، إذ يشمل البر والفاجر، والمؤمن والكافر، ولا يسلم أحد من الناس منه، بما فيهم الأنبياء ولكن مع الفارق في الحكم والأثر إذ أن إبتلاء الأنبياء والمؤمنين رحمة بهم والناس، ومناسبة للفوز بالأجر والثواب، وجاءت هذه الآية سلاحاً تترشح عنه أسلحة وأسباب لامتناهية للوقاية والإحتراز من المفاسد والآثام وشرور الأعداء.

لقد أراد الله للمسلمين الإمتناع عن سلطان والحزن والأسى والخوف الذي يترشح عنهما، فجاءت هذه الآية لتكون واقية ساعة الشدة وحلول المصيبة، وأمناً من الجزع.

لقد تفضل الله عز وجل بهذه الآية هبة من السماء فجاءت بصيغة ظرف الإستقبال (إذا) لتبقى أحكامها ملازمة لهم إلى يوم القيامة، فالأمة التي يكون سلاح (إنا لله وإنا إليه راجعون) حاضراً عندها مجمعة ومتفرقة حال المصيبة تستطيع تجاوز المحن، ولا تستطيع أمة أخرى تقهرها، وهو من عمومات الخطاب الإلهي للمسلمين ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

مفهوم الآية

الآية تأديب للمسلمين ودرس عقائدي حاضر عند المصيبة، وكيفية إرشادية لتلقي الإبتلاء بقبول ورضا، ومنع لتأثيره العرضي السلبي وحصول القنوط أو اليأس.

وجاءت الآية بلفظ المصيبة لإفادته العموم وأن البلاء قد يكون من خارج المصاديق التي وردت في الآيتين السابقتين، كالإبتلاء بالفتن والكوارث والمرض أو أنه يتعلق بتلك المصاديق كالخوف والجوع ونقص الأموال ولكنه يستديم، أو يهدد في كنهه ومقداره بحصول الجزع، فجاءت الآية لتبعث

الأمل في النفوس وتجعل المسلمين يدركون أن ما يصيبهم هو في علم الله ويستحضرون المعاد وحتمية الرجوع إليه تعالى لتكون المصيبة مناسبة للصالح وإحترازاً من التعدي والفزع، ويذكر الله تعالى يتبدد والخوف وتهون المصيبة وينظر الإنسان منها وليس لها، بمعنى أنه يتخذها درساً وعبرة بالإضافة إلى إحراز الثواب بالإسترجاع.

وتخصيص المسلمين بقوله تعالى ﴿وَنَلْبِسْكُمْ﴾^(١)، لا يعني عدم إبتلاء غيرهم لأن الدنيا دار إبتلاء وإمتحان، ولكن المسلمين ينفردون بنعمة الإسترجاع كونه مطلوباً بذاته، وهو وسيلة للثواب والأجر بينما يعاني غيرهم من المصيبة من غير أن يكون الإسترجاع حاجزاً يخفف من أثرها. وتمنع الآية من فعل ما يخالف أحكام الشريعة عند المصيبة والإبتلاء ومداهمة الأذى.

وفي الآية مسائل:

الأولى: جاءت الآية بصيغة الجملة الخبرية، والمراد المسلمون لإتصال أول هذه الآية بخاتمة الآية السابقة ومجيء الاسم الموصول الذين صفة للصابرين والتقدير ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ **الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ**، وفيه دلالة على فوز المسلمين بمرتبة الصابرين من بين الأمم، وأنها الأمة الصابرة، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

الثانية: جاءت الآية السابقة بالأمر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن يشر الصابرين وفيه ترغيب للمسلمين بالصبر، وبيان منافعه الدنيوية والأخروية.

(١) الآية ١٥٥.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

الثالثة: يدل نظم الآيات على كفاية قول (إنا لله وإنا إليه راجعون) عند المصيبة لبلوغ مرتبة الصابرين التي ذكرتها الآية السابقة بقوله تعالى (وبشر الصابرين).

الرابعة: تعليق المصيبة بالظرف (إذا) وما فيه من صبغة الشرطية والمفاجأة، وفيه دعوة للمسلمين والمسلمات بسؤال السلامة والأمن من المصيبة والنجاة من مقدماتها وآثارها، لذا فإن ورود الظرف (إذا) في الآية إعجاز وإرشاد للمسلمين لدفع المصيبة، ومداومتها للفرد والجماعة، فإن قلت: إن المصيبة بأمر الله وعلمه ، قال تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(١)، والجواب والجواب إن هذه الآية شاهد على الحاجة إلى الدعاء في المقام وأنها لا تتعارض مع قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُثْبِتُ﴾^(٢).

الخامسة: جاءت الآية بصيغة الجمع ، وتحتل وجوهاً:
الأول: المقصود المصيبة العامة التي تحمل بالمسلمين، كما في الخسارة التي تعرض لها المسلمون في معركة أحد.

الثاني: المصيبة الخاصة التي تأتي على المسلم.

الثالث: المصيبة العامة والخاصة.

ولا تعارض بين هذه الوجوه، وهو من أسرار مجيء الآية بصيغة الجمع.
السادسة: بيان وقع وشدة وطأة المصيبة وما يترتب عليها من الأضرار، فجاءت الآية الكريمة لهداية المسلمين لدفع تلك الأضرار، والوقاية من آثار

(١) سورة التغابن ١١.

(٢) سورة الرعد ٣٩.

المصيبة الأليمة، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(١).

السابعة: مصاحبة التخفيف عن المصيبة للمسلمين في الحياة الدنيا، ومن
الآيات أن تلاوة هذه الآية من مصاديق التخفيف قبل وأثناء وبعد المصيبة،
وهل هي من الإسترجاع الجواب نعم للدلالة التضمنية ولأن التالي للقرآن
يتلو الإسترجاع ويتذكر ويذكر الآخرين به، وهو خير محض، ومن عمومات
قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(٢).

الثامنة: جاءت الآية بصيغة الجمع لتشمل المصيبة النوعية العامة التي تنزل
بالمسلمين، والخاصة التي تلحق الأفراد والأشخاص.

التاسعة: تدل الآية على لزوم إنعدام الفترة بين المصيبة والإسترجاع مما
يستلزم إستحضار الإسترجاع في حال الرخاء والسعة ليلجأ إليها المسلم عند
الشدة والمصيبة، ويتجلى هذا الإسترجاع بأبهى صورة بتلاوة هذه الآية في
الصلاة وغيرها وهو من أسرار قراءة آيات القرآن في الصلاة على نحو
الوجوب وليس الندب والإستحباب.

العاشرة: الترغيب بالثواب العظيم حال المصيبة، وهو من التعزية والمواساة
فيها، وشاهد على أن الثواب لا ينقطع عن المسلم في جميع الأحوال فهو
متصل ودائم.

بحث بلاغي

(١) سورة البقرة ٢.

(٢) سورة إبراهيم ٣٤.

إذا ظرف للمستقبل، وتدخل على الجملة الفعلية متضمنة لمعنى الشرط في الغالب فقد تخرج عن الظرفية وتقع مفعولاً به، وتخرج عن الإستقبال وتستعمل لما مضى من الأيام، وقد تكون للظرفية المجردة من الشرطية، وتأتي للحال كما هو في الآية لإفادة الإستمرار والتجدد سواء كان بالموضوع أو المحمول، بعدد الأشخاص الذين يسترجعون عند المعصية، أو عدد المصائب التي يسترجع بها الشخص نفسه، إذ أنه لا يكفي صرف الوجود والمرة الواحدة في الإسترجاع.

ف(إذا) تفيد التجدد والإستمرار والتوالي ففي كل مرة يصاب بها المؤمن بمصيبة عليه ان يسترجع.

مسائل فقهية

الأولى: لا يجوز اللطم والخدش وجز الشعر والصراخ العالي ويكره شق الثوب في مصيبة الموت على غير الأب والأخ.

الثانية: لا يجوز للمرأة ان تجز في المصيبة شعرها، أي تقطعه وتقصه، والأقوى عدم وجوب الكفارة لا مرتبة ولا مخيرة ولأصالة البراءة، نعم عليها الإستغفار لو جزته .

الثالثة : لا يجوز للمرأة عند المصيبة نتف شعرها أي نزعها من أصله او خدش وجهها، وكذا لا يجوز للرجل شق ثوبه عند موت ولده او زوجته، ويستحب عند الفعل كفارة يمين وهي إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام. لا شيء في اللطم على الخدود عند المصيبة سوى الإستغفار والتوبة.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بالاسم الموصول المتعلق بالصابرين وخاتمة الآية السابقة لترغيب المسلمين بالصبر مطلقاً والإسترجاع خاصة، وتحتل الآية وجوهاً:
الأول: نيل المسلمين صفة الصابرين قبل الإسترجاع في المصيبة.

الثاني: بلوغ المسلمين درجة الصابرين بالإسترجاع.

الثالث: إرادة المعنى الأعم وشمول الآية للحالتين.

والصحيح هو الثالث، فالصبر صفة ملازمة للمسلمين في ميادين الدفاع وحال السلم والحضر والرخاء، وجاء قبل ثلاث آيات قوله تعالى ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١)، في دلالة على أن أداء التكليف صبر، وأن الصبر عون لتلقي المصيبة بالإسترجاع، وجاءت هذه الآية من طرفين:

الأول: نزول المصيبة بالمسلمين على نحو الشرط والتعليق الزماني.

الثاني: اللجوء إلى الإسترجاع حال المصيبة.

ليكون الإسترجاع علاجاً وتعزية عند المصيبة، ووسيلة لدفع الحزن عن النفس وأضراره على البدن وصحة الإنسان، وصلاته الإجتماعية وأدائه للعبادات، ولم يستطيع الطب الحديث العلاجي والوقائي والنفسي التوصل إلى صيغة للتخفيف عن الإنسان عند المصيبة أفضل من الإسترجاع، وهو من إعجاز القرآن، وشاهد على نزوله من عند الله عز وجل، من وجوه:

الأول: في الإسترجاع سكن للألم، وتخفيف عن الحزن.

الثاني: ليس في الإسترجاع أعراض وآثار جانبية كتلك التي تحدث عن العقاقير الطبية.

الثالث: الإسترجاع مناسبة للتدبر في المصيبة وأسبابها.

الرابع: اللجوء إلى الإسترجاع دفع لأضرار المصيبة وآثارها العرضية، فقد يعطي الطبيب المصاب ما يجعل النوم يغلب عليه، بينما الإسترجاع يقظة وإعتبار.

الخامس: الإسترجاع تذكير بالفرائض ولزوم أدائها، والتوسل بها لطرده آثار المصيبة.

السادس: الإسترجاع إصلاح للنفس وتهذيب للسان.

السابع: في الإسترجاع تعاهد لوحدة المسلمين، والتعاقد والتعاون بينهم وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَاغْتَصِبُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾^(١)، لما فيه من الإمثال لأمر الله والإقرار بالرجوع إليه تعالى.

الثامن: قد يعجز الأطباء عن منع إحاطة المصيبة بالإنسان، ولكن الإسترجاع واقية سماوية منها ومن أضرارها.

التاسع: حضور الإسترجاع عند المسلمين حال المصيبة، فلا يطلب المسلم العلاج بل تأتية هذه الآية لتكون إرشاداً وسلامة من الأدران، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

التفسير الذاتي

ورد لفظ (مصيبة) في القرآن عشر مرات، تتضمن الدروس والعبر، ومنها ما جاء بصيغة الإنذار والوعيد، كما في قوله تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾^(٣)، التي تأتي للمناققين نوع عقوبة لهم،

(١) سورة آل عمران ١٠٣.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة النساء ٦٢.

بينما تكون المصيبة للمؤمنين مناسبة للأجر والثواب، ويأتي الإسترجاع على آثارها، وورد في القرآن ما يدل على أن الموت مصيبة، قال تعالى ﴿إِنَّ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾^(١)، في بيان موضوعية الوصية في السفر، وما لها من النفع والفوائد وإمتناع الضرر ودفع الأذى.

وفي الجمع بين الآية أعلاه والآية محل البحث حث على الإسترجاع عند مصيبة الموت وجعل النطق به نوع تعزية ومواساة لذوي الميت.

ومن الآيات أن هذه الآية هي أول آية في نظم القرآن يرد فيها ذكر المصيبة لتكون هناك ملازمة بين المصيبة مطلقاً والإسترجاع، ويكون الإسترجاع واقية حاضرة عند نزول المصيبة والإبتلاء، وفيه منعة وعز وقوة للمسلمين، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

الآية لطف

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار إبتلاء وإمتحان إلى الآخرة، وعن مجاهد: لما أهبط آدم إلى الأرض قال له ربه عز وجل : ابن للخراب ، ولد للفناء^(٣)، والله عز وجل يعلم أوان ولادة الإنسان وساعة مغادرته الدنيا، والتي تكون تكون مصيبة على ذويه سواء كان صغيراً أو كبيراً، ذكراً أو أنثى،

(١) سورة المائدة ١٠٦.

(٢) سورة المنافقون ٨.

(٣) الدر المنثور ٩٠/١.

ومع أن الموت حق وهو أمر مكتوب على الناس لا بد وأن يبلغه الإنسان فإن الله عز وجل سمى الموت مصيبة بلحاظ ما يلحق ذوي الميت مع الأسى والألم .

وبين المصيبة والموت عموم وخصوص مطلق، فالمصيبة أعم ولا تنحصر بالموت لأن الإنسان في الدنيا في حال من الإختبار والإبتلاء المتصل، فقد تكون المصيبة في المال أو النفس أو ضرر عرضي غير محتسب، وقد تكون شخصية أو نوعية تتعلق بالجماعة والأمة (وفي الحديث: من يُردِ اللهُ به خيراً يُصِبْ منه أي ابتلاه بالمصائب ليشيه عليها وهو الأمر المكروه ينزل بالإنسان)^(١) .

والمصيبة حادثة مؤلمة تسبب الإنكسار والتغيير في النفس على نحو قهري وإنطباقي، ومشقة تطرأ على النفس للنكبة والخسارة، فجاءت آية البحث للإخبار بأن المؤمن يبتلى أيضاً بالمصيبة، إلا أنه يلجأ إلى الله عز وجل بإعلان الإقرار بالعبودية له سبحانه وتجديد الإقرار بالرجوع إليه ، قال تعالى ﴿لَنْ أَمْلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٢) .

وفي الآية توطين للنفس وتهيئة المسلمين لوقوع المصيبة ، ومنها فقد الشهداء الذين خسرهم الإسلام في بدايات الدعوة الإسلامية وفي معركة بدر وأحد وما لحق المسلمين فيها من الخسارة والأضرار فجاءت آية البحث للمواساة بالتسليم بالعودة إلى الله عز وجل، لتمتلاً نفوس المسلمين بالصبر، ويستعدوا

(١) لسان العرب ١/ ٥٣٤.

(٢) سورة غافر ١٦.

لمواجهة الكفار من جديد من غير ملل أو كلل أو يأس، قال تعالى ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا سَبِيَّةً يَقْرَءُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾^(١).

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: بيان صفة الصابرين.

الثانية: ترغيب المسلمين بالصبر.

الثالثة: ذكر مصداق للصبر وهو الإسترجاع عند المصيبة.

الرابعة: الحث على الإسترجاع مطلقاً، إذ أن ذكر الآية للإسترجاع في حال المصيبة لا يعني الحصر به، بل هو أعم موضوعاً وحكماً.

الخامسة: توكيد حقيقة وهي أن الإسترجاع نعمة وهبة من عند الله للمسلمين.

السادسة: دعوة العلماء لإستقراء منافع الإسترجاع في ميدان العقيدة والعلم والإجتماع والسياسة والأخلاق.

السابعة: جاءت هذه الآية لتأسيس قانون ثابت إلى يوم القيامة وهو إنفراد المسلمين بالمواظبة على الإسترجاع، وإستحضاره عند المصيبة.

الثامنة: ذهاب الخوف من المصيبة المتوقعة، لإدراك ترشح التخفيف من آثارها بالإسترجاع.

التاسعة: دعوة المسلمين لإقتناء الثواب والأجر بالإسترجاع.

العاشرة: هداية المسلمين لسبل الصلاح والرشاد.

الحادية عشرة: توكيد تفضيل المسلمين على الأمم الأخرى.

الثانية عشرة: توالي فضل الله على المسلمين بما يجعلهم يواظبون على العبادات في حال المصيبة والحزن، مما يدل بالأولوية على لزوم المواظبة عليها في حال السعادة والغبطة والسلامة.

الثالثة عشرة: تهية أذهان المسلمين لحصول الخسارة في القتال، وفقد بعض الأحبة، وعدم الإصابة بالجزع والقنوط عندها، والتصدي لأهل الشك والريب بسلاح الإسترجاع الذي يدل على الإقرار والتسليم بأمر الله وقضائه.

الرابعة عشرة: لقد جاء قبل آيتين الإخبار عن حياة الشهداء عند الله^(١)، وجاءت الآية السابقة بالإخبار عن إبتلاء المسلمين بالخوف والجوع ونقص الأموال والثمرات، وجاءت هذه الآية واقية وحرزاً، ومن وجوه التوقي أن المسلمين في عين الله، وأنه سبحانه يعلم بما يصيبهم.

الخامسة عشرة: يتضمن الأمر بالإسترجاع في مفهومه الوعد الكريم من الله عز وجل بالعوض الكريم على المصيبة وأفرادها، وهو من مصاديق الصبر الذي يترشح عند الفرج والخير والظفر.

إنفاضات الآية

لقد جعل الله عز وجل الإنسان كائناً محتاجاً، وهو وفق القياس الإقتراني: الكبرى: الحاجة ملازمة لعالم الإمكان.

الصغرى: الإنسان ممكن.

النتيجة: الإنسان محتاج.

ويكون الإنسان في حال المصيبة أشد حاجة لما يطرأ عليه من المشقة والأسى، وإدراك الخسارة والضرر الذي لحقه، فجاءت الآية لهدايته إلى سبل السلامة وأوان المصيبة، فهو إن خسر في نفسه أو ماله أو فقد عزيزاً له، فعليه أن لا يخسر في دينه بل يجب أن يتعاهد ذكر الله لتكون المصيبة مناسبة لذكره لله عز وجل وفيه بعث للسكينة في نفسه، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(١).

من إعجاز الآية أنها جاءت بصيغة الجمع ليتوجه المسلمون جميعاً عند المصيبة إلى ذكر الله وإعلان الرجوع إليه سبحانه والتسليم بأن الموت حق والبعث والنشور حق، قال تعالى ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّارْيُبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾^(٢).

وهل في صيغة الجمع في الإسترجاع تعطيل لصيغ التعاون والتعاقد بين المسلمين عند المصيبة الجواب لا، بل هو مفتاح لهذه الصيغ، ودعوة للإيثار، والبذل من أجل تدارك ودفع أسباب المعصية.

وجاءت الآية بلغة الماضي (الذين إذا أصابتهم) وفيه شاهد على أن المسلمين إرتقوا إلى مراتب الإسترجاع عند المصيبة، ليكون الإسترجاع ذخيرة إدخرها الله عز وجل للمسلمين، للتخفيف عنهم أوان المصيبة، ويكون هذا الإسترجاع ضياء ينير لهم دروب الرشاد، وبرزخاً دون ظلم النفس أو الغير

(١) سورة الرعد ٢٨.

(٢) سورة الحج ٧.

أثناء المصيبة، ومانعاً من بخس الناس حقوقهم، قال تعالى ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾^(١).

التفسير

قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾

إن مجئ الإسلام شريعة متكاملة وديناً جديداً داعياً الناس جميعاً لدخوله إنعطاف في تاريخ الملل والحياة الفكرية والعقائدية والاجتماعية على الأرض فترشح عنه وبسبب شيوع الكفر والضلالة والجهالة مواجهات وحروب بين المسلمين وغيرهم الأمر الذي ينتج عنه قهراً وإنطباعاً القتل والجروح الخطيرة والأضرار في الممتلكات مما قد يسبب وهناً وانكساراً في نفوس المسلمين او تردداً داخل بعض الأسر والجماعات وتأثراً عند بعض القبائل، فجاءت هذه الآية الكريمة لشحذ الهمم ولتحافظ على القدرة القتالية عند المسلمين ، قال تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾^(٣).

ويمكن جعلها مدداً في سوح القتال ولكن ليس بالمقاتلين والسلاح بل بالصبر والإيمان وحسن التوكل على الله، كما أن وظائفها لا تنحصر بالمعركة والمقاتلين بل تشمل النساء بالخصوص والأسر عامة، فهي تدعو المرأة إلى إستحضار اللجوء إلى الله عز وجل عند الإبتلاء بفقد الأب أو الأخ أو الزوج خصوصاً وأن المرأة تمتلك من العواطف ما يشق معها مواجهة النكبات وتوالي أسباب الخسارة والضرر، وفي الآية مسائل:

الأولى : جاءت الآية بصيغة الماضي مما يعني الإمضاء والإنشاء، وحصول الإبتلاء، ومعنى الإستقبال يفيد إستدامة القول والكيفية وكأنها ملكة ثابتة

(١) سورة الشعراء ١٨٢.

(٣) سورة آل عمران ١٣٩.

وسجية نفسية عامة عند المسلمين وملازمة لهم.

الثانية : تفيد لغة الجمع ﴿الَّذِينَ﴾ ، العموم والكثرة والشيوع في اللجوء إلى الله عند المصيبة والنكبة والابتلاء، ولا مانع من القول بأن (قالوا) اعم من (الذين) وإن كان صلتها، أي أن القائلين هم من أصحاب المصيبة ، ويمكن توجيهه على نحو أكثر بلاغة لظاهر اللفظ وهو أن المصيبة تحمل على نحو مشكك، منهم من تصيبه مباشرة، ومنهم بالواسطة، ومنهم بالذات، وآخر بالعرض، لأن الضرر الشخصي يؤدي بالنتيجة إلى الضرر النوعي العام على المسلمين.

الثالثة : قوله تعالى ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ صيغة كريمة لمواجهة المصيبة باعلان التسليم لأمر الله تعالى والإقرار له بالعبودية، إن كل ما عندنا هو له تعالى ومنه، يسلبه إن شاء من غير إعتراض منا، وفيها شكر لله تعالى على بقاء نعمة الحياة والوجود.

الرابعة : فيه إظهار للعجز عن رد أمر الله وقضائه فمتى ما أدرك الإنسان أن كل شيء عنده هو لله فلا يحتج أو يصيبه الكدر بفقدانه وأخذه منه.

الخامسة : تظهر الآية أن الموت ليس إلا إنتقالاً من حال إلى حال ضمن ملك الله تعالى وأنه عبارة عن تغيير في الصورة النوعية والمحل من غير تبدل في الماهية والذات.

السادسة : تدل الآية بالدلالة التضمنية على أن الإنتقال إلى الآخرة بالشهادة يجعل الإنسان أقرب إلى الباري عز وجل.

السابعة : لفظ ﴿إِنَّا﴾ للجمع يتعلق بالميت والحي معاً وليس الميت وحده، أي أن المصيبة والنكبة تكون بهذه الآيات مناسبة لإشتياق الحي للقاء الله عز وجل.

الثامنة : الإيمان والتسليم بالإلتقاء بالأحبة الذين فجع بفقدهم وقتلهم

حيث السعادة الدائمة.

التاسعة : إننا لا نملك من أنفسنا شيئاً ولا نستطيع دفع امر الله عز وجل عنها لأنها ملكه ومستجيبة لإرادته كباقي الممكنات.

العاشرة : الإقرار بأن الدنيا دار فناء وزوال وأنا لا نستطيع البقاء فيها.

الحادية عشرة : لما كنا ملكاً وعبداً داخرين لله عز وجل فان ما نملك وما يصيبه التلف هو ايضاً منه تعالى.

الثانية عشرة : المصيبة والإبتلاء في الله عز وجل محل فخر وإعتزاز لأننا عبيد الله ولم نصب بخسارة ونكبة إلا فيه تعالى وله.

الثالثة عشرة : في الصبر على المصائب بشارة ووعد فيكون طريقاً إلى الجنة.

الرابعة عشرة : الآية دعوة كريمة لتلقي النكبة والمصيبة بالصبر لما فيه من الثواب العظيم.

الخامسة عشرة : ما يصيبنا من البلاء في علم الله عز وجل وجزء من ملاك الإيمان.

السادسة عشرة : جاءت الآية بصيغة الجمع مع أنها تتخاطب المفرد أيضاً فلو قالها شخص أحتسبت للجماعة والأمة وهو نوع تخفيف وإكرام، وكأنه من المستحب الكفائي في باب الثواب وليس الأداء ، فقيام أحدهم بالإسترجاع محتسب للجميع ، ولكنه يختلف عن المستحب الكفائي بأن إتيان البعض للإسترجاع لا يسقطه عن الآخرين ، لما فيه من الخصوصية والثواب الخاص وترتب الأثر النفسي بإتيانه وإنحلال الخطاب بالإسترجاع بعدد المكلفين وأهل المصيبة.

السابعة عشرة : تطلب الآية من المؤمنين إظهار الصبر والتحمل بقول: ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إذ أن السكوت أعم من الرضا، فان قلت إن الله عز وجل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فيكفي السكوت إذا كان عن

رضا قلت: إن الذي يحلل أو يحرم هو الكلام وأن الصبر هنا أمر وحال يتوقف عليه عظيم الثواب في الآخرة ، فلا بد من إبرازه خارجاً ، أما ما ورد في سكوت الباكر في الزواج مثلاً وأنه دلالة الرضا والقبول فلدليل ونص خاص به .

وتأمر الآية نفسها بإظهار مفاهيم الصبر والرضا خارجاً وإن كان يأتي على نحو الجملة الخيرية بالإسترجاع لإقامة الحجة وإتمام الفائدة أيضاً لما فيه من دعوة للآخرين بالصلاح والإصلاح ولأن الإسترجاع سلاح ذو حدين يفيد تثبيت الإيمان في النفوس ودحر الأعداء.

الثامنة عشرة : ورد في الخبر عن الإمام علي عليه السلام أنه سمع رجلاً يقول: انا لله وانا اليه راجعون فقال: يا هذا ان قولنا انا لله اقرار منا بالملك وقولنا: وانا اليه راجعون اقرار منا بالهلاك.

وقد يظن ان قوله الصلوات لتوبيخ للقائل ولكنه اكرام له لأن ظاهره ارادة تعظيم شعائر الله ، فالإمام جعل استرجاعه مناسبة لتعليمه قواعد واحكام الإسترجاع العقائدية وما يترشح عنه من دلالات ، ليظهر منها بالضرورة ما يترتب عليه من الثواب ، وفي هذا البيان افشاء للإسترجاع وترسيخ لأركانه في المجتمعات وجعله جزء من الواقع اليومي للفرد والجماعة.

التاسعة عشرة : الظاهر أن في الإسترجاع إخباراً عن قرب إنتقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى فهو نوع مواساة للمسلمين ومقدمة علمية وعون على تلقي أعظم المصائب بالصبر والإسترجاع والذكر وإستحضار الوظائف الجهادية التي تجب على المسلمين .

ويمكن إستقراء هذا الإستظهار من عمومات قوله تعالى ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ، للتعبير عن الصبر والتحمل بين المصائب والمبشرين ، وإجراء دراسة تأريخية وميدانية لحال المسلمين عند وفاته صلى الله عليه وآله وسلم

وسلم وما جرى بعدها من الأحداث يبين بجلاء الأثر الإيجابي العام لمدرسة الإسترجاع، قال تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَتَّبَلْتُمْ عَلَىٰ أَغْقَابِكُمْ﴾^(١).

العشرون : يدخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الخطاب التكليفي بالإسترجاع عند المصيبة وان كان ظاهره الآية قيامه بتبشير الصابرين، وصحيح ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم دائم الذكر ولا ينقطع عن التسبيح وينزل عليه الوحي وروح القدس إلا أن الإمثال يتجسد بسنته الشريفة بابهى معانيه وأفضل وجوهه وأشرف مراتبه كما تقدم أنه صلى الله عليه وآله وسلم إنظفاً سراحه فقال: "إنا لله وإنا إليه راجعون".

الحادية والعشرون : الإسترجاع مدرسة في إدراك النقص الملازمة للإمكان وان الإنسان محتاج إلى واجب الوجود إبتداء وبقاء في الحياة الدنيا وعالم ما بعد الموت.

الثانية والعشرون : كما أن المصيبة ومواجهتها بالإسترجاع لا ينحصر بالبلاء في الحروب والفتن وما هو خلاف المتعارف والأسباب الطبيعية، فانها تشمل أيضاً ما يجري وفق الإرادة التكوينية والتبدلات الكونية، وقانون العلة والمعلول، وعدم تخلف المعلول عن علته وأحكام قوانين السببية، فكل ما كان فيه أذى وإبتلاء منها يصدق عليه أنه مصيبة يتلقاها العبد بالإسترجاع وكأنها مناسبة قهرية للثواب، فموت الأب والجد بعد الشيخوخة والتقدم في العمر هو أيضاً مصيبة.

الثالثة والعشرون : يمكن القول بأن الإسترجاع من أفراد ومصاديق الدعاء بالمعنى الأعم لأنه التجاء وتسليم بامر الله تعالى.

الرابعة والعشرون : قول ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ يسمى إختصاراً

الإسترجاع، وكأن فيه عودة وتفويضاً وخلفاً لما فقد الإنسان إكراماً له على إيمانه وثقته وحسن توكله، قال تعالى ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ﴾^(١).

الخامسة والعشرون : وردت نصوص كثيرة من السنة تبين منزلة الإسترجاع وتعدد الأحوال التي يستحب فيها وتباينها قوة وضعفاً، وسعة وضيقاً، لتشمل كل أذى يتعرض له المؤمن، لأن الملاك اللجوء إلى الله تعالى والتسليم المطلق له بالربوبية.

السادسة والعشرون : الإسترجاع باب للثواب وعظيم الأجر ومناسبة كريمة لسؤال الخلف والعوض والبديل فضلاً منه تعالى، وورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبتة واحسن عقباه وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه".

السابعة والعشرون : لعل في الإسترجاع وقاية من زيادة الأذى، وتجدد المصيبة وإستحداث أبواب جديدة من البلاء لأنها تسليم ورضا بأمره سبحانه وتفويض ولجوء وإستغاثة به تعالى، فتكون من مصاديق قوله تعالى ﴿يَخُوتُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾^(٢).

الثامنة والعشرون : الاسترجاع حصانة من مضاعفة آثار الواقعة النازلة والمصيبة الحادثة، وتزيد من بصيرة العبد لأنه لا ينظر من خلال المصيبة واهوالها وآثارها او يقف عندها، بل ينظر بنور الإيمان الذي يعتبر سلاحاً وحرزاً وسبيل هداية ورشاداً.

التاسعة والعشرون : بالإسترجاع تكون المصيبة مناسبة لإكتناز الصالحات والحسنات.

(١) سورة الأنبياء ٨٤.

(٢) سورة الرعد ٣٩.

الثلاثون : الإسترجاع إقرار وتسليم لأن الحكم حينئذ يرجع إلى الباري عز وجل كما يقال رجع المتخاصمان إلى الشريعة، أي إلى حكمها.

الحادية والثلاثون : مما هو متعارف في هذا الزمان تدارك شركات التأمين للخسارة في ذات الشيء المشمول بالتأمين، والإسترجاع تأمين سماوي جاء بصيغة العهد والوعد الكريم.

والنسبة بين الإسترجاع وبين نعت (الصابرين) الوارد في الآية السابقة هي العموم والخصوص المطلق، فصفة الصابرين التي نالها المسلمون أعم من الإسترجاع، وهي ملكة يترشح عنها الإسترجاع عند المصيبة، ويكون شاهداً على إرتقائهم إلى مرتبة الصابرين، وإمتناعهم عن الجزع واليأس والفرع، قال تعالى ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾^(١).

ويمكن تقسيم المصيبة إستقرائياً إلى قسمين:

الأول: المصيبة الطارئة التي تحلى دفعة وفجأة.

الثاني: المصيبة المستديمة، التي تصاحب الفرد والجماعة.

وتدل الآية في مفهومها على حصانة المسلمين من المصيبة المستديمة والتي تصيب غيرهم، فمثلاً كتمان البينات والبشارات الذي ذكرته الآية التالية مصيبة لما فيه من اللعنة والطرده من رحمة الله للذين يخفون البينات^(٢).

قوله تعالى ﴿وَأَنَّا إِلَهُدِّ رَاجِعُونَ﴾، في الآية مسائل:

الأولى : إقرار وتوكيد بالرجوع الحتمي إلى الله تعالى وفيه غاية التخفيف حال النكبة والإبتلاء والمصيبة.

الثانية : إعتراف وإقرار بالموت وعدم البقاء في الدنيا.

(١) سورة آل عمران ١٧٧.

(٢) أنظر الآية ١٥٩.

الثالثة : مقدمة وتوطئة كريمة لعالم الآخرة وحرز وإدخار لعالم البرزخ.

الرابعة : مغادرة الأحبة بالقتل في سوح القتال انما هو سبق وتقدم زماني فيما ينتظرهم ايضاً ولكنه يختلف بما فيه من احراز عظيم الثواب في الآخرة.

الخامسة : المصيبة قربان ومقدمة للقدوم على الله.

السادسة : تحد وثبات على الإيمان ومواجهة للكفار فهم يظنون ان المصيبة والخسران ستخذل المسلمين وتضعف قدرتهم وتقلص من قوتهم.

السابعة : من ثمرات ونتائج هذا القول اصابة الكافرين بخيبة امل وارتباك لقوة عزيمة المسلمين وصبرهم وارادة العمل عندهم.

الثامنة : تجديد ادراك حقيقة الرجوع الى الله عز وجل والوقوف بين يديه للحساب.

التاسعة : المحافظة على قوة العزيمة والإندفاع في القتال والتصدي لقوى الكفر والضلالة.

العاشرة : بعث الخوف في قلوب الأعداء ، ففيها إخبار بان المسلمين ماضون على نهج السابق منهم.

الحادية عشرة : يدل الإسترجاع بالأولوية على استحضر الذكر عند طرد النعمة وتوالي الفضل الإلهي فاذا كان المسلم بأقصى الأحوال يعلن ايمانه وتسليمه بأمر الله فمن باب اولى ان لا ينسى ذكره وشكره على النعم المتتالية.

الثانية عشرة : تعظيم شعائر الله وتأديب الآخرين وترك ميراث عقائدي للأبناء يكون واقية من الجزع والفرع والغضب والإرباك لذا لابد من تعليم الابناء الإسترجاع وموارده والحث عليه وتشجيع

القائل به والثناء على الذي يلجأ اليه.

الثالثة عشرة : مضامين هذه الآية ثمرة من ثمار الآية المتقدمة ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ﴾^(١) والعلم بحياة الشهداء الكريمة فيما بعد الموت يهون الخطب ويخفف وقع المصيبة وألم الفراق.

الرابعة عشرة : كأن الإسترجاع تشيع عقائدي علمي عقلي للميت، اذا كانت المصيبة هي الموت، وبذا تكون كل الوقائع والأحداث مناسبة لإكتناز الصالحات.

الخامسة عشرة : الإعلان عن الرغبة بلقاء الله بطريق السعادة والشهادة.

السادسة عشرة : نيل الثواب وطلب الأجر بهذه الكلمات.

السابعة عشرة : إظهار صيغ الإيمان والهداية في اشد مواطن البلاء.

الثامنة عشرة : الإعلان للملأ بان الإيمان لم ينحصر بالتلفظ بالشهادتين فقد إستولى على الجوارح والجوانح واصبح مستقراً غير متزلزل.

التاسعة عشرة : الاقرار والإخبار بان امرنا وحسابنا سيكون بيد الله تعالى فيجب ان نحسن الطاعة كي نلاقيه تعالى بما يحب ويرضى.

العشرون : دعوة للناس جميعاً للتدبر والتفكر في دخول الإسلام.

الحادية والعشرون : قذف الرعب والفرع في قلوب اعداء الإسلام بمواجهة أشد وأقسى صيغ محاربة المسلمين بالإسترجاع.

الثانية والعشرون : دعوة وأمر بالإسترجاع واستحضار الانابة

والمصير الحتمي الى الحساب وعالم الآخرة.

الثالثة والعشرون : وردت نصوص عديدة في الحث على الإسترجاع وبيان فضله وما فيه من الثواب، منها ما ورد عن الصادق عليه السلام عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : "أربع من كن فيه كتبه الله من اهل الجنة: من كانت عصمته شهادة ان لا اله الا الله، ومن اذا انعم عليه النعمة قال: الحمد لله، ومن اذا أصاب ذنباً قال: أستغفر الله، ومن اذا أصابته مصيبة قال انا لله وانا اليه راجعون"^(١)، وورود الإسترجاع بعرض واحد مع الإستغفار وشكر النعمة يدل على موضوعيته في مراتب التقوى، وكونه طريقاً إلى الجنة وأنه حاجة اخلاقية وفرع التوحيد والتسليم بالربوبية.

الرابعة والعشرون: من فلسفة الإسترجاع دلالته على صدق الدعوة الإسلامية لأنه علاج وتدارك وتحجيم سماوي لوقع المصيبة والفاجعة، ومانع رسالي من حصول آثارها السلبية وتفشي أضرارها، وهو دعوة للآخرين لدخول الإسلام.

الخامسة والعشرون : هل يجزي الإسترجاع مرة واحدة ام لابد من التعدد، الجواب: إنه يجزي مرة واحدة، والتعدد مستحب، وهو من الذكر ومناسبة لإقتناء الحسنات.

السادسة والعشرون : من منافع الإسترجاع بقاء إستقرار المجتمعات، وعدم حصول الأزمات وفيه رجوع إلى الحكم الشرعي، ومنع من الإنتقال الدفعي إلى التأثير والإنتقام.

السابعة والعشرون : في الإسترجاع طرد للشيطان ووسوسته وخطراته فمن بين الثغرات التي ينفذ منها الجزع والهلع واليأس والخيبة والقنوط، وهي أمور تفرزها المصيبة وتظهر على المصاب وتندفع وتبدد بالإسترجاع

وتتكشف ظلماتها بالذكر.

الثامنة والعشرون : الإسترجاع مناسبة كريمة للتعامل مع المصيبة على أحسن وجه ووفق القواعد الشرعية، فهو حائل دون إستيلاء الغضب مثلاً على الإنسان وحصول ما يخلف الندم.

التاسعة والعشرون : التلطف بالإسترجاع وجه من وجوه الذكر الذي هو حسن على كل حال وفيه إعتبار مناسب لحال الإبتلاء، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾^(١) ويأتي في حال حال يحتاج فيه العبد الى رحمة تعالى في تخفيف الإبتلاء والاثابة عليه.

الثلاثون : انه نوع دعاء، وإلتجاء إليه تعالى يستحب الدعاء في حال الشدة والرخاء.

الحادية والثلاثون : الاسترجاع مدرسة في الموعظة والعبرة في أشد حالات الحاجة اليها، فحينما رأى الإمام الحسن عليه السلام رجلاً يبكي عند موت أبيه، قال عليه السلام له: "إن لم تتعظ من مصيبتك بموت أبيك فمصيبتك في نفسك أعظم".

الثانية والثلاثون : الإسترجاع هبة الهية انفرد بها المسلمون فيجب تعاهدها وملازمتها وهي ومنافعها، من عمومات قوله تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٢).

الثالثة والثلاثون : بين الاسترجاع والحمد لله عموم وخصوص من وجه، مادة الإلتقاء هي ذكره تعالى وإستحضاره في حال طارئة على الإنسان، ومادة الإفتراق ان الحمد عند حلول النعمة، والإسترجاع عند نزول البلاء.

(١) سورة البقرة ١٥٢.

(٢) سورة آل عمران ١٠٣.

الرابعة والثلاثون : بين الإسترجاع والإستغفار عموم وخصوص من وجه ايضاً، مادة الإلتقاء هي الإنابة إليه تعالى وذكره، ومادة الإفتراق أن الإستغفار ندم وتوبة وإستدراك من ذنب ومعصية تم إرتكابها، أما الإسترجاع فهو حادث قهري وخسارة طارئة من غير مدخلة للإرادة والقصد فيها في الجملة.

الخامسة والثلاثون : الإسترجاع توديع إيماني للميت بلفظ حسن ونحية إسلامية قرآنية فلذا يثاب عليه المؤمن.

السادسة والثلاثون : الإسترجاع أمانة سماوية في الأرض جعلها الله عز وجل عند المسلمين لأنهم أهل لها ولحفظها وإستثمارها، وهو دليل سلامة الشريعة والمجتمع من الآفات وشاهد على إستقرار الإيمان في نفوسهم وأنه ليس متزلزلاً.

السابعة والثلاثون : في الإسترجاع تتجسد قصة الخلق وأن الإنسان خلقه الله من العدم وهو ممكن وكذا ما عنده، فالتغيير والفناء حتم.

الثامنة والثلاثون : الإسترجاع إقرار بالمعاد وعالم الآخرة، وهذا الإقرار مناسبة للصالح والتقوى والتزود بالعمل الصالح.

التاسعة والثلاثون : يدل الإسترجاع بدلالته التضمنية على إعتراف صاحبه بانقضاء أيام الحياة الدنيا وزوال زينتها وحتمية الحشر.

وفي النبي يعقوب ذكر(أن حزنه على يوسف كان حزن سبعين ثكلى على أولادها، وكان عليه السلام لم يعرف الإسترجاع فمناها قال ﴿يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ﴾^(١)، مما يدل على أن الإسترجاع مرتبة مرتبة عالية نالها المسلمون ببركة المسلمون ببعثة النبي محمد صلى الله

عليه وآله وسلم وهو من عمومات ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

(ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عزته الملائكة، يسمعون الحس ولا يرون الشخص، فقالوا: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، أن في الله عزاء عن كل مصيبة وخلفاً عن كل فائت، فبالله ثقوا وإياه فارجوا، فإن المحروم من حرم الثواب والسلام)^(٢).

قال الأصمعي خرجت ومعني رفيق إلى البادية وإذا نحن بخيمة عن يمين الطريق فقصدناها، فإذا ليس فيها إلا امرأة فسلمنا عليها فردت علينا السلام ثم قالت من أنتم وما وجهتكم، قلنا ضللنا الطريق وجئنا نسترشد قال: ولوا وجوهكم عني حتى أقوم فأقض حق ضيافتكم، ثم قامت غير بعيد وأتت بفراش جميل وألقته إلينا، وقالت: إجلسا فجلسنا وقلنا نحن قوم ظمأ فأتت بماء فتناولناه وشربنا، ثم جعلت ترفع طرف الخيمة أنا بعد أن وترده، وسألناها فقالت فات أو ان عودة إبني وأني عليه خائفة ثم ما لبثت أن رفعتها، فقالت: أسأل الله بركة المقبل أما البعير فبعير إبني، وأما الراكب فليس بابني، ولما وصل البعير قال الراكب يا أم عقيل: أعظم الله أجرك في عقيل .

فقالت: ومات أبني يا هذا، قال: نعم مات، إزدحمت عليه الأبل ونفر بعيره فرمى به فوق في بئر هناك.

فقالت: إنزل فأقض ذمام القوم، ودفعت إليه شاة فذبجها وقرب إلينا الطعام فجعلنا نأكل ونتعجب من جلدها وصبرها على وحيدها وفلذة كبدها، فلما فرغنا من الطعام خرجت إلينا وقد تكدرت،

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) البحار ٣٩/١٣٢.

فقالت: يا هؤلاء هل فيكم من أحد يحسن من كتاب الله شيئاً أتعزى به قلت يقول الله تعالى في كتابه ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿﴾.

قالت: الله أن لفي كتاب الله هكذا، قلت الله: أنها لفي كتاب الله هكذا قالت: السلام عليكم ثم صفت قدميها وصلت ركعات ، وقالت ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

وقالت: عند الله أحسب عقيلاً ثم قالت: اللهم أني فعلت ما أمرتني به فأنجز ما وعدتني، وفي رواية: فقلت ماذا تريدني من الله أن يعطيك على صبرك، قالت: إن زوجة إبني عقيل حامل فأرجو من الله أن يرزقها بولدين.

ثم إرتحلوا وبعد سنوات خرج الأصمعي في رحلة ثم مرّ على تلك المرأة الصابرة فوجد غلامين يلعبان قرب الخيمة، فنظرت أم عقيل إليه فعرفته فقالت له: أنت الذي إستكثرت على الله بأن يرزق زوجة عقيل غلامين ها هما من فضل الله فقد إستجاب لنا الدعاء ورزقنا على صبرنا.

قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ الآية ١٥٧.

الإعراب واللغة

أولئك: اسم إشارة مبتدأ،

عليهم: جار ومجرور، متعلقان بمحذوف خبر مقدم.

صلوات: مبتدأ مؤخر، من ربههم: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة
لصلوات، رحمة: عطف عليها، وأولئك: الواو عاطفة، أولئك: مبتدأ، هم:
ضمير منفصل.

المهتدون: خبر أولئك، والصلوات: جمع صلاة ويتجلى معناها بلحاظ جهة
الصدور، وهي على أقسام:

الأول: الصلاة من العباد الدعاء والإستغفار.

الثاني: الصلاة في الإصطلاح هي الركوع والسجود، وإتيان فريضة
الصلاة وفق الكيفية التي أداها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (صلوا
كما رأيتموني أصلي)^(١).

الثالث: الصلاة من الملائكة الدعاء والإستغفار.

الرابع: الصلاة من الطير والهوام التسبيح^(٢).

الخامس: الصلاة من الله عز وجل الرحمة والثناء على العبد، ويدل
عطف الرحمة على الصلوات أن معناها أعم من الرحمة، وهو من عطف
الخاص على العام، وبينها عموم وخصوص مطلق، فكل صلوات هي

(١) تفسير القرطبي ٣٦٤/٥.

(٢) لسان العرب ٤٦٥/١٤.

رحمة، والصلوات أعم، ومن مصاديق العموم في المقام مجئ الآية بصيغة الجمع.

(وفي حديث ابن أبي أوفى أنه قال: أعطاني أبي صدقة ماله فاتيت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى).

في سياق الآيات

بعد ان حثت الآيات السابقة على الصبر عند وقوع المصيبة واتخاذها مناسبة قهرية للإعتاظ والإعتبار والإسترجاع، جاءت هذه الآية لبيان عظيم منافع الإسترجاع في الدنيا والآخرة.

الصلة بين هذه الآية والآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين آية (كما أرسلنا)^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: بيان المنافع العظيمة من رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على المسلمين.

الثانية: تدل هذه الآية وما فيها من وجوه الفضل الإلهي على المسلمين على صدق نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة: هذه الآية من الشواهد على عمومات قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

الرابعة: إخبار هذه الآية عن الصلوات والرحمة التي تنزل على المسلمين من الآيات التي يتلوها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عليهم.

الخامسة: هذه الآية من الشواهد على تزكية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين، لما فيها من ذكر مصاديق الصلوات والرحمة وأسباب الهداية.

(١) الآية ١٥١.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

السادسة : من الكتاب الأمر الإلهي للمسلمين بالصبر والإسترجاع عند المصيبة والإخبار عما يأتيهم من الفضل الإلهي.

السابعة: النفع العظيم الذي يأتي للمسلمين بالإسترجاع من عمومات قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ، الذي أختتمت به الآية السابقة.

الثاني: الصلة بين آية (فأذكروني) ^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:
الأولى: تبعث هذه الآية على ذكر الله ، وترغب فيه.

الثانية: تحت هذه الآية على الشكر لله لما فيها من النعم العظيمة.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين لزوم شكر المسلمين لله عز وجل على التوفيق لذكرهم لهم، وتفضله تعالى بذكره لهم، وصلواته ورحمته عليهم.

الثالث: الصلة بين آية ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ ^(٢)، وبين هذه الآية، وفيه مسائل:

الأولى: جاءت الآية أعلاه خطاباً للمسلمين، وجاءت الآية محل البحث في وصف المسلمين وتغشى رحمة الله لهم.

الثانية: تتضمن الآية أعلاه الأمر بالصبر ، وجاءت هذه الآية ببيان منافع الصبر لتتجلى في الجمع بينهما آية إعجازية في حضور فضل الله عز وجل وتعدد مصاديقه.

الثالثة: لما كانت الصلوات ورحمة تنزل بسبب الإسترجاع فإن أداء المسلمين للصلاة وإستعانتهم بها باب لنزول الصلوات وآيات من رحمة وفضل الله عز وجل عليهم.

الرابعة: أختتمت الآية أعلاه بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وذكرته هذه الآية النعم التي تتغشى الصابرين.

الخامسة: يفيد الجمع بين الآيتين أموراً:

(١) الآية ١٥٢.

(٢) الآية ١٥٣.

الأول: المسلمون هم الصابرون المهتدون.

الثاني: إن الله عز وجل مع المسلمين ومن مصاديق الصلوات في الآية محل البحث أمور:

الأول: أن الله يثني على المسلمين ويزكيهم.

الثاني: يمد الله المسلمين بأسباب الصلاح والهداية.

الثالث: يلفظ الله بالمسلمين ويقربهم من ميادين الطاعة، ويهديهم إليها.

الرابع: يجعل الله عز وجل المسلمين يؤدون الفرائض والواجبات، ويدفع المانع منها.

الخامس: يصرف الله عز وجل الشرور عن المسلمين ومقدمات المعصية.

السادس: يحجب الله عز وجل الأضرار العرضية للمصيبة عن المؤمنين، ويتفضل ببعث السكينة في نفوسهم.

الرابع: الصلة بين آية ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾^(١)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: شهادة أحد المؤمنين مناسبة لنزول الصلوات والثناء والرحمة من عند الله للمسلمين لأنهم يتلقون مصيبة فقده بالإسترجاع.

الثانية: بيان حقيقة وهي أن الشهادة نفع عظيم للشهيد ولن يبقى من بعده من ذويه والمؤمنين.

الثالثة: نزول الصلوات والرحمة من الله مقدمة وعون للمسلمين بأن لا يقولوا للشهيد أنه ميت.

الخامس: الصلة بين آية (ولنبلونكم)^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: البلاء الذي يصيب المسلمين مقدمة لنزول الصلوات والرحمة عليهم.

(١) الآية ١٥٤.

(٢) الآية ١٥٥.

الثانية: كما تتعدد وجوه البلاء على المسلمين تتعدد وتتكثر أسباب الرحمة وأفراد الفضل الإلهي العظيم عليهم.

الثالثة: جاءت خاتمة الآية أعلاه بالأمر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالبشارة للمسلمين الصابرين، وجاءت هذه الآية بمصاديق البشارة، وكل فرد منها آية ونعمة عظيمة من عند الله عز وجل.

الرابعة: يأتي الإبتلاء من عند الله عز وجل (لنبلونكم) وتأتي الصلوات والرحمة من عند الله عز وجل أيضاً وهو الذي بيده مقاليد الأمور الذي يتغشى المسلمين برحمته.

الخامسة: بيان الثواب الدنيوي العاجل الذي يلحق المسلمين على الإبتلاء، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

السادسة: أختتمت الآية أعلاه بقوله تعالى (وبشر الصابرين) ثم جاءت هذه الآية ببيان ثلاثة أفراد من البشارة، وفي الصلة بينهما وجوه:

الأول: العموم والخصوص المطلق، فالبشارة أعم من هذه الأفراد الثلاثة.

الثاني: التساوي بين المذكورة في الآية أعلاه وبين الأفراد والمضامين القدسية المذكورة في هذه الآية.

الثالث: تأتي النعم المذكورة في هذه الآية للذين يسترجعون عند المصيبة أما البشرية على ملكة الصبر وتجيلها في المواطن المختلفة فهي كثيرة ومتعددة.

والصحيح هو الثالث، فالبشرى أعم وتتغشى أيام الحياة الدنيا والآخرة، وترشح آثارها المباركة على الأبناء والذرية وفي ميادين الرزق وإستقرار الإيمان.

السادس: الصلة بين الآية السابقة آية (المصيبة)^(٢)، وبين هذه الآية، وفيها

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) الآية ١٥٦.

مسائل:

الأولى: طرد الخوف من المصيبة للشواب العظيم الذي يلحق المسلمين بالإسترجاع.

الثانية: تأكيد الحاجة بالإسترجاع.

الثالثة: الترغيب بالإسترجاع لما فيه من الثواب العظيم.

الرابعة: كما يأتي الإسترجاع من المسلمين الصابرين على نحو العموم الإستغراقي، يأتي الثواب العظيم.

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين هذه الآية والآية التالية آية (أن الصفا والمروة) ^(١)، وفيها مسائل:

الأولى: دفع المصيبة والأذى بإتيان الفرائض والمناسك.

الثانية: ما يلحق المسلمين من الإبتلاء ليس مانعاً وحرف أدائهم شعائر الله.

الثالثة: من مصاديق الهداية التي تشير إليها خاتمة هذه الآية أداء المسلمين المناسك.

الرابعة: أداء المناسك تخفيف من وقع المصيبة، وشاهد على إنقطاع المسلمين لذكر الله.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية (إن الذين يكتُمون) ^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى: بيان التمايز بين المسلمين وغيرهم إذ تنزل الصلوات والرحمة على المسلمين وهو من وجوه الترغيب بدخول الإسلام، ومصاديق قوله

(١) الآية ١٥٨.

(٢) الآية ١٥٩.

تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١).

الثانية: الثناء على المسلمين وأنهم لا يكتمون الآيات.

الثالثة: الآيتان من البينات والهدى الذي جاء به الكتاب.

الرابعة: وقاية المسلمين من اللعنة بنزول الصلوات والرحمة الإلهية عليهم، لأن اللعنة طرد من رحمة الله، وقد جاءت هذه الآية بالإخبار عن نزول رحمة الله على المسلمين.

الثالث: الصلة بين هذه الآية وآية (إلا الذين تابوا)^(٢)، وفيها مسائل:

الأولى: ترغيب أهل الكتاب بالإخبار عن البشارات التي جاءت بها الكتب السماوية بخصوص نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية: بعث السكينة في نفوس المسلمين بأن من أهل الكتاب من يظهر الآيات والبشارات ولا يكتمها.

الثالثة: الندب إلى التوبة وبيان منافعها العظيمة.

الرابعة: حث الناس على دخول الإسلام، والفوز بالنعم التي ذكرتها هذه الآية من الثناء على المسلمين ونزول رحمة الله عليهم، ووصفهم بأنهم مهتدون.

الخامسة: التوبة هداية، ومن يريد أن تشملها خاتمة هذه الآية (وأولئك هم المهتدون) فعليه بالتوبة والإنابة.

إعجاز الآية

بيان عظيم الأجر والثواب على التلفظ بهذه الكلمات واطهار الرضا والخسارة بالمصيبة، وفي صيغة الجمع ﴿أُولَئِكَ﴾ دلالة على حسن امتثال المسلمين ومقابلتهم المصيبة بالإسترجاع، والملازمة بين الأمر بالشيء وبيان

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) الآية ١٦٠.

ثوابه بلحاظ مجيء آية الثواب والجزاء متعقبة للأمر الإلهي بالاسترجاع، والإخبار السماوي بان الثواب مركب.

وظاهر الآية ان ثواب الإسترجاع لا ينحصر بعالم الآخرة بل يشمل الحياة الدنيا ومنه ما هو فوري وعاجل بلحاظ ما يترشح عن الصلوات منه تعالى صاحب الإسترجاع.

ويتجلى الإعجاز في الآية بقانون إعطاء الله عز وجل الكثير بالقليل، فالإنسان عاجز عن رد المصيبة، للإسترجاع ليفتح له أبواباً من رحمة الله، وكنوزاً من فضله على الفرد والجماعة من المؤمنين، ومن إعجاز الآية مجيء كلمات معدودات باللامتتهي من الفضل الإلهي، وكيف أن الله عز وجل مع الصابرين، وليكون كل فرد من أفراد هذه الآية الثلاثة نعمة على المسلمين تتفرع وتترشح عنها نعم كثيرة.

ويمكن أن نسمي هذه الآية آية (أولئك عليهم صلوات) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية مع أن لفظ صلوات ومرد فيه أربع مرات أخرى^(١).

الآية سلاح

تساهم الآية في اتمام استقرار المجتمع الإسلامي وصموده بوجه التعدي ومهاجمته بالسيف، الى جانب تأديب المسلمين والمسلمات وتعليمهم كيفية مواجهة المحن والشدائد وفيها بشارة الثواب العظيم على هذه الكلمات المعدودات.

والمصيبة في الآية لا تنحصر بأسباب معينة بل مقصودة بالذات المجردة عن العلل والاسباب السماوية والارضية، الذاتية والغيرية، الاختيارية او القهرية والاعتبارات الاضافية الزائدة، فكل استرجاع يتعقب الإبتلاء والمصيبة

(١) سورة البقرة ٢٣٧، سورة التوبة ٩٩٩، سورة الحج ٤٠، سورة المؤمنون ٩.

يترتب عليه الثواب والأجر.

إن كل فرد من أفراد الآية سلاح قائم بذاته ينفع المسلمين متحدّين ومتفرّقين، كما أنه يجتمع مع الطرفين الآخرين في بناء مجتمع إسلامي خال من الكدورات والآلام التي تدهم النفوس عند المصيبة ولا تغادرها إلا بعد أن تترك ندبة سوداء، وآثاراً من الجزع واليأس ليكون الإسترجاع واقية منها، ويجهز عليها.

مفهوم الآية

ما تتضمنه الآية من البشارة والوعد الكريم يجعل الصبر ملكة راسخة في النفس، ويجعل اللجوء الى الإسترجاع عاماً ومستديماً، فالإنسان عند المصيبة يصاب بالذهول وينقطع اليها وينشغل بتصور احوالها المفاجئة وقد يغفل عن الإسترجاع فتأتي هذه الآية للترغيب بالإسترجاع والحث عليه واستثمار حال المصيبة لإكتناز الصالحات.

وتبين الآية عظيم اتصال فضله واحسانه تعالى على المؤمنين وانه لا ينقطع حتى في حال الشدة والمصيبة بل بالعكس قد تكون المصيبة مناسبة للتوبة والمغفرة.

وتبين الآية قانوناً دائماً وهو عدم إنقطاع الفضل الإلهي عن المسلمين والناس، وأنه يأتيهم في كل الأموال، قال تعالى ﴿مَا دَعَا رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾^(١)، قَلَى^(١)، وجاءت الآية بصيغة الجملة الخبرية مع إرادة عموم المسلمين والمسلمات لترغيبهم بالإسترجاع، والإشارة إلى تعليق في هذه الرحمة الخاصة على الإسترجاع والتنبية عليه، مما يدل على أن الصلوات والرحمة المذكورة في الآية إنما هي تفضل إضافي يرد للمسلمين بخصوص الإسترجاع،

(١) سورة الضحى ٣.

وهي كنز مدخر لهم وسماء تمطر عليهم بشأيب الرحمة أو ان المصيبة، فتبعث السكينة في نفوسهم .

وتبين الآية أن الأمور كلها بيد الله وأنه تعالى يتغشى المسلمين برحمته ويقربهم إلى العبادات ويسر لهم أداءها في ساعة الشدة والحزن، مما يجعلهم ينجذبون إليها ويدركون منافعها ويحرصون على التمسك بها والمواظبة عليها، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾^(١)، وتدعو الآية كل مسلم ومسلمة ليكونا سبب نفع للمسلمين جميعاً، بأن يبادرا إلى الإسترجاع عند المصيبة فتزل الرحمة عليهما وعلى المسلمين جميعاً ويكون في الإسترجاع سعي لتحصيل المنافع العظيمة التي جاءت بها هذه الآية، وفيه تأكيد للإطلاق الزمني ولنيل المسلمين الثواب والأجر، وأنه لا يتوقف عنهم ساعة المصيبة وفي الحالات الطارئة التي تداهمهم لأنها تشغلهم عن ذكر الله .

فالمسلمون يأتون بالذكر المناسب حال المصيبة بأن يعلنوا التسليم بأنهم عبيد وملك لله عز وجل وأن كل ما عندهم من الله سبحانه ويقرون بالعجز عن رد القضاء والقدر، ويعترفون بأنهم لا بد وأن يرجعوا إليه وأن يوم القيامة حق ، قال تعالى ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ

وَالْمُؤَفُّونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبُؤْسِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبُؤْسِ
أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١﴾.

وفي الآية مسائل:

الأولى: نيل المسلمين الثواب والأجر على المصيبة، وإن كانت صغيرة.

الثانية: بيان تعدد مصاديق رحمة الله على المسلمين.

الثالثة: ترغيب الناس بدخول الإسلام لما فيه من المنافع العظيمة وأسباب
الصالح.

الرابعة: طرد اليأس والقنوط عن المسلمين.

الخامسة: الثناء على المسلمين ونعتهم بأنهم المهتدون لتعاهدهم للإسترجاع
عند المصيبة.

الآية لطف

لقد جعل الله عز وجل المسلمين أئمة للهداية والرشاد، وقادة في ميادين
الجهاد، فجاءت هذه الآية لإعانتهم على تعاهد وظائف الإمامة والزعامة
حال الشدة والمصيبة، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ
لِلنَّاسِ﴾^(٢)، لأن هذه الوظائف حاجة لهم وللناس جميعاً وهي من أسرار
خروجهم الذي تذكره الآية أعلاه.

لقد أراد الله عز وجل أن يزاحم الأمل والرجاء الحزن الذي يأتي
للمسلمين، ويمنع الشماتة والفرح من الدبيب إلى نفوس الكافرين بسبب ما

(١) الآية ١٧٧.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

يأتي من المصيبة للمسلمين، فالإسترجاع معافاة وسلامة من المصيبة حال وقوعها، وتلك نعمة ومرتبة لم تبلغها أمة من الأمم.

إن الله عز وجل يتفضل على العباد بتقريبهم إلى الطاعة وإنفراد المسلمين بوسيلة الإسترجاع التي هي مرتبة في الهداية، وشاهد على إحراز المسلمين السبق في الصلاح وطاعة الله، وعدم مغادرة مصاديقها في ساعة الشدة والأذى.

وتترشح عن الإتيان بالإسترجاع وأفراد هذه الآية الكريمة مضامين متعددة من اللطف الإلهي والتي تجلب المصلحة وتدفع المفسدة وتكون مناسبة لنيل المسلمين والمسلمات الثواب، وهي واقية من النار يوم القيامة، ومن عمومات قوله تعالى ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

لقد دفع المسلمون الحزن في الدنيا بالإسترجاع رجاء صرف العذاب عنهم يوم القيامة بالإمثال لأوامر الله، والبشارات الواردة في هذه الآية الكريمة والتي تتعدى في موضوعها وزمانها الحياة الدنيا، وتبعث السرور والغبطة في نفوسهم.

إنفاضات الآية

كل آية من القرآن هي جذبة إلى مقامات القرب من حضرة القدس، والسياحة في عالم الملكوت، وجاءت هذه الآية لتنمية وتعاهد ملكة الصبر عند المسلمين واللوذ بمقام الربوبية من البلاء الذي تتصف به الدنيا، وفي الإسترجاع إظهار لعجز الصبر عن مواجهة تحديات وشور الدنيا، ولجوء إلى الله عز وجل للنجاة والسلامة وهو غاية العلم الإنساني بأن يتدارك

(١) سورة البقرة ٣٨.

الضعف والعجز بالفرع والإسترجاع والإستجارة بالله عز وجل والإقرار بالعبودية المطلقة له .

والإسترجاع مناسبة لإكتساب العلوم، وأنوار المعرفة وتنزه من الكدورات وديب الشرك الخفي، وتدلل الآية على تنزه الله تعالى عن الظلم، وأنه سبحانه يعطي مع المصيبة والإبتلاء الخير الكثير، وبهذه الآية إختص المسلمون بنعمة عظيمة من بين الناس، فحالما تأتي المصيبة يستحضر المسلم النعم الكثيرة واللامتناهية التي تصاحب الإسترجاع، وترشح عنه، والتي ذكرتها هذه الآية فتمتلاً نفسه بالرضا والغبطة بفضل الله وينقطع أثر المصيبة ونزول آثارها السلبية .

ولكن منافع هذه الآية الكريمة متصلة ومتعاقبة، وهي توليدية وإنشطارية، ومن إفاضات الآية بيان عظيم قدرة الله وأنه سبحانه لم يخلق الناس ويتركهم وشأنهم بل يتعاهدهم بمضامين اللطف، وأسباب الغبطة والسعادة، وهي دعوة متجددة للإسلام، وترغيب للناس بدخوله والفوز بالصلوات والرحمة من الله، ونيل مرتبة المهتدين، وهي من عمومات قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١).

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية باسم الإشارة للجمع والمراد المسلمون، ويتضمن المدح والثناء عليهم، بلحاظ خاتمة الآية قبل السابقة التي وصفتهم بالصابرين في مواجهة المصائب والشدائد، لتجتمع خاتمة الآية السابقة وبداية هذه الآية في مدح المسلمين، ويكون هذا المدح مواساة إضافية لهم فيما يلاقونه من المصائب .

(١) سورة إبراهيم ٣٤.

وإبتدأت الآية السابقة بالاسم الموصول (الذين)، وهذه الآية باسم الإشارة (أولئك) ويتحد الموضوع فيهما مع التباين في المحمول ونوع المدح والثناء، فجاءت الآية السابقة للإخبار بلغة الشرك والإستقبال عن حدوث المصيبة، وحث المسلمين على الإسترجاع ساعة المصيبة، وجاءت هذه الآية لبيان الثواب العظيم على الإسترجاع واللجوء إلى ذكر الله عند الشدة والمصيبة .

وإبتدأت الآية بالصلوات وشأيب الرحمة، وفي صيغة الجمع فيها بلحاظ المتعلق وجوه :

الأول: الآية إنحلالية وكل مسلم يسترجع عند المصيبة تأتية صلاة واحدة.

الثاني: تأتي الصلوات المتعددة للمسلم الواحد.

الثالث: تتغشى الصلوات المتعددة المسلم الواحد، والجماعة والفرقة من المسلمين في آن واحد من غير تعارض بينها.

والصحيح هو الثالث، والله عز وجل هو الواسع الكريم ، وتقدير الجمع الآيتين بلحاظ صيغة المفرد هو: الذي إذا أصابته مصيبة قال إنا لله وإنا إليه راجعون ذاك عليه صلوات من ربه.

وتبعث صيغة الجمع في الصلوات الغبطة والسعادة في نفوس المسلمين، والحرص على إستحضار الإسترجاع عند المصيبة، فالنطق به سبب لنزول الثناء من الله عليهم، والشهادة بإيمانهم وصبرهم، وعدم جزعهم عند المصيبة، وبعد الصلوات جاءت الرحمة لتكون في طول الصلوات شاهداً على عظيم الفضل الإلهي على المسلمين في حال المصيبة، ودليلاً على رافة

الله بهم في الدنيا، وهو مقدمة وبرهان على رحمته تعالى عليهم في الآخرة حيث ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

وأختتمت الآية بذات اسم الإشارة الذي جاء في بدايتها ونعت المسلمين الصابرين بأنهم مهتدون، وفيه غاية الإكرام، ودلالة على أهليتهم لنيل مرتبة ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، ومن إخراجهم هذا تلقينهم الإسترجاع بصيغة الأمر والجموع إلى تعاهد في كل مصيبة، ويتلو المسلمون هذه الآية في الصلاة وحال الرخاء فهل تكون تلاوتها سبباً لنزول الصلوات والرحمة، أم أنها مقيدة بأمرين:

الأول: وقوع المصيبة.

الثاني: الإتيان بالإسترجاع بقصد الإمثال بنطقه عند المصيبة، الجواب من وجوه:

الأول: تلاوة القرآن حسنة وباب لنيل الثواب، وفي كل حرف عشر حسنات.

الثاني: لتلاوة هذه الآية أجر وثواب خاص، لأنها تذكير بلزوم الإسترجاع عند المصيبة، وإستحضار لمنافعه.

الثالث: الآية مناسبة للتوجه إلى الله عز وجل بالشكر والثناء على نعمة الإسترجاع، وإدراك أنها واقية من آثار وأضرار المصيبة.

(١) سورة البقرة ٢٦٢.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

التفسير الذاتي

ورد لفظ (صلوات) خمس مرات في القرآن أربعة منها في صلوات الرسول والمؤمنين ومواضع العبادة، وواحدة في الثناء على المؤمنين بقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾^(١).

وليس فيها صلوات من الله عز وجل إلا في هذه الآية الكريمة مما يدل على موضوعيتها، وأهميتها، وفيه دعوة للتقيد بمضامينها القدسية، والإنشغال منها فهي كنز من كنوز العرش، جعله الله عز وجل متديلاً في الحياة الدنيا لا يستطيع قطف ثماره إلا المسلمين لذا جاءت هذه الآيات بوصفهم بالصابرين والمهتدين.

وإذا جاء قوله تعالى ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢)، لبيان نزول الرحمة عند الإسترجاع الذي يصاحب المصيبة، وجاءت خاتمة سورة البقرة بسؤال الرحمة بقوله تعالى ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾^(٣)، وجاءت هذه الآية لإستجابة دعاء المسلمين بخصوص زمان المصيبة ويدل قوله تعالى ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٤)، على أن الإسترجاع ونزول الرحمة بسببه واقية من الخسارة، ومن تضييع العبادات والجزع واليأس والقنوط، وقد أراد الله عز المسلمين بقتال الكفار، وجاءت هذه الآية بعدم جواز تسمية الشهداء بالأموات، وبالثناء على المسلمين،

(١) سورة المؤمنين ٩.

(٢) سورة الأعراف ٥٦.

(٣) سورة البقرة ٢٨٦.

(٤) سورة البقرة ٦٤.

وحثهم على الإسترجاع لمنع الشيطان والقعود عن الجهاد عند حصول وكثرة القتل بين المؤمنين .

وحيثما خسر المسلمون بضعة وسبعين شهيداً في معركة أحد ظن الكفار أن هذه الخسارة تثني المسلمين عن القتال، أو تؤدي إلى ضعف أواصر الأخوة بينهم، وأخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين المهاجرين والأنصار، وجعل لكل أنصاري أخاً من المهاجرين، وهذه الآيات من عمومات ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١)، ونعت المسلمين بالمهتدين دعوة للناس للإقتداء بهم وإتباعهم ومحاسنتهم بالدخول في الإسلام والتصديق بالمعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: بيان تفضيل المسلمين على الأمم الأخرى من وجوه:

الأول: الإسترجاع نعمة وخير محض.

الثاني: الأمر بالإسترجاع لطف ورحمة.

الثالث: إختصاص المسلمين بالإسترجاع.

الرابع: الإسترجاع واقية من أمراض النفس الجسمانية، والوقاية وعلاج منها علم قائم بذاته وخال من الآثار الجانبية للدواء ، فمن الآيات إجتماع صنفى الوقاية والعلاج في الإسترجاع .

وهل يكون الإسترجاع واقية من تجدد المصيبة، الجواب نعم لأنه نوع دعاء وتسليم لأمر الله عز وجل بالإضافة إلى معاني محو المصيبة في هذه الآية والتي تتجلى بنزول الصلوات والرحمة من عند الله عز وجل.

الثانية: ترغيب الناس في دخول الإسلام، ولما فيه من الفيض والسلامة من الأدران والكدورات.

الثالثة: زجر الكفار عن التعدي على المسلمين.

الرابعة: الإستبشار بفضل الله عز وجل ساعة المصيبة، وفيه دفع لأضرارها، وهو مناسبة للتدبر بأسباب النجاة منها، والإحتراز العملي من آثارها.

الخامسة: الثناء على المسلمين ووصفهم بأنهم مهتدون.

السادسة: حث المسلمين على تعاهد الإسترجاع عند المصيبة، ولا ينحصر الإتيان بها بصاحب المصيبة بل يشمل غيره من المسلمين، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١)، كما أن إتيان الغير بالإسترجاع تذكير لصاحب المصيبة به وباللجوء إليه، فهو من عمومات الأمر وبالمعروف والنهي عن المنكر.

التفسير

بحث اجتماعي

قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة الى الذين استرجعوا وذكروا الله عند النكبة والبلاء وورود ﴿الَّذِينَ﴾ و ﴿أُولَئِكَ﴾ في الآيتين بصيغة الجمع مع وحدة الموضوع يدل على الاطلاق الزماني والمكاني للآية ويشمل ايضاً جماعة النساء وليس حصراً على الرجال لقاعدة الإشتراك أي اشتراك المرأة مع الرجل في الأحكام الا ما خرج بالدليل.

وتذكير اسم الإشارة او جمع المذكر السالم ﴿الصَّابِرِينَ﴾، او الضمير في قوله تعالى ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ﴾ للتغليب أي لتغليب قصد الرجل على المرأة وليس للإختصاص والحصص، نعم قد تكون حصة الرجل من الخطاب اكثر من حصة المرأة لأهمية واعتبار صبره وتحمله في ميادين الدفاع ومواصلة الدفاع عن الإسلام، ولكن لصبر المرأة موضوعية واعتبار حتى في الجهاد بحث الأزواج والإبناء على الجهاد والذب عن الإسلام ولا اقل من اظهار القدرة على تحمل اعباء مسؤولية البيت عند الغياب، كما انها تحتاج الصبر في ميادين عمل مستقلة بها.

والآية الكريمة لا تدل في مفهومها على التعارض بين الإسترجاع والبكاء على الميت ومن يقتل في سبيل الله بدليل ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه سمع نساء الأنصار يبكين قتلاهن حين عودته من أحد فقال صلى الله عليه وآله وسلم: "ليس للحمزة من يبكيه"، فحينما سمعت النساء ذلك اخذن يندبن حمزة، وقال المقرئزي وهو من رجال القرن الثامن الهجري: ولا زال نساء المدينة الى الآن يبدأن بندب حمزة عند موت قريب لهن.

وما يقال بان المرأة اكثر عاطفة يستلزم مزيد احتراز ولجوء الى الصبر الأمر

الذي لا يتحصل الا بدرجة زائدة من الإيمان والرضا بما كتب الله والسعي في دروب مرضاته تعالى، لذا فان المرأة مخاطبة ومقصودة بهذه الآية وعلى النساء ان يلتفتن الى توظيفها وتفسيرها وتأويلها في حياتهن اليومية، ولا بأس بتأليف كتاب واعداد دراسات تتعلق بصبر المرأة وموضوعيته في انتصار الاسلام وشحذ الهمم ومواصلة الصمود، مع ترجمة لبعض المؤمنات الصابرات البدأ بالزهراء عليها السلام التي سماها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أم أبيها) لما تحملت من اعباء جسام ومسؤوليات رسالية في ايام البعثة النبوية وبامهات المسلمين.

قوله تعالى ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾

تكريم وتشريف وثناء ووعد بالتخفيف ونزول الرحمة وما تعنيه من المصاديق الكريمة واللفظ والإنعطاف الإلهي بالفضل والعفو على المؤمنين مجتمعين ومتفرقين ومن مدلولات صيغة الجمع ارادة عموم الرحمة، كما ان الجمع في ﴿صَلَوَاتٌ﴾ يدل على تواليها وتعاقبها وكثرتها، فالجمع كعطاء منه تعالى يحمل على الأعم والأكثر الا ان يدل دليل على التقييد.

وهل تشمل الصلوات الابناء والأحفاد لأولئك الذين استرجعوا وقالوا انا لله وانا اليه راجعون الظاهر ان الصلوات تتعلق بهم دون ابنائهم الا ان يرحم الابناء بسبب تقوى وصبر الآباء كما في حال اليتيمين في سورة الكهف، وقيد ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قد يفيد ان الصلوات مباشرة من عند الله تعالى وليس بواسطة الملائكة وهو فضل اضافي (وقال الطبرسي: "بركات من ربهم" عن ابن عباس ^(١) ولكن نسبته للقليل تنكير وتضعيف للحديث، فاما ان يكون عن ابن عباس او ينسب الى القليل الا ان يقصد امراً آخر كالطعن بالسند، والبركات من مصاديق الصلوات التي تعتبر اعم موضوعاً ومحمولاً،

(١) مجمع البيان ٢٣٨/١.

والصلوات من الله المدح والثناء والرضا، ولعل فيها سبباً للمغفرة.
ومن معاني الصلوات في المقام الشكر من الله عز وجل للذين يلاقون
وقع المصيبة الذي ينزل دفعة واحدة بالإسترجاع وكأنه واقية حاضرة، وأمان
من هول الصدمة ووطأة الفاجعة، وفيه الخير والنفع.

ومن معاني وتفسير الصلوات والرحمة في المقام، (قول رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم : من إسترجع عند المصيبة جبر الله مصيبتها وأحسن
عقباه وجعل له خلفاً يرضاه).

ومن فلسفة الإسترجاع إدراك أن الإبتلاء والمصيبة تأتي بمشيئة الله ، قال
تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾^(١).

قوله تعالى ﴿وَرَحْمَةً﴾

أي نزول النعمة والعون وما يحتاجون اليه من المدد والسكينة والطمأنينة،
ولعل في الآية بشارة العوض والخلف اذ ان منطوق الآية يفيد تعلقه بالدنيا
بالإضافة الى الثواب في الآخرة لما فيه من حسن الإمثال والرضا والتحمل
في جنب الله، وأوان المصيبة من أكثر الأوقات التي يحتاج فيها العبد رحمته
تعالى لإنعدام الآلة والموازر وفقد الحبيب أو المال وللحيرة والجزع.

ولماذا لم ترد (الرحمة) معطوفة على ﴿ صَلَوَاتُ ﴾ مباشرة فلم يقل سبحانه
(صلوات ورحمة من ربهم) بل قال ﴿ صَلَوَاتُ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾، وصحيح
ان الواو للعطف وان (الرحمة) معطوفة على ﴿ صَلَوَاتُ ﴾ الا ان هذا الفصل
في العطف لا بد له من دلالات، ولعله يدل على اتساع الرحمة وان العبد
يتلقاها من الله عز وجل، وبواسطة الناس، ولانها عاجلة ظاهرة على الواقع
ومترجلة في الافعال دون الاعمال، والاقوى ان الصلوات والرحمة

منبسطان على أيام الانسان في الحياة الدنيا ويتغشيانه في الآخرة.
وفي المعاني عن الصادق عليه السلام الصلاة من الله رحمة ومن الملائكة تزكية
ومن الناس دعاء.

وعن أبي العالية قال: صلاة الله ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى^(١)، وقيل
المراد الرحمة ولكن مجيء قوله تعالى (ورحمة)، وعطفها على الصلوات
شاهد على التعدد في المعنى، ويحتمل وجوهاً:

الأول: المغايرة بين الصلوات والرحمة.

الثاني: إنه من عطف الخاص على العام.

الثالث: إنه من عطف العام على الخاص.

والصحيح هو الثاني، وأن الصلوات من رحمة الله، وأن تعدد كثرتها
الذي تدل عليه صيغة الجمع في (صلوات) شاهد على سعة رحمة الله،
وتعدد مصاديق الصلوات وتجدد أفراد الرحمة في كل زمان.

قوله تعالى ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّهَدُونَ﴾

الأولى: الآية تزكية وثناء.

الثانية: فيها قاعدة كلية وهي ان الصبر ومواجهة المصيبة بالإسترجاع
عنوان للهداية.

الثالثة: إختيار الإسترجاع عند المصيبة إصابة للحق ومعرفة للطريق
الأمثل الذي يؤدي الى الجنة.

الرابعة: يمكن تفسير الآية بان المهتدين هم الذين يسترجعون عند المصيبة
وان الإسترجاع من صفاتهم والأمارات الدالة عليهم والتي يمكن من خلالها
معرفة سمتهم وصلاتهم، ولا يتعارض هذا القول مع ما ورد عن الإمام
الصادق عليه السلام قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله عز

(١) أنظر صحيح البخاري ٤٤/١٦.

وجل: اني جعلت الدنيا بين عبادي قرضاً فمن اقرضني فيها قرضاً اعطيته بكل واحدة منهن عشراً الى سبعمائة ضعف وما شئت من ذلك، ومن لم يقرضني منها قرضاً واخذت منه شيئاً قسراً اعطيته ثلاث خصال لو اعطيت واحدة منهن ملائكتي لرضوا بها مني، قال ثم قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴿فهذه واحدة من ثلاث خصال، ورحمة اثنتين، واولئك هم المهتدون ثلاث، ثم قال عليه السلام: هذا لمن اخذ الله منه شيئاً قسراً^(١).

وفي الحديث بيان وتوكيد لإمكان التداخل بين وجوه الفضل الإلهي من غير ان يستلزم الدور بينها.

الخامسة: الإسترجاع أمر مركب فهو من وجوه الهداية وطريق الى اتمامها.

السادسة: مجيء صفة المهتدين بعد الصلوات والرحمة لابد له من دلالات، فبالإسترجاع والصبر عند فقدان قريب او مال ذي اعتبار فان الله سيتفضل عليه بصلوات ورحمة مما يؤدي انطباقاً الى الهداية والتوفيق، أي ان الهداية بمعونة وتوفيق منه تعالى، ومن وجوه المعونة الصلوات والرحمة كعلة او جزء علة للهداية، فقد يكون قول إنا لله وانا اليه راجعون سبباً للهداية بواسطة فضله تعالى، والرحمة في الآية مطلقة فلا مانع من ان يكون منها الإرشاد الى سبل الرشاد.

السابعة: يطرد الإسترجاع حال المصيبة اليأس والقنوط ووسوسة الشيطان فيكون حينئذ مناسبة للتدبر في الخلق والإرادة التكوينية والتشريعية فيستحق العبد حينئذ الرحمة والفضل الإلهي، وكأن المصيبة امتحان مركب من وقوعها بالذات ومن تلقاها بالإسترجاع.

(١) البرهان في تفسير القرآن ١/١٦٧.

الثامنة : لو جاء المكلف بالإسترجاع في غير حال المصيبة فهل يشمل الوعد الوارد في هذه الآية، الجواب انها مقيدة ومشروطة بحال المصيبة لأن فيها اجتيازاً لإختبار واستحضار لذكر الله تعالى عند اشد حاجات الجزع، نعم الإسترجاع مطلقاً أي في حال المصيبة وعدمها هو ذكر الله عز وجل.

التاسعة : في ابواب الفقه باب إسمه التأمين وهو عقد يتعهد به احد الطرفين بتدارك أي نقص او تلف يلحق بالطرف الآخر والأول يسمى المؤمن والثاني المستأمن، ويعرف بالمعنى الأعم بانه التزام بتدارك النقص والتلف في شيء بعوض معين.

والإسترجاع نوع تأمين ووعد به من غير عوض لا يشترط فيه الا قول انا لله وانا اليه راجعون اما عظيم النفع والعوض الكريم فلا يعلم مداه وابعاده الا الله عز وجل وبحسب ما اخبرت عنه الآية الكريمة.

العاشرة : صحيح ان اسباب الهداية تنفزع عن الإسترجاع ولكن العبد يستحق الوصف بانه مهتد باتيان الإسترجاع.

الحادية عشرة : ليس من فاصلة زمانية بين استرجاع العبد ونزول شأيب الرحمة الإلهية.

الثانية عشرة : نزول الرحمة منه تعالى يدل في ظاهره على التلقي المباشر وانعدام الوساطة، كما في ابراهيم عليه السلام حينما نزل عليه جبرئيل.

الثالثة عشرة : في الإسترجاع اجتناب للغلظة والقسوة والبطش والضعف وكما انها فروع للغضب فانها موضوع يتفرع عنها القول والفعل الذي قد يخرج الإنسان من ربة الإيمان، لذا فان الإسترجاع تعاهد للإيمان في النفوس فلا غرابة ان يرزق الله عز وجل العبد عليه هذه النعم المتعددة.

الرابعة عشرة : اذا كان في قول مستحب هو (انا لله وانا اليه راجعون) هذا الثواب العظيم المتعدد الوجوه والفضل والبركات، فكيف يكون ثواب أداء الفرائض التي لا تتعلق بمحادث وطارئ معين والمتكررة كل يوم

والمتضمنة للقراءة والذكر وافعال الركوع والسجود ونحوهما.

بحث بلاغي

في باب الوجوه والنظائر في البلاغة استدل بهذه الآية بان معنى الهدى في قوله تعالى ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّهَدُونَ ﴾ هو الإسترجاع، وفي آيات اخرى ذكرت له معان اخرى.

ولكن معنى الإهتداء اعم ويحمل الكلام على ظاهره وعلى الحقيقة الامع القرينة الصارفة له عن الظاهر وعن المعنى الحقيقي.

فالإهتداء في الآية ملكة نفسانية واستقرار للإيمان في النفس وعدم تزلزله عند الشدة والمصيبة وكأن المصيبة امتحان يؤكد اخلاص العبد وصدق ايمانه، والإسترجاع مبرز خارجي لهذا الإهتداء ودليل عليه وعون على استدامته. والأقوى أن اللفظ القرآني في موضع واحد له عدة وجوه ولا يعني إصطلاح الوجوه والنظائر اتحاد المعنى عند اتحاد الموضع كما هو الظاهر من التعريف والأمثلة التي ساقها كبار علماء البلاغة بل يتحد اللفظ ويتعدد المعنى والوجوه بحسب اللغة والقرائن والظاهر والنصوص ونحوها من الأدلة المعتبرة.

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة	٢٣	إفاضات الآية
٨	قوله تعالى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ عَلَيْهِمْ وَلَكُمْ تَهْدُونَ﴾	٢٤	الصلة بين أول وآخر الآية
٨	الإعراب واللغة	٢٨	التفسير الذاتي
١٠	في سياق الآيات	٣٠	من غايات الآية
١٨	إعجاز الآية	٣١	التفسير
١٩	الآية سلاح	٣٣	تفسير قوله تعالى ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾
٢٠	مفهوم الآية	٣٤	بحث علمي
٢٢	الآية لطف	٣٦	تفسير قوله تعالى ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٩	بحث عقائدي تأريخي	٦٩	الآية سلاح
٤١	تفسير قوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾	٧١	مفهوم الآية
٤٢	بحث لغوي	٧٥	الآية لطف
٤٤	تفسير قوله تعالى ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾	٧٧	إفاضات الآية
٤٧	بحث بلاغي	٧٨	الصلة بين أول وآخر الآية
٤٨	تفسير قوله تعالى ﴿وَلَأْتِمَّ نِعْمِي عَلَيْكُمْ﴾	٨٥	التفسير الذاتي
٥١	قوله تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾	٨٧	من غايات الآية
٥١	الإعراب واللغة	٨٩	تفسير قوله تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾
٥٢	في سياق الآيات	٩١	تفسير قوله تعالى ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾
٦٦	إعجاز الآية	٩٣	تفسير قوله تعالى ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٩٤	تفسير قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾	١١٣	التفسير الذاتي
٩٦	تفسير قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾	١١٥	من غايات الآية
١٠٠	قوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾	١١٨	الصلة بين أول وآخر الآية
١٠٠	الإعراب واللغة	١٢٥	تفسير قوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾
١٠١	في سياق الآيات	١٢٨	بحث كلامي
١٠٥	إعجاز الآية	١٣١	تفسير قوله تعالى ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾
١٠٧	الآية سلاح	١٣٢	بحث عرفاني
١٠٨	مفهوم الآية	١٣٣	
١١١	الآية لطف	١٣٥	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾
١١٢	إفاضات الآية	١٣٥	الإعراب واللغة

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٣٥	في سياق الآيات	١٦٣	في سياق الآيات
١٤٤	إعجاز الآية	١٧٠	إعجاز الآية
١٤٦	الآية سلاح	١٧١	الآية سلاح
١٤٧	مفهوم الآية	١٧٢	أسباب النزول
١٥١	إفاضات الآية	١٧٣	مفهوم الآية
١٥٢	الآية لطف	١٧٥	الآية لطف
١٥٣	التفسير الذاتي	١٧٦	إفاضات الآية
١٥٦	من غايات الآية	١٧٨	الصلة بين أول وآخر الآية
١٥٧	تفسير قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾	١٨٠	التفسير الذاتي
١٥٨	قوله تعالى ﴿وَالصَّلَاةِ﴾	١٨١	من غايات الآية
١٦٠	تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾	١٨٣	التفسير
١٦٣	قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءُ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾	١٨٤	قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءُ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾
١٦٣	الإعراب واللغة	١٨٨	تفسير قوله تعالى ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٨٩	تفسير قوله تعالى ﴿أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾	٢٢٠	بحث أخلاقي (فلسفة الإبتلاء)
١٩٢	قوله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾	٢٢٤	بحث عقائدي
١٩٢	الإعراب واللغة	٢٢٥	تفسير قوله تعالى ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾
١٩٤	في سياق الآيات	٢٢٩	تفسير قوله تعالى ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾
٢٠٠	إعجاز الآية	٢٣٠	بحث اجتماعي
٢٠٣	الآية سلاح	٢٣١	تفسير قوله تعالى ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾
٢٠٥	مفهوم الآية	٢٣٣	تفسير قوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾
٢٠٦	إفاضات الآية	٢٣٩	بحث بلاغي
٢٠٧	الآية لطف	٢٤٠	بحث كلامي
٢٠٨	من غايات الآية	٢٤١	بحث فقهي
٢١١	مفهوم الآية	٢٤٢	بحث أصولي
٢١٢	تفسير قوله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾	٢٤٣	قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾
٢١٥	تفسير قوله تعالى ﴿بَشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾	٢٤٣	الإعراب واللغة

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٤٤	في سياق الآيات	٢٧٩	في سياق الآيات
٢٥٠	إعجاز الآية	٢٨٤	إعجاز الآية
٢٥٢	الآية سلاح	٢٨٥	الآية سلاح
٢٥٣	مفهوم الآية	٢٨٦	مفهوم الآية
٢٥٦	بحث بلاغي	٢٨٨	الآية لطف
٢٥٦	مسائل فقهية	٢٨٩	إفاضات الآية
٢٥٧	الصلة بين أول وآخر الآية	٢٩٠	الصلة بين أول وآخر الآية
٢٥٩	التفسير الذاتي	٢٩٣	التفسير الذاتي
٢٦٠	الآية لطف	٢٩٤	من غايات الآية
٢٦١	من غايات الآية	٢٩٥	التفسير بحث إجتماعي
٢٦٣	إفاضات الآية	٢٩٧	قوله تعالى ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾
٢٦٤	تفسير قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾	٢٩٨	تفسير قوله تعالى ﴿وَرَحْمَةً﴾
٢٧١	قوله تعالى ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾	٢٩٩	قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾
٢٧٨	﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾	٣٠٢	بحث بلاغي
٢٧٨	الإعراب واللغة	٣٠٢	الفهرس